المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

لضياء الدين بن الأثير

قدمه وحققه وعلق عليه

دكتور أحمد الحوفي

دكتور بدوي طبانه

القسم الرابع

ويليه

كتاب الفلك الدائر على المثل السائر

لابن ابى الحديد

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة - القاهرة

المثل السائر

في أدب الكاتب والشاعر

لضياء الدين بن الأثير

قدّمه وحققه وعلّق عليه

دكتور أحمد الحوفي

دكتور بدوي طبانه

القسم الرابع

ويليه

كتاب الفلك الدائر على المثل السائر

لابن ابي الحديد

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة - القاهرة

تكملة باب السرقات

وربما ظن بعض الجهال أن قول الشّمّاخ :

إذا بَلّغتِنِى وحَمَلتِ رَحْلِى عَرابةَ فاشْرَقِى بدَمِ الوَتِينِ[1]

وقول أبى نواس :

وإذا المطىُّ بنا بَلَغْنَ محمدا فظهورُهُنَّ على الرجال حَرَامُ[2]

من هذا القبيل الذى هو قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة ، وليس كذلك ، فإن قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة هو أن يؤخذ المعنى الواحد فيكسى عبارتين ، إحداهما قبيحة والأخرى حسنة ، فإن الحسن والقبح إنما يرجع إلى التعبير لا إلى المعنى نفسه ، وقول أبى نواس هو عكس قول الشماخ ، وقد تقدم مثل ذلك فيما مضى من ضروب السرقات .

---

(١) الديوان ٩٢ والأغانى ٨/١٠٢ عرابة بن أوس كان سيدا من سادات قومه وجوادا من أجوادهم . فى كتاب الصناعتين ٢١٠ أن أبا نواس قال : والله ما أحسن الشماخ حيث قال (البيت) هلا قال كما قال الفرزدق :

علام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى
متى تردى الرصافه تستريحى من التهجير والدبر الدامى

وكان قول الشماخ عيبا عندى ، فلما سمعت قول الفرزدق تبعته ، فقلت :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطىء الحصا فلها علينا حرمة وذمام

وقلت : (وذكر ثلاثة أبيات أخر) .

ثم ذكر أبو هلال بعد أن فرغ من كلام أبى نواس أن الشماخ تبع ذا الرمة فى قوله :

إذا ابن أبى موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين وصليك جازر

والشماخ بن ضرار شاعر مخضرم ، شهد له الحطيئة بأنه أشعر غطفان

(٢) من قصيدته فى مدح الأمين (الديوان ٤٠٨)

ألا ترى إلى قول أبى الطيب المتنبى وقول الشريف الرضى ، فقال أبو الطيب :

إنِّى على شَغَفِي بما فى خُمُرِها لأَعِفُّ عما فى سَرَا وِيلاتِها[1]

وقول الشريف الرضى :

أَحِنُّ إلى ماتَضْمَنُ الخمْرُ والُحلَى وأَصْدِفُ عما فى ضَمانِ المَآزِرِ[2]

فالمعنى واحد والعبارة مختلفة فى الحسن والقبح .

وهذه السرقات وهى ستة عشر نوعاً لا يكاد يخرج عنها شىء ، وإذا أنصف الناظر فى الذى أتيت به هاهناعلم أنى قد ذكرت مالم يذكره غيرى ، وأنا أسأل الله التوفيق لأن أكون لفضله شكورا ، وألا أكون مختالا فخورا .

وإذْ فَرَغْتُ من تصنيف هذا الكتاب ، وحَرَّرْتُ القول فى تفصيل أقسام الفصاحة والبلاغة والكشف عن دقائقهما وحقائقهما ، فينبغى أن أختمه بذكر فضيلتهما فأقول :

اعلم أن هذا الفن هو أشرف الفضائل وأعلاها درجة ، ولولا ذلك لما نخر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدة مواقف ، فقال تارة : « أنا أفصح من نطق بالضاد » . وقال تارة : « أُعْطِيتُ خَمْسا لم يُعْطَهُن أحد قبلى ، كان كل نبي يبعث فى قومه ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأُحِلَّت لى الغنائم ،

---

(١) من قصيدته فى مدح أبى أيوب أحمد بن عمران التى مطلعها :

سرب محاسنه حرمت ذواتها دانى الصفات بعيد موصوفاتها

(الديوان ١ / ٢٠٧)

(٢) الديوان ٣٤٣ وفى الديوان (يحن ، ويصدف)

وجُعِلتْ لى الأرض طَيِّبة وَطهورا ، ونصرت بالرعب بين يَدَىْ مسيرة شهر ، واوتيت جَوامعَ الـكلم » .

وما سُمِع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتخر بشىء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة ، فلم يقل إنه أفقه الناس، ولا أعلم الناس بالحساب ولا بالطب ولا بغير ذلك ، كما قال : أنا أفصح من نطق بالضاد .

وأيضاً فلو لم تـكن هذه الفضيلة من أعلى الفضائل درجة لما اتصل الإعجاز بها دون غيرها ، فإن كتاب الله تعالى نزل عليها ، ولم ينزل بمعجز من مسائل الحساب ولا من مسائل الطب ولا غير ذلك من العلوم ، ولما كانت هذه الفضيلة بهذه المـكانة صارت فى الدرجة العالية .

والمنثور منها أشرفُ من المنظوم لأسباب ، من جملتها أن الإعجازَ لم يَتّصِلْ بالمنظوم ، وإنما اتصل بالمنثور .

الآخر أن أسباب النظم أكثر ، ولهذا نجد المجيدين منهم أكثر من المجيدين من الـكتاب ، بل لا نسبة لهؤلاء إلى هؤلاء ، ولو شئت أن تُحْصِىَ أربابَ الـكتابة ، من أول الدولة الإسلامية إلى الآن لمـا وجدت منهم من يستحق اسم الـكاتب عشرة ، وإذا أحصيت الشعراء فى تلك المدة وجدتهم عددا كثيراً ، حتى لقد كان يجتمع منهم فى العصر الواحد جماعة كثيرة ، كل منهم شاعر مُفْلِق ، وهذا لا نجده فى الـكُتّاب ، بل ربما ندر الفرد الواحد فى الزمن الطويل .

وليس ذلك إلا لوعورة المسلك من النثر ، وبعد مناله ، والـكاتب هو أحد دِعَامتى الدولة ، فإن كل دولة لا تقوم إلا على دعامتين من السيف والقلم ، وربما لا يفتقر الملك فى ملـكه إلى السيف إلا مرة أو مرتين ، وأما القلم فإنه

يفتقر إليه على الأيام ، وكثيرا ما يستغنى به عن السيف ، وإذا سئل عن الملوك الذين غبرت أيامهم لايوجد منهم من حَسُن اسمه من بعده إلا من حظى بكاتب خَطبَ عنه ، وفخّم أمر دولته ، وجعل ذكرها خالدا يتناقله الناس ، رغبة فى فصل خطابه ، واستحسانا لبداعة كلامه ، فيكون خلود ذكرها فى خفارة ما دوّنه قلمه ، ورقته أساطيره .

وليس الكاتب بكاتب حتى يضطر عدو الدولة أن يروى أخبار مناقبها فى حفله ، ويصبح ولسانه حامد لمساعيها ، وبقلبه ما به من غلة .

ولقد أحسن أبو تمام فى هذا المعنى حيث قال :

سأجْهدُ حتى أُبلغَ الشعرَ شأْوَه ... إنْ كان طَوْعًا لى ولستُ بجاهد
فإن أنا لم يَحْمَدْك عَنِّى صاغرًا ... عدوٌّ فاعلم أننى غير حامد[1]

وهذا الذى ذكرته حق وصدق ، لاينكره إلا جاهل به ، وأنا أسأل الله الزيادة من فضله ، وإن لم أكن أهلا له ، فإنه هو من أهله .

ووقفت على كلام لأبى إسحاق الصابى فى الفرق بين الكتابة والشعر ، وهو جواب لسائل سأله فقال : إن طريق الإحسان فى منثور الكلام يخالف

---

(١) من قصيدته فى مدح أبى الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة التى مطلعها :
قفوا جددوا من عهدكم بالمعاهد ... وإن هى لم تسمع لنشدان ناشد
(الديوان ٢ / ٧٧) .

يروى بالديوان (كان لى طوعا وكان طوعا لى) يريد أن قصائده فى مدح أبى الحسين يعجب بها أعداؤه فيروونها ، فإن أنشدوها فكأنهم قد حمدوه .

طريق الإحسان فى منظومه ، لأن الترسل هو ما وضح معناه ، وأعطاك سماعه فى أول وهلة ما تضمنته ألفاظه ، وأفخر الشعر ماغمض ، فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه .

ثم قال بعد ذلك : ولسائل أن يسأل فيقول : من أى جهة صار الأحسن فى معنى الشعر الغموض وفى معانى الترسل الوضوح ؟

فالجواب أن الشعر بُنِي على حدود مقررة ، وأوزان مقدرة ، وفُصِّلت أبياته ، فكان كل بيت منها قائما بذاته ، وغير محتاج إلى غيره ، إلا ماجاء على وجه التضمين وهو عيب . فلما كان النَّفَسُ لا يمتد فى البيت الواحد بأكثر من مقدار عَرُوضه وضَرْبه وكلاهما قليل ، احتيج إلى أن يكون الفصل فى المعنى، فاعتمد أن يلطف و يدق .

والترسل مبنى على مخالفة هذه الطريق ، إذ كان كلاما واحدا لا يتجزأ ولا يتفَصَّل إلا فصولا طوالا ، وهو موضوع وَضْعَ ما يُهَذْ هَذ[1] أو يمر على أسماع شَتّى من خاصة ورعية ، وذوى أفهام ذكية وأفهام غبية ، فإذا كان متسلسلا ساغ وقَرُب ، فجميع ما يُسْتَحَبُ فى الأول يكره فى الثانى ، حتّى إن التضمين عيب فى الشعر وهو فضيلة فى الترسل .

ثم قال بعد ذلك : والفرق بين المترسلين والشعراء أن الشعراء إنما أغراضها التى يرمون إليها وصف الديار والآثار ، والحنين إلى الأهواء وَالأوطار ، والتشبيب بالنساء ، والطلب والاجتداء ، والمديح والهجاء ، وأما المَتَرسِّلون فإنما يترسلون فى أَمْرِ سَدادِ ثغر ، و إصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو مجادلة لمسألة ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أوتهنئة بعطية، أو تعزية برزية ، أو ماشا كل ذلك .

---

(١) يهذهذ : يقطع فى سرعة أو مرة بعد مرة .

هذا ما انتهى إليه كلام أبى إسحاق فى الفرق بين الترسل والشعر .

ولقد عجبت من مثل ذلك الرجل الموصوف بذلاقة اللسان وبلاغة البيان ، كيف يصدر عنه هذا القول الناكِبُ عن الصَّواب ، الذى هو فى باب ، ونصى (١) النظر فى باب ، اللهم غَفْرا .

وسأذكر ما عندى فى ذلك لا إرادةً للطعن عليه ، بل تحقيقا لمحل النزاع فأقول : أما قوله : إن الترسل هو ما وَضَح معناه ، والشعر ما غَمُض معناه ، فإن هذه دعوى لا مَستَنَدَ لها ، بل الأحسن فى الأمرين معا إنما هو الوضوح والبيان .

على أن إطلاق القول على هذا الوجه من غير تقييد لا يَدُلُّ على الغَرض الصحيح ، بل صوابُ القوال فى هذا أن يقال كل كلام من منثور ومنظوم فينبغى أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة ، لأنها إن لم تكن مفهومة فلا تكون فصيحة ، لكنْ إذا صارت مركبة نقلها التركيب عن تلك الحال

فى فهم معانيها ، فمن المركب منها ما يفهمه الخاصة والعامة ، ومنه مالا يفهمه إلا الخاصة وتتفاوت درجات فهمه ، ويكفى من ذلك كتاب الله تعالى ، فإنه أفصح الكلام ، وقد خوطب به الناس كافة من خاص وعام ، ومع هذا فمنه مايتسارع الفهم إلى معانيه ، ومنه ما يَنْغَمِضُ فيعزُّ فهمه . والألفاظ المفردة ينبغى أن تكون مفهومة ، سواء كان الكلام نظما أو نثرا ، وإذا تركبت فلا يلزم فيها ذلك ، وقد تقدم فى كتابى هذا أدلة كثيرة على هذا فتؤخذ من مواضعها .

وأما الجواب الذى أجاب به فى الدلالة على غموض الشعر ووضوح الكلام المنثور ، فليس ذلك بجواب ، وهَبْ أن الشعر كان كل بيت منه قائما بذاته ،

---

(١) ة ـ

فلِمَ كان مع ذلك غامضا ؟ وهَبْ أن الكلام المنثور كان واحدا لايتجزأ ، فلم كان واضحا ؟ ثم لو سلمت إليه هذا فماذا يقول فى الكلام المسجوع الذى كل فقرة منه بمنزلة بيت من شعر ؟ .

أما قوله فى الفرق بين الشاعر والكاتب : « إن الشاعر من شأنه وصف الديار والآثار والحنين إلى الأهواء والأوطار ، والتشبيب بالنساء ، والطلب والاجتداء ، والمديح والهجاء ، وإن الكاتب من شأنه الإفاضة فى سداد ثغر ، أو إصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو مجادلة لمسألة ، أو دعاء إلى الفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزية » فإن هذا تَحَكُّم مَحْضٌ لايستند إلى شبهة ، فضلا عنَ بَيِّنَة .

وأىُّ فرق بين الشاعر والكاتب فى هذا المقام ؟ فكما يصف الشاعر الديار والآثار ، ويحن إلى الأهواء والأوطار ، فكذلك يكتب الكاتب فى الاشتياق إلى الأوطان ، ومنازل الأحباب والإخوان ، ويحن إلى الأهواء والأوطار ، ولهذا كانت الكتب الإخوانيات بمنزلة الغزل والنسيب من الشعر .

وكما يكتب الكاتب فى إصلاح فساد أو سَدادِ ثغر أو دُعَاء إلى أُلْفة أو نَهْىٍ عن فُرْقَةٍ أوتهنئة أو تعزِية ، فكذلك الشاعر .

فإن شَذَّ عن الصابى قصائدالشعراء فى أمثال هذه المعانى فكيف خَفِىَ عنه قصيدةأبى تمام فى استعطاف مالك بن طَوْق على قومه التى مطلعها :

(لو أن دَهْرا ردَّ رَجْعَ جوابى)[1] .

---

(١) الشطر الثانى : أوكف من شأويه طول عتاب (الديوان ١ / ١٠٨)
الشأوان : تثنية شأو وهو الطلق ، واستعارة هاهنا للدهر كأنه يذهب إلى فعله الشىء وضده ، والمراد من البيت أنه لو نفع عتابه للدهر لعاتبه

أم كيف أخل بالنظر فى ديوان أبى الطيب المتنبى ، وهما فى زمن واحد ، فما تأمّل قصيدته فى الإصلاح بين كافور الإخشيدى وبين مولاه التى مطلعها :

(حَسَمَ الصلح ما اشتهته الأعادى[١]).

وكذلك لا شك أنه لم يقف على قصيدة أبى عبادة البحترى فى غزو البحر التى مطلعها :

(ألم ترتغَلِيسَ الربيع المبكّرِ[٢]) :

ولو أخذتُ فى تعداد قصائد الشعر فى الأغراض التى أشار إليها وخَصّ بها الكاتب لأطلتُ، وذكرت الكثير الذى يحتاج إلى أوراق كثيرة ، وكل هذه الفروق التى نص عليها وعددها فليست بشىء ، ولا فرق بين الكتابة والشعر فيها .

والذى عندى فى الفرق بينهما هو من ثلاثة أوجه :

الأول : من جهة نظم أحدهما ونثر الآخر ، وهذا فرق ظاهر .

الثانى : أن من الألفاظ ما يُعابُ استعمالهُ نثراً ولا يعاب نظماً ، وذلك شىء استخرجتهُ ، ونبهت عليه فى القسم الأول المختص باللفظة المفردة فى المقالة الأولى من هذا الكتاب ، وسأعيد هاهنا شيئاً فأقول : قد ورد فى شعر أبى تمام قوله :

(١) تكملة البيت : وأذاعته ألسن الحساد (الديوان ٧ / ١٠٦) كان قوم قد حاولوا أن يفسدوا ما بين ابن الإخشيد وكافور ، فطالب كافور بتسليمهم إليه ، فامتنع ابن الإخشيد ثم سلمهم ، وصالح كافورا

(٢) فى مدح أحمد بن دينار بن عبد الله ووصف مركب اتخذه وهو والى البحر ، وغزا فيه بلاد الروم (الديوان ١ / ٢٢) . والشطر الثانى : وماحاك من وشى الرياض للنشر . التغليس : السير فى الغلس . الوشى : الزخرف . النشر : الطيب الرائحة القائمة

هى العِرمِسُ الوَجْنـــاء وابنُ مِلَمَّةٍ
وجَأْشٌ على ما يَحدِثُ الدهرُ خافِضُ(١)

وكذلك ورد فى شعر أبى الطيب المتنبى كقوله :

ومَهْمَهٍ جُبْتُه على قَدَمى تَعجِزُ عنه العَرامِسُ الذُّلُلُ(٢)

فلفظة المهمه والعِرمس لايُعاب استعمالها فى الشعر ، ولو استعملا فى كتاب أو خطبة كان استعمالها معيبا . وكذلك مايشا كلهما ويناسبهما من الألفاظ ، وكل ذلك قد ضبطتهُ بضوابط ، وحددته بحدود تفصله عن غيره من الألفاظ ، فليؤخذ من المقالة الأولى ، ولولا خوف التكرار لأعدته هاهنا .

الثالث : أن الشاعر إذا أراد أن يشرح أمورا متعددة ذوات معان مختلفة فى شعره ، واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتى بيت أو ثلاثمائة أو أكثر من ذلك ، فإنه لا يجيد فى الجميع ولا فى الكثير منه ، بل يجيد فى جزء قليل ، والكثير من ذلك ردىء ، غير مرضى ، والكاتب لا يُؤْتَى من ذلك ، بل يطيل فى الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر ، وتكون مشتملة على ثلاثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة ، وهو مجيد فى ذلك كله ، وهذا لا نزاع فيه ، لأننا رأيناه وسمعناه وقلناه .

---

(١) من قصيدته فى مدح دينار بن عبد الله التى مطلعها :
مهاة النقا لولاالشوى والمآبض وإن محض الإعراض لى منك ما جض
(الديوان ٢ / ٢٩٤) وبالديوان (هى الحرة)
الحرة : الجيدة . العرمس : الناقة الصلبة . الوجناء : الناقة الشديدة . الملم : الشديد من كل شىء ، والملمة الشديدة . الجأش: النفس أو القلب (تاج العروس) . خافض : الخفض الدعة وعيش خافض ناعم وادع

(٢) من قصيدته فى مدح بدر بن عمار (الديوان ٢ / ٤٠٥)
مهمه : فلاة . العرامس : جمع عرمس وهى الناقة الصلبة الشديدة . الذلل : المذللة بالعمل المروضة بالسير، جمع ذلول المذكر والمؤنث .

وعلى هذا فإنى وجدت العجم يَفْضُلون العرب فى هذه النكتة المشار إليها ، فإن شاعرهم يذكر كتابا مصنفا من أوله إلى آخره شعرا ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم ، كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف بشاه نامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر ، يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع القوم وفصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه [1] ، وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر .

اللهم صَلِّ على سيدنا محمد النبى الأمى وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ؟

---

(١) الفردوسى هو أبو القاسم الفردوسى أكبر شعراء الفرس فى القرن الرابع الهجرى . ويراه الإيرانيون أكبر شعراء الفرس جميعا . ولد بين سنتى ٣٢٠ و ٣٣٠ هـ وتوفى سنة ٤١١ أو ٤١٦ وهو ناظم ملحمة الفرس الكبرى المعروفة بالشاهنامة أى كتاب الملوك . والمشهور أن أبياتها ستون ألف بيت ، ولكن النسخ المختلفة الموجودة الآن تزيد على ذلك وتنقص ، وقد اتصل الفردوسى بالسلطان محمود الغزنوى وقدم له الشاهنامة ، فأعرض عنه ، ولم يحسن جائزته . فتركه الشاعر مغاضبا ، وهجاه بأبيات مثبتة فى بعض نسخ الشاهنامة . وله غيرها قصة يوسف وزليخا ، وليست الشاهنامة مقصورة على تاريخ الفرس وحروبهم ، بل بها روائع فى الوصف والقصص العاطفى والعظات والحكم وهى فوق ذلك مثال فى روعة الأسلوب .

الفَلَكُ الدّائِر
على المثَل السّائِر
لابن أبي الحديد

قدَّم له ، وحققه ، وعلق عليه

دكتور أحمد الحُوفي و دكتور بدَوي طَبانه

تصدير

رأينا أن نضم إلى كتاب المثل السائر أهم كتاب فى الرد عليه ، هو (الفَلَك الدائر على المثل السائر) لابن أبى الحديد ، لتكتمل الفائدة بهما معا .

وفى هذه الصفحات التى نصدر بها الكتاب نعرف بمؤلفه ونعرف بالكتاب نفسه .

ابن أبى الحديد[1]

حياته :

هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبى الحديد ، المدائنى المعتزلى الشيعى الفقيه الشاعر .

ولد فى غرة ذى الحجة سنة ٥٨٦ هـ وكان من أعيان العلماء الأفاضل ، بارعا فى علم الكلام على مذهب المعتزلة ، أديبا جيد النثر والشعر .

اشتغل زمنا فى الدواوين السلطانية ، وأدرك إغارة المغول على بغداد ، ولما هجم عليها هولاكو فى ٢٠ من المحرم سنة ٦٥٦ هـ وأسرف فى التخريب والتقتيل كان ابن أبى الحديد وأخوه موفق الدين أحمد بن أبى الحديد من الذين نجوا من القتل فى دار الوزير مؤيد الدين محمود بن العَلْقَمِى[2] . وقابل خواجه

---

(١) اعتمدنا فى التعريف به على فوات الوفيات لابن شاكر ١/٦ وعلى ما نقل فى نهاية شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة من (معجز الآداب فى معجم الألقاب) لأحمد محمد بن أبى المعالى الشيانى الفوطى . و على محاضرات الخضرى فى تاريخ الدولة العباسية ،

(٢) كان وزيراً للمستعصم بالله، وكان من كبار رجال الشيعة . وكانت الفتن كثيرة بين أهل السنة والشيعة ، وكان يسوؤه أن الشيعة مضطهدون من أهل السنة ، وأن البيت العباسى يعضد أهل السنه . فيقال إن الوزير كاتب هولاكو وحرضه على فتح بغداد ، وهو يريد إسقاط الخلافة العباسية وبعض المؤرخين يدلل على هذه التهمة ، وبعضهم يبرئه منها .

نصير الدين الطوسى ، فوكل الإشراف على خزائن الـكتب ببغداد إليه وإلى أخيه موفق الدين والشيخ تاج الدين على بن أنجب .

ولـكن أيامه لم تطل ، فقد توفى فى جمادى الآخرة سنة ٦٥٦

مؤلفاته :

أما مؤلفاته فإنها كثيرة تدل على كلفه بالثقافة الشرعية والأدبية ، وقد سلم بعضها من عادية الدهر ، وطبع .

١ ـ شرح نهج البلاغة .

ألفه لخزانة كتب الوزير مؤيد الدين محمود بن العلقمى . وهو شرح مفصل لخطب ورسائل الإمام علىّ ، يحتوى على مسائل كثيرة لم يحتو عليها كتاب من جنسه .

ولما فرغ من تأليفه بعثه إلى الوزير مع أخيه مؤيد الدين أبى المعالى ، فأرسل إليه الوزير مائة دينار ، وجلة سنية ، وفرسا .

وقد طبع هذا الشرح .

٢ ـ العبقرىّ الحِسان .

وهو كتاب فريد الوضع ، اختار فيه نصوصا شتى من علم الـكلام والتاريخ والشعر ، وأودعه قطعا من إنشائه وترسلاته ومنظوماته ، وقد ذكره فى كتابه الفلك الدائر .

٣ ـ الاعتبار على كتاب الذريعة فى أصول الشريعة للسيد المرتضى ، فى ثلاثة مجلدات .

٤ ـ شرح المحصل للإمام فخر الدين .

وهو نقض لـكتاب المحصل وردود عليه .

٥ ـ نقص المحصول فى علم الأصول .

وهو رد آخر على الإمام فخر الدين .

٦ ـ شرح مشكلات الغرر لأبى الحسن البصرى فى أصول الكلام .

٧ ـ شرح الياقوتة لابن نوبخت فى علم الكلام أيضاً .

٨ ـ الوشاح الذهبى فى العلم الأدبى .

٩ ـ انتقاد المُصَفَّى للغزالى ، فى أصول الفقه .

١٠ ـ الحواشى على كتاب المفصَّل فى النحو .

١١ ـ الفلك الدائر على المثل السائر

شعره :

له شعر كثير ، أجَلُّه وأَكثره شهرة القصائد السبع العَلَويَّات ، نظمها فى صباه بالمدائن سنة ٦١١ ﻫ فى الإشادة بعلى بن أبى طالب . ويروى أنه نظم فصيح ثعلب فى يوم وليلة .

١ ـ من شعره ما كتب به إلى الوزير ابن العَلْقَمِى لما بعث إليه مكافأة على تأليف شرح نهج البلاغة :

أَيارَبَّ العبـاد رفَعْتَ صُنْعى ... وطُلْتَ بمنكبى وَبَلَلْتَ ريقى

وزَيْغَ الأَشْعرىِّ(١) كشفتَ عنى فلم أَسْلُكْ ثَنِيَّاتِ الطريق(٢)
أحب الاعتزال ونـــاصريه ذوى الألباب والنظر الدقيق
فأهل العدل والتوحيـــد أهلى نَعَمْ ففريقهم أبـــدا فريقى
وشرح النهج لم أدركه إلا بعونك بعـــد مَجْهدةٍ وضيق
تَمَثَّلَ إذ بدأتَ به لعينى هناك كَذِرْوة الطَّوْد السَّحيق
فتمَّ بحسن عونك وهو أنأى من العيُّوق(٣) أو بَيْض الأَنُوق(٤)
بآل العلْقَمِىِّ ورَتْ زنادى وقامت بين أهل الفضل سُوقى
فكم ثوبٍ أنيق نلتُ منهم ونِلْتُ بهم، وكم طِرْفٍ عَتيق(٥)
أدام الله دولتهم وأَنْحَى على أعـــدائهم بالخَنْفقِيق(٦)

---

(١) الأشعرى هو أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، ينتسب إلى أبى موسى الأشعرى ، كان معتزليا أولا ، ثم خرج على مذهب المعتزلة وحاربهم بمثل سلاحهم ، وأخذ من مذهبهم بعض الآراء ، ومن مذهب خصومهم بعضها ، وكون لنفسه مذهبا مختاراً حاول فيه أن يوفق بين المعقول والمنقول ، وهو أميل إلى مذهب أهل السنة ، يثبت الصفات لله تعالى من علم وقدرة وإرادة ، وهى صفات أزلية قائمة بذاته تعالى . ويقول بإمكان رؤية الخالق سبحانه وتعالى فى الآخرة ، لكن يستحيل أن تكون الرؤية على جهة ومكان وصورة ومقابلة .

ومذهبه فى الوعد والوعيد مخالف المعتزلة من كل وجه :

ولكن بعض العلماء الكبار من أهل السنة لم يوافقوه على آرائه كلها ، ورأوا أن بعضها مشوب بآراء المعتزلة .

(الملل والنحل ١ / ٨٥)

(٢) ثنيات الطرق : الطرق الملتوية المعوجة .

(٣) العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .

(٤) بيض الأنوق : الأنوق : على وزن صبور العقاب والرخمة ، وهو أعز من بيض الأنوق لأنها تحرزه فلا يكاد يظفر به أحد ؛ لأن أوكارها فى القلال الصعبة .

(٥) الطرف : الفرس الأصيل الكريم .

(٦) الخنفقيق : السريعة جدا من النوق والغزلان وحكاية جرى الخيل ، وهو مشى فيه اضطراب وللمراد الداهية .

٢ — ومن شعره قوله فى مناجاة الله وبيان مذهبه فى الاعتزال :

وحقِّك لو أدخلتنى النار قلتُ لِلَّـ ذين بها قد كنت ممن يُحبُّهُ
وأفنيتُ عمرى فى دقيق علومه وما بغيتى إلا رضــاه وقُرْبُهُ
هبونى مسيئا أَوْضَعَ العلمُ جهله وأَرْبعةٌ دون البرية ذنبهُ(١)
أما يَقْتَضِى شرعُ التـكرم عَفْوَهُ أَيَحْسُنُ أن يُنْسَى هواه وحُبُّهُ ؟
أما رَدَّ زَيْغَ ابنِ الخطيب وشــكّه وتمويهم فى الدين إذ عَزَّ خَطْبُهُ ؟
أما كان ينوى الحقّ فيما يقوله ألم تَنْصُرِ التوحيدَ والعَدْلَ كُتْبُهُ
وغايةُ صِدْق العبد أن يَعْذُبَ الأسى إذا كان من يَهْوَى عليه يَصُبُّه

فرد عليه الشيخ صلاح الدين الصَّفَدى بقوله :

علمنا بهذا القول أنك آخذٌ بقول اعتزالٍ جَلَّ فى الدين خَطْبُهُ ؟
فتزعمُ أن الله فى الحَشْرِ ما يُرَى وذاك اعتقادٌ سوف يُرْديك غِبُّه
وتَنفِي صفات الله وهى قديمةٌ وقد أَثْبَتَتْها عن إلهك كتْبُهُ
وتعتقد القرآن خلْقاً ومُحْدَثاً وذلك داء عزَّ فى الناس طِبُّهُ
وتُثْبتُ للعبد الضعيف مشيئةً يـكون بها ما لم يُقَدِّره ربُّـهُ
وأشياءُ من هذى الفضائح جَمَّةٌ فأيكما داعى الضلال وحِزْبُهُ ؟
ومن ذا الذى أضحى قريبا إلى الهُـدَى
وجــــاء عن الدين الحنيفىِّ ذَبُّـهُ
وما ضَرَّ فخرَ الدين قولٌ نظمتَهُ وفيه شَنَاعٌ مُفْرِطٌ إذْ تَسُبُّهُ

. . . .

(١) أوضع العلم جهله : لزمه ، من أوضعت الإبل إذا رعت الحمض حول الماء ولم تبرحه.

٣ — ومن شعره قوله :

لو لا ثلاث لم أخَفْ صَرْعتى ليست كما قال فَتَى العَبْدِ (١)
أن أَنْصُر التوحيد والعدلَ فى كل مكان باذلا جُهْدى
وأن أناجى الله مستمتعــا بَخلْوة أحْلَى من الشّهد
وأن أَتِيهَ الدهر كِبْراً على كل لئيم أصْعَر الخــدّ
لذاك لا أهوى فتـــاة ولا خمرا ولا ذا مَيْعةٍ نَهْدِ

(١) يريد طرفة بن العبد حيث قال :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فنهن سبقى العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف مجنبا كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف المعمد

(من معلقه طرفة بن العبد)

عودى : من يحضره عند موته وينوح عليه .

الكميت : من الخمر التى تضرب إلى السواد . متى ما تعل بالماء : أى تمزج به.

كرى : عطفى . المضاف : الذى نزلت به الهموم : المجنب : فرس فى وظيفيه احديدابه ليس بالاعوجاج الشديد وهذا يدل على القوة . سيد : ذئب . الغضا : شجر ، وذئابه أخبث الذئاب . المتورد : الذى يطلب أن يرد الماء .

الدجن : المطر الغزير والباس الغيم الأرض . بهكنة : المرأة الممتلئة أو الخفيفة الروح المليحة الطيبة الرائحة . معجب : يعجب من رآه . الطراف المعمد : الخباء ذو الأعمدة من أدم

الفلك الدائر على المثل السائر

— ١ —

ألف هذا الكتاب ليرد به على كتاب ابن الأثير (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) لأنه وجد فيه — كما قال فى المقدمة — المحمود والمردود .

أما المحمود فإنشاء ابن الأثير وصناعته ، إلا فى الأقل النادر .

وأما المردود فنظره وجدله واحتجاجه واعتراضه وتحامله على الفضلاء ، وإفراطه فى الإعجاب بنفسه ، والتقريظ لعلمه وصناعته .

كذلك قصد من تأليفه إلى أن يبين لمن راقهم كتاب المثل السائر من أكابر أهل الموصل وبغداد مافى الكتاب من وجوه النقص وألوان المآخذ ، وأن يُعلِمَ ابن الأثير ورؤساء بلده أن فى خدم المستنصر من يفوقه علما وافتنانا .

وكان كتاب المثل السائر قد وصل إليه فى غرة ذى الحجة سنة ٦٣٣ ﻫ فتصفحه ، وعلق عليه فى خمسة عشر يوما كما ذكر فى المقدمة ، ولم يعاود النظر فيه مرة ثانية .

ولما ألفه كتب إليه أخوه موفق الدين هذين البيتين :

المثل السائر ياسيدى صنَّفْتَ فيه الفلَكَ الدائرا

لكن هذا فلكٌ دائر أصبحتَ فيه المثلَ السائرا

وقد قدم كتابه إلى خزانة كتب الخليفة المستنصر بالله[1] .

---

(١) أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر : بويع بالخلافة يوم وفاة والده فى ١٤ من رجب سنة ٦٢٣ (١١ يوليو سنه ١٢٢٦) واستمر فى الخلافة إلى أن توفى فى ١٠ من جمادى الأخر سنة ٦٤٠ وله آثار جليلة فى بغداد منها المدرسة المستنصرية ، وكان شهما جوادا عادلا .

أما تسمية الكتاب فقد أراد بها — كما ذكر فى المقدمة — نقض كتاب المثل وإبطاله ومحوه ، لأنهم يقولون لِما باد ودثر قد دار عليه الفلك ، كأنهم يريدون أنه قد طحنه ومحاه .

— ٢ —

رأينا أن نخرج هذا الكتاب ، لأنه وثيق الصلة بكتاب المثل السائر ، وهو فى جملته تعليق عليه ونقد له ، وتوسعة لمجال الدراسات البلاغية والنقدية .

والنسخة التى اعتمدنا عليها مطبوعة على الحجر سنة ١٣٠٩ هـ على نفقة الميرزا محمد الشيرازى ، فى ١٨٤ صفحة من القطع المتوسط .

وطبعتها رديئة جداً ، تنوء بالتحريف والأغلاط ، وليس بها ترتيب ما ، وكل ما بها من شعر مدمج بالنثر إدماجا .

وكثيرا ما يكتفى المؤلف بالإشارات إلى بعض النصوص ، وكثيرا ما يذكر النص مبتورا ، سواء أكان آية قرآنية أم بيت شعر أم مثلا ، وكثيرا يورد النصوص غير منسوبة إلى قائليها ، وفى بعض الأحيان ينسبها إلى غير قائليها .

فاجتهدنا فى معالجة هذا كله .

صححنا النصوص المحتاجة إلى تصحيح ، وأكملنا ما يحتاج إلى إكمال ، ونسبنا النصوص المجهولة إلى قائليها ما استطعنا ، وصوبنا نسبة بعضها إلى أصحابها ، ورجعنا كل نص إلى مصدره الذى أخذ منه أو الذى صححناه منه .

وراجعنا ما نقله من (المثل السائر) فقرة فقرة ، سواء أكان النقل كاملا أم ملخصا ، ونبهنا على ذلك .

وعَرَّفنا بكثير من الأعلام والأحداث التي ذكرها فى كتابه .

وشرحنا ما يحتاج من نثر المؤلف إلى شرح .

— ٣ —

يتبين من دراسة (الفلك الدائر) أن ابن أبى الحديد كان معجبا بنثر ابن الأثير ، وببراعته فى حل المنظوم ، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوى ، ويغلب على نقده الموضوعية .

ونستطيع أن نقسم نقده ثلاثة أقسام :

١ — بعضه حق ، مثله قوله :

(ا) قال المصنف — ابن الأثير — : « ولا أدعى فيما ألفته فضيلة الإحسان ، ولا السلامة من سَبْق اللسان » . ثم قال بعد سطر واحد : « وإذا تركت الهوى قلت إن هذا الكتب بديع فى إغرابه ، وليس له صاحب من الكتب فيقال إنه متفرد من بين أصحابه » .

وعلق ابن أبى الحديد بقوله : وهل يَدَّعى أحد فضيلة الإحسان بأبلغ من هذا الكلام ؟ وقد قال قبل هذا التواضع بثلاثة أسطر : « إن الله هدانى لابتداع أشياء لم تكن من قبلى مبدعة ، ومنحنى درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعة وإنما تكون مُتَّبَعَة » .

فمن يزعم أن الله هداه فى هذا الفن إلى ابتداع أشياء لم يُسْبَقْ بها ، ورزقه فيها درجة الاجتهاد التى يتبعها الناس كيف يقول : لا أدعى فيما ألفته فضيلة إلا وبلغتها ؟

(ب) وكان ابن الأثير قد نبه الكُتَّاب على أن يعلموا فيما يعلمون مايتصل بالنحو والصرف واللغة وقال : « وأما الإدغام فلا حاجة إليه لكاتب ، لكن الشاعر ربما احتاج إليه ، لأنه قد يضطر فى بعض الأحوال إلى إدغام حرف ، وإلى فك إدغام من أجل إقامة الميزان الشعرى » . ثم قال بعد ذلك : « وإنما قصدنا أن يكون الكِتاب الذى يكتب فى هذا المعنى مشتملا على الترغيب والترهيب والمسامحة فى موضع والمحاققة فى موضع » .

وتلقف ابن أبى الحديد كلمة (المحاققة) فعلق عليها بقوله : قد ظهرت فائدة علم الإدغام فى باب الكتابة ، فإن الكاتب أراد أن يوازن لفظة المسامحة بلفظة المحاققة ، وسها عن أن المحاققة بفك الإدغام غير جائزة .

(ح) قال ابن الأثير : « وقد مدح أبو الطيب كافورا بقوله :

فما لك تُعنَى بالأسِنَّة والقَنا ... وَجدُّك طَعَّانٌ بغير سِنان ؟

وما لك تختار القِسِيَّ وإنما ... عن السعد يَرْمِى دونك الثَّقَلان ؟

وهذا يحتمل المدح والذم ، بل هو بالذم أشبه ، لأنه يقول إنك لم تبلغ ما بلغته بسعيك واهتمامك ، بل بجدٍّ وسعادة ، وهذا لافضل فيه ، لأن السعادة ينالها الخامل والجاهل ومن لايستحقها . وأكثر ماكان المتنبى يستعمل هذا الفن فى القصائد الكافوريات » .

وعلق ابن أبى الحديد على هذا تعليقا يدل على ذوقه الصائب ، واطلاعه الواسع ، وتحرره مما تناقله الناس ، فقال : إن الناس واقع لهم واقع ظريف مع المتنبى فى هذا الباب ، وكان أصله الشيخ أبو الفتح عثمان بن جنى رحمه الله .

وزعم بعضهم أن المتنبي كان يبغض كافورا ويَحْنَقُ عليه ، فكان يقصد ذلك ويتعمده بالشعر الموَجَّه الذى يحتمل المدح والذم .

ومنهم من زعم أن كافورا كان يتفطن لذلك ويغضى عنه ؛ وينقلون هذا عن المتنبي .

وما كان ذلك قط ، ولا وقع شيء منه ، ولا قصد أبو الطيب نحو ذلك أصلا .

ثم ضرب أمثلة من مدح المتنبي لسيف الدولة ، فيها مدح بالَجدِّ وحسن الحظ ، كقوله :

ولقد رُمْتَ بالسعادة بعضا   من نفوسِ العِدا فأدركتَ كُلاَ

وقوله :

إذا سعت الأعداء فى كَيْد مَجْدِهِ   سعى جَدُّه فى كيدهم سَعْيَ مُحْنَقِ

وقوله :

لو لم تكن تجرى على أسيافهم   مُهَجاتُهم لجرَتْ على إقباله

وقوله :

هم يَطْلُبون فَمَنْ أَدْرَكُوا   وهم يكذبون فمن يَقبَلُ

وهم يتمنون ما يشتهون   ومِنْ دونه جَدُّك المقبل

وضرب أمثلة أخرى من شعر المتنبى فيها إشارة بالحظ المواتى والسعد المسعف ، ثم قال : ولكن سيف الدولة لما اشتهر إخلاص أبى الطيب له عدل

الناس عن هذا الشعر الذى يتضمن ذكر الجدِّ والحظ فلم يذكروه ، ولم يجعلوه متوسطا بين المدح والذم ، وقالوا ذلك فى كافور لما حدث تغيره مع أبى الطيب، وانحراف كل منهما عن صاحبه ، ومجاهرة أبى الطيب له بالهجاء بعد أن فارقه .

ثم زاد الفكرة تأكيدا بأمثلة من شعراء آخرين .

(د) قال ابن الأثير فى تفسير بيت أبى صخر الهذلى :

عجبتُ لسَعْى الدهر بينى وبينها　　　فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهر

إنه يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أنه أراد بسعى الدهر سرعة تقضى الأوقات مدة الوصال ، فلما انقضى الوصل عاد الدهر إلى حالته الأولى فى السكون والبطء .

والآخر أنه أراد بسعى الدهر سعى أهل الدهر بالنَّمائم والوشايات ، فلما انقضى ما كان بينهما من الوصل سكنوا وتركوا السِّعاية .

فعلق ابن أبى الحديد بقوله : التفسير الثانى هو الصحيح ، والأول غير صحيح ، واللفظ لا يحتمله ، وفى البيت ما يمنع منه ، لأنه قال (بينى وبينها) وهذه اللفظة تمنع من أن يريد سرعة تقضى الزمان أيام وصالنا ، فإنها قرينة تحمل لفظ السعى على العناية والنميمة بالشر ، لا على السعى بمعنى الحركة والسير .

ألا تراهم يقولون سعى فلان بين فلان وفلان بالشر ، أى ضرب بينهم ، وحمل بعضهم على بعض ، ولا يقولون سعى بينهم من السعى بمعنى الحركة والسير ؟

وليس هذا مقصود البيت . ولو أراد السعى بمعنى سرعة مرور الزمان لقال عجبت لسعى الدهر أيام وصلنا ، أو ما يشبه ذلك .

وفساد المعنى الأول ظاهر عند من له أدنى نقد للمعانى الشعرية .

(هـ) قال ابن الأثير : الأسماء المترادفة هى التى يتحد فيها المسمى ، وتختلف أسماؤه ، كالخمر والراح والمدام .

وعلق ابن أبى الحديد بقوله : هذا من أمثال الغلطات التى نبه عليها المنطقيون ، فقالوا قد يُظَنُّ فى كثير من الأسماء أنها مترادفة ، وهى فى الحقيقة متباينة ، كالسيف والصارم والمُهَنَّد ، فكل واحد من هذه مباين للآخر ، فالأسماء الموضوعة لها متباينة فى الحقيقة ، وإن ظنّ فى الظاهر أنها مترادفة .

وكذلك ما مثّل به هذا المصنف ، فإن الخمر اسم موضوع لهذا الشراب المخصوص ، والراح اسم لما ترتاح النفس إليه ، والمدام اسم لما يُدامُ استعماله ، فالمعانى متباينة لامحالة ، وإن تُوُهِّمَ فى الظاهر أنها مترادفة .

(و) قال ابن الأثير فى بيان المشترك اللفظى : إن مقصود واضع اللغة البيان والتجنيس ، والبيان يحصل بالألفاظ المتباينة الكافية فى الإفهام ، وأما التجنيس فإنه عمدة الفصاحة والبلاغة ، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة .

ورد ابن أبى الحديد بأن عدم الاشتراك اللفظى لايذهب التجنيس ، فإن التجنيس يحدث بين لفظتين متشابهتين فى حروفهما الأصيلة ، كقول أبى تمام :

« متى أنت عن ذُهْلِيَّةِ الحىِّ ذاهِلُ ؟ »

وأكثر التجنيس فى الشعر والرسائل مثل هذا ، ولا يستعمل التجنيس بالمشترك إلا نادراً .

وردّ أيضا بأن عدم التجنيس لايذهب حسنَ الكلام ، وضرب أمثلة بأدب عبد الحميد وابن المقفع ومن قبلهما ومن بعدهما من الفصحاء ، وقال : فهل ترى لأحد منهم تجنيسا فى كلامه إلا أن يقع اتفاقا غير مقصود ؟

٢ — وبعضه مجانبٌ للحق ، إذ كان الصواب فيما قاله ابن الأثير .

من ذلك أن ابن الأثير ذهب إلى أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر إلى آلات كثيرة ، وثقافة متنوعة ، وقد قيل : ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل علم ، ويخوض فى كل فن ، ومِلاك هذا كله الطبع ، فإنه إذا لم يكن ثم طبعٌ فإنه لاتغنى تلك الآلات شيئا ...

وعلق ابن أبى الحديد على هذا بأنه من دعاوى الكُتّاب وتزويقاتهم ، ولا يُعوَّل عليه محصل ، لأن الفنون التى يذكرها الكتاب ، ويزعمون أن الكتابة مفتقرة إليها ، إن أرادوا بها ضرورتها لها فهذا باطل ، لأن سحبان وائل وقس بن ساعدة وغيرهما من خطباء العرب ما كانت تعرفها ، كذلك من كان فى أول الإسلام من الخطباء كمعاوية وزياد وغيرهما .

وإن أرادوا أنها متممة ومكملة فهذا حق ، لكن عدمها لايقتضى سلب اسم الكتابة ، مع أن ما يحتاج إليه الكاتب يحتاج إليه الشاعر وزيادة .

ويبدو من تعليقه هذا أنه غفل عما تنبه إليه ابن الأثير من ضرورة الثقافة للكتاب .

ولم يكن موفقا فى تمثيله بقسّ وسحبان ومعاوية وزياد ، لأن هؤلاء خطباء ، ولم يعرض ابن الأثير لثقافة الخطباء ، بل عرض لثقافة الكتاب والشعراء .

والذى يقرأ ما كتبه ابن الأثير فى هذا الفصل يجده قد أشرك الشعراء مع الكتاب فى ألوان الثقافة ، واختص الشعراء بنوع منها هو علم العروض والقوافى الذى يقام به ميزان الشعر .

فلا محل إذاً لاعتراض ابن أبى الحديد بقوله : مع أن ما يحتاج إليه الكاتب يحتاج إليه الشاعر وزيادة .

— وبعضه يبدو منه أن ابن أبى الحديد يتحامل أحيانا ، ويقسو على ابن الأثير ، وإن كانت السمة الغالبة على كتابه أنه نقد موضوعى مدعوم بالبراهين .

من ذلك قوله : إن هذا الموضع من المواضع التى اشتبهت على هذا الرجل .

وقوله : وهذا من الغلط على ماتراه .

وقوله : إن كان هذا الرجل ممن ينفى القياس فى الشرعيات كلّمناه كلاما أصوليا ، كما نكلم الشيعة والنَّظام وأهل الظاهر وغيرهم ممن نفى القياس فى الفقه .

وإن كان يعترف بالقياس فى الشرعيات فالقياس فى النحويات كالقياس فى الشرعيات .

وإذا كان ابن أبى الحديد قد أخذ على ابن الأثير إعجابه بفنه وإشادته بكتابه ، فإن ابن أبى الحديد قد تورط فى مثل هذا .

من ذلك قوله :

وقد كنت شرعت فى حلِّ سينيات المتنبى ، وأن أجعل ذلك كتابا مُفْرَدا ، وأنا أورد هاهنا بعض ذلك ، ليكون معارضا لما جاء به هذا الرجل .

ومن ذلك أنه أورد مثالا من نثره فى حل بيتى المتنبى :

بناها فأعلى والقنا يَقْرَعُ القنا ... وموجُ المنايا حوله متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جُثَثِ القتلى عليها تمائم

وأورد مثالين لابن الأثير فى حل البيتين .

ثم قال : ومن عنده أدنى ذوق فى فن الكتابة يعرف الفرق بين كلامنا وهذا الكلام .

ثم قال : والزيادات العجيبة ، والتسميطات والأسجاع التى أتينا بها تزرى على ما أتى به هذا الكاتب ، وتتجاوزه أضعافا مضاعفة .

ومن هذا ما ذكره فى المقدمة من الزهو بعلماء بغداد والفخار بأدبائها ، وتفضيلهم على من سواهم تفضيلا مبالغا فيه ، وهو يريد نفسه ، وإن كان قد حاول أن يستل نفسه ممن أشاد بهم .

نص الكتاب

الحمد الله الذى فَاوَتَ بَيْنَ عُقولِ البَشَرِ وأخلاقِهِمْ ، كما فَاوتَ بين أعمارِهم وأَرْزاقِهِمْ ، فـكان من خَفايا تَدْبِيرِه ، ولطائف حِكْمته وتَقْديره ، أن أَرْضَى كلاًّ منهم بعَقْله وخُلُقه ، لا بعُمْره ورِزْقه ، فلستَ ترى منهم إلا الرَّاضِيَ بعقله وآرائه ، المُعْجَبَ بما يَرْشَحُ من إنائه ، الحامَد لسَجِيتَّهِ ، الزَّارِيَ على النا كبين عن طريقته ، تَصْديقاً لقوله تعالى : « قلْ كُلٌّ يَعْمَلُ على شا كِلَتِهِ[1] »

وقَلَّ أن تجِدَ منهم القانعَ بدُنْياه ، الرَّاضِيَ عن وَقْتِهِ بمـــا قَسَمَ له [الله][2] وأعطاه .

فلا ترى إلا قانِطًا أو ساخِطًا أو حاسداً أو غابِطًا ، دَأْبُهُم الـكَدْحُ والنَّصَبُ والجِدُّوالَّطَلبُ ، تصديقا لقوله[صلى الله عليه وسلم][3] :«لو كان لابْنِ آدمَ وَادِيانِ من ذَهَبٍ [لتمنى أن يكون له ثالث][4] .

وصلى الله على سيدنا محمد رسوله المؤَيَّدِ برُوح قُدْسِهِ ، والمعْصُومِ من الخطأ فى القول ولَبْسِه ، والحاكِمِ بأن من جُمْلة الثَّلاثِ المْهلِـكاتِ عُجْبَ المرء بنَفْسِه ، وعلى آله وأصحابه الذين منهم من هو [مِنْ][5] نَوْعِه وجِنْسِه .

وبعد ، فقد وَقَفْتُ على كتاب نَصِيرِ الدِّين بن محمد الموْصِلِيِّ المعروف

---

(١) سورة الإسراء ٨٤ .

(٢) مابين قوسين زيادات يقتضيها السياق .

(٣) مابين قوسين زيادات يقتضيها السياق .

(٤) مابين قوسين زيادات يقتضيها السياق .

(٥) مابين قوسين زيادات يقتضيها السياق .

بابن أثير الجزيرة ، المَسَمّى « كتاب المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » فوجدت فيه المَحْمُود والمَقبُولَ ، والمَرْدُودَ والمَرْذُولَ .

أما المحمودُ منه فإنشاؤُهُ وصِناعَتُه ، فإنه لا بَأْسَ بذلك إلا فى الاقَلِّ النَّادِرِ . وأما المرْدودُ فيه فنظره وجَدَلُهُ واحْتجاجُهُ واعْتِراضُهُ ، فإنه لم يَأْتِ فى ذلك فى الأكثر الأَغْلَبِ بما يُلْتَفَتُ إليه مما يُعْتَمَدُ عليه .

فحدانى على تَتَبُّعِهِ ومُناقَضَتِهِ فى هذه المواضع النظرية أمور ، منها إِزْراؤُهُ على الفُضَلاء ، وغَضُّهُ منهم ، وَعَيْبُه لهم ،وَطَعْنُهُ عليهم ، فإن فى ذلك مايَدْعُو إلى الغَيْرَةِ عليهم ، والانتصارِ لهم .

ومنها إفراطُهُ فى الإِعْجاب بنَفْسِهِ ، والتَّبَجُّحُ برأيه ، والتَّقْرِيظُ لمعرفته وصناعته ، وهذا عَيْبٌ قبيحٌ يُحْبِطُ عَمَلَ الإنْسانِ والاجتهاد ، ويُوجِبُ المَقْتَ من الله والعِبادِ .

ومنها أنه قد أَوْمَأَ مِراراً فى كتابه إلى عِتابِ دَهْرِه ، إذْ لم يُعْطِه على قَدْرِ استحقاقِهِ ، فأَرَدْنا أن نُعَرِّفَه أن الأرزاق ليست على مقادير الاستحقاق ، وأن الرزقَ مَقْسومٌ لا يَجْلُبُهُ الفَضْلُ ، ولا يَرُدُّه النقْصُ .

ومنها أن جماعةً من أكابر المَوْصِلِ قد حَسُنَ ظَنُّهمْ فى هذا الكتاب جدًّا ، وتعَصَّبوا له ، حتى فَضلوه على أكثر الكُتُبِ المصَنَّفَةِ فى هذا الفَنِّ ، وأَوْصَلُوا منه نُسَخاً معدودةً إلى مدينةِ السَّلام[1] وأشاعوه ، وتَداوَله كثيرٌ من أَهْلِها .

---

(١) مدينة السلام : بغداد .

فاعترضْتُ عليه بهذا الكتاب ، وَتقَرَّبتُ به إلى الخِزانةِ الشَّريفة المُقدَّسةِ النَّبويَّةِ الإماميَّةِ المسْتَنْصِريَّة ، عَمرَ الله تعالى بعمارتها أنْدِيَةَ الفضْلِ ورِبَاعَهُ ، وأَطَالَ بطُول بقاء مالكها يَدَ العِلْمِ وبَاعَهُ ، وجعَلَ ملائكة السماء أنصاره وأَشْياعَهُ ، كما جعَلَ مُلوكَ الأَرْضِ أعْوانَهُ وأَتْباعه .

وكان أكثَرُ قَصْدِي فى ذلك أن يَعْلَمَ مُصَنِّفُ هذا الكتاب ورؤساء بَلْدتِهِ أنَّ مِنْ أصاغِرِ خَوَلِ[١] هَذِهِ الدَّولةِ الشَّرِيفةِ — فالعُجْبُ مُبِيرٌ ، ولا أُنبِيءُ عَنى فمِثلى كَثِيرٌ — مَنْ إذا ألغزَ أَدْرَى ، وإذا ضَرَبَ أَفْرَى[٢] وإذا رَشَقَ أَصْمَى[٣] ، وإذا نَكأ[٤] أَدْمَى ، وأَنَّ دار السلام ، وحَضْرَةَ الإمامِ ماخَلَتْ كَمَا تَزْعُمُ المَواصِلَةُ مِمَّن إذاسُوبِقَ خَلَّى ، وإذا بُوسِرِ[٥] فازَ بالقِدْحِ المُعَلَّى[٦] ، وإذا خَطَبَ خضَعَتْ لبراعته المَناصِلُ[٧] ، وإذا كتَبَ سَجَدتْ لبَراعتِهِ الذَّوابِلِ ، وإذا شاء عَلَّمَ الناسَ السِّحْرَ ، وما أُنْزِلَ على

---

(١) الخول : الخدم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، للواحد والجميع والمذكر والمؤنث

(٢) فرى وأفرى : شق .

(٣) أضمى الصيد : رماه فقتله مكانه .

(٤) نكأ القرحة على وزن منع : قشرها قبل أن تبرأ فنديت . ونكى الأعداء نكاية : جرحهم .

(٥) بسر : من معانيها قهر وابتدأ الشيء ، ويظهر أن المؤلف صاغ من الفعل باسر بمعنى غالب وسابق ، ثم بناه للمجهول .

(٦) القدح المعلى : أحد قداح الميسر عند العرب فى الجاهلية ، وهى عيدان تتخذ من النبع وهو شجر متين لين تصنع منه القسى والسهام ، والقداح الرابحة سبعة وغير الرابحة ثلاثة ، والمعلى أكثر الرابحة حظا لأن له سبعة أنصبة .

(٧) المناصل : جمع منصل وهو السيف .

المَلَكين ببابِلَ ، وأنّ فى الأغْفَالِ المغمورين مِنْ رَعاياهامن لوهَدَرَ[١] لقرّتْ له الشّقاشِق[٢] ، ولو نَطَقَ لتجلّتْ بشموسه المَهارِقُ[٣] ، ولوجَرّدَ حُسامَ قلمِهِ لقال الملك للسيف اغْرُبْ فأنتَ طالِقٌ ، فكيف بسَدَنةِ[٤] كعبتِها والحافِّين بشَرِيف سُدّتِها[٥] ، فحُولِ البلاغةِ الذين إذا رَكَضَ أحدهُمْ فى حَلْبَةِ البَيانِ أخجَلَ البُروقَ ، وسَخِرَ بالرِّياح ، وإذا ضَرَبَ الأَعْداءَ بصَارِمِ اللِّسانِ قدَّ السَّلُوقِيَّ المضَاعَفَ ، حَتّى تُوقِدَ نَارُ الحُباحِبِ فى الصِّفَاحِ[٦]

وهذا الكِتابُ وَقَعَ إلىّ فى غُرّةِ ذِى الحِجّةِ من سنة ثلاث وثلاثين وستّمائة ، فتصَفَّحْتُهُ ، أولاً أولا فى ضِمْنِ الأَشْغالِ الدِّيوانيّةِ التى أنا بصَددِها ، وعَلَّقْتُ فى هذا الكتابِ فى أثناء تَصفُّحِهِ على المواضِعِ المُسْتَدْرَكَةِ فيه إلى نِصْفِ الشهر المذكور ، فكان مجْمُوعُ مطالعتى له واعْتِراضِى عليه خَمْسَةَ عَشَرَ يوماً ، ولم

(١) هدر البعير هدرا وهديرا : صوت فى غير شقشقة
(٢) الشقاشق جمع شقشقة بالكسر : شىء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج .
(٣) المهارق . جمع مهرق وهى الصحيفة .
(٤) السدنة : جمع سادن وهو خادم الكعبة أو خادم بيت الصنم .
(٥) السدة : باب الدار .
(٦) من قول النابغة فى مدح الغساسنة ووصف سيوفهم :

تقد السلوقى المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

السلوقى : الدروع المنسوبة إلى سلوق على وزن صبور بلدة باليمن تنسب إليها الدروع والكلاب. الصفاح : حجارة عراض رقاق . الحباحب : ذباب يطير بالليل له شعاع كالسراج ، ومنه نار الحباحب . أو نار الحباحب ما اقتدح من شرر النار فى الهواء من تصادم الحجارة ، وقيل كان أبو حباحب رجلا لا يوقد ناره إلا بالحطب الشخت لئلا ترى ، وقيل إنها من الحبحبة وهى الشررة تسقط من الزناد .

أُعاوِدُ النَّظَر فيه دَفْعَةً ثانيةً ، ورُبَّما يَسْنَحُ لى عند المعاودة نُكَتٌ أُخرَى ، وإنْ وَقَعَ ذلك أَلْحَقْتُها .

وقد سَمَّيْتُ هذا الكتاب (الفَلَكَ الدائِرَ على المَثَل السائِرِ) لأنه شاع من كلامهم ، وكَثُرَ فى استعمالهم أن يقولوا لِما بادَ ودَثَرَ « قد دار عليه الفلك » كأنهم يريدون أنه قد طَحَنَهُ ومَحَا صُورَتَهُ . مِنْ ذلك قول أبى العتاهية :

إنْ كنت تَنْشُدُهمْ فإنهم ... هَمَدُوا ودار عليه الفلك[1]

وأنا أسأل الله المعونةَ والتوفيق ، وأسْتَمْنِحُه الهداية إلى سواء الطريق بمَنِّه وكرمه .

— ١ —

قال المَصِّنفُ : « نسأل الله أنَ يبْلُغَ بنا من الحَمْدِ ما هو أَهْلُه[2] » .

أقول إنه أول ما تَكَلَّمَ سأل أمرا يستحيل عقلا ، لأنه تعالَى لا نهاية لما هو أَهْلُهُ من المحامِدِ ، سواء جَعَلَ الحَمْدَ بمعنى المدح أو أَخصَّ .

أما الأولُ فلأن جلالَتَهُ تعالى وعظمَتَهُ وصِفَةَ كمالِهِ لا تَقِفُ عند غايةٍ ، ولا تَنْقَطِعُ عند حَدٍّ ، وأما الثانى فلأن نِعَمَهُ لا نهاية لها بتعريضه إيَّانا للثَّوابِ والنَّعِيمِ الذى لا نهايةَ له ، فإذاً هو سبحانه أهلٌ للحمد الذى لا نهايةَ له على

(١) ليس البيت بديوانه .

(٢) نص عبارة ابن الأثير فى أول المقدمة : « نسأل الله ربنا أن يبلغ بنا ما هو أهله » ١ / ٣٥ .

كلا التَّفْسِيرَيْنِ ، ويستحيل أن يبلغ بنا إلى ذلك ، لأن القُوَّةَ المتناهيةَ لا تقْوَى على أُمورٍ غيرِ مُتناهِيةٍ .

وليس لظَانٍّ أن يظن هذا القول يَجْرِى مَجْرَى قَوْلِ الناسِ الحمد لله كما هو أَهْلُهُ ، فإن ذلك كلام مُجْمَلٌ ، لا يتضمن سؤالا ، ولا يقتضى دعاءه تعالى أن يَجْعَلَنَا حامدِينَ حمدا لا بدايةَ له ولا نهايةَ .

— ٢ —

قال المصنف : « وأنْ يُعَلِّمنا من البيَان ما تقْصُرُ عَنْهُ مَزِيَّةُ النُّطْق وفَضْلُهُ » (١)

أقول : هذا أيضاً سؤالُ أمرٍ مستحيل ، لأن النطق هو كمال الصُّورةِ الإنْسانيَّةِ إنْ أُخِذَ على تفسير التَّعليم الطَّبِيعِيِّ ، والفَصْلُ المميِّزُ إنْ أُخِذَ على تفسير التعليم المنطِقِيِّ . وعلى كلا التفسيرين فيه يكون الإنسانُ إنسانا ، فيستحيل أَنْ يَفضُلَهُ البيانُ فى مَرْتَبةٍ وفَضِيلة ، لأن الفرعَ لا يَفْضُلُ الأَصْلَ الذى لولاه لما كان .

واعْلَمْ أنَّ هذين الاعْتراضَيْنِ قد يَعتَذِرُ المصَنِّفُ عنهما بأنه إنما قال ذلك على سبيل المبالغة ، ويسمى غُلُوًّا ، وهو مُسْتَهْجَنٌ فى الكتابة وأَحَدُ عيوبها القَبيحةِ ، وإنما يَسْلُكُهُ الشعراء ، وأما الكاتب ففى سَعَةٍ عنه ، ومَذْهَبُ الكتابة غَيْرُ مَذْهَبِ الشِّعْر .

---

(١) عبارة ابن الأثير : « وأن يعلمنا من البيان ما تقصر عنه مزية الفضل وأصله » ١/٣٥ .

— ٣ —

قال المصنف : وأن يُوَفِّقنا للصلاة على رسوله محمد الذى هو أَفْصَحُ من نَطَقَ بالضَّادِ ، ونَسَخَ بِهِديهِ شريعةِ كلَّ هادٍ[1] .

أقولُ فى هذا الكلام عَيبٌ ظاهرٌ ، وذلك أنه عَطَفَ الفِعْلَ وهو «نسخ» على الاسم وهو « أفصح » وهذا قبيح . ألا ترى أنه يَقبُحُ أَنْ يُقالَ : زيدٌ أَفْصَحُ القوم ، وضَرَبَ زيد . والوجه أن يقال الذى هو أفصح من نَطَقَ بالضاد ، والمنسوخ بهُداه شريعةُ كلِّ هاد .

— ٤ —

قال المصنف : « ولأَدَّعِي فيما أَلَّفْتهُ فضيلةَ الإحْسان ، ولا السلامةَ من سَبْقِ اللسان » . ثم قال بعد سطر واحد : « وإذا تَرَكْت الهوَى قلتُ إن هذا الكتاب بديع فى إعْرابِهِ ، وليس له صاحبٌ من الكتب ، فيقالُ إنه مُتَفَرِّدٌ من بين أصحابه »[2] .

أقول : وهل يَدَّعى أحدٌ فضيلةَ الإحسان بأَبْلَغَ مِنْ هذا الكلام ؟ وقد قال قبل هذا التواضع بثلاثة أسطر : « إن الله هدانى لأَبْتَدِعَ أشياء لم تكن مِنْ قبلى مُبْتَدَعَةً ، ومنحنى درجة الاجتهاد التى لا تكون أقوالها تابعةً

---

(١) عبارة ابن الأثير : « وأن يوفقنا للصلاة على نبينا ومولانا محمد رسوله الذى هو أفصح من نطق بالضاد ، ونسخ هدية شريعة كل هاد » ١/ ٣٥ .

(٢) عبارة ابن الأثير : « فيقال إنه منفرد بين أصحابه من اخوانه أو من أترابه » ١/ ٣٧ .

وإنما تكون مُتّبعةً »(١) . فمن يَزْعُمُ أن الله هداه فى هذا الفن إلى إبتداع أشياء لم يُسْبَقْ بها ، ورزَقَهُ فيها بلوغَ درجةِ الاجتهاد التى يتّبعها الناس ، ولا تكونُ تابعةً لأحد منهم ، كيف يقول لا أدَّعِى فيما ألفّتُهُ فضيلةً إلا وبلَغْتُها ؟ .

— ٥ —

قال المصنف : « موضوع الحساب هو الأَعْدادُ من جِهةِ ما يَعْرِضُ لها من الضَّرْبِ والقِسْمَةِ ونحوها ، ومَوْضُوع الطب بَدَنُ الإنسان من جِهة ما يُصِحُّ ويُمْرِضُ ، وموضوع النحو هو اللفظ من جهة الدلالة على المعنى من طريق الوضع اللُّغوِىِّ ، وموضوع علم البيان هو اللفظ والمعنى من جهة الحسن والقبح . ثم قال : صاحب هذا العلم هو والنحوى يشتركان فى النَّظَرِ فى دِلالةِ الألفاظ على المعنى من جهة الوَضْعِ اللُّغوى ، وتلك دلالةٌ عامَّةٌ ، وصاحبُ علم البيان يَنْظُرُ فى فَضِيلةِ تلك الدلالة ، وهى دلالةٌ خاصة »(٢) .

أقول أما موضوع علم النحو فغير ماذكر ، بل الذى ذكر موضوع علم اللغة ، لأن اللغوى هو الذى ينظر فى الألفاظ من حيث كانت دِلالةً بالوضع

---

(١) المقدمة ١/٣٧ .

(٢) قال ابن الأثير : « ...... وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية ، وهو والنحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة ، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو والإعراب . ألا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور ، ويعلم مواقع إعرابه ، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ١/٣٩ .

اللغوى على المعانى ، وأما موضوعُ علم النحو فهو الألفاظ من جهة تغييرات تلحق أَواخِرَها أو تَلْحقُها أَنفُسهَا على قول مَنْ جعل التصريف جزءا من النحو ، ولم يجعله عِلماً مفردا .

— ٦ —

قال المصنف : « وقد غَلِطَ مُفَسِّرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى ، وما فى الشعر من الكلمات اللغوية ، وتَبْيِينِ مواضعِ الإعراب فيه دُونَ ماتَضَمَّنَهُ مِنْ أسرار البلاغة والفصاحة » .

أقول : إن مُفَسِّرى الأشعار جعلوا قَصْدهم وكَدَّهم كَشْفَ مُرادِ الشاعر ليُعلَمَ ، فَفَسَّرُوا الأَلفاظَ اللغوية وما فى الشعر من إعرابٍ نَحْوِىٍّ يتعلقُ فهمُ المعنى به ، وتارة يشرحون المعنى فقط،إذا لم يَكُنْ فى البيت أَلفاظٌ لغوية ، ولا يَرْتَبِطُ المعنى بإعرابه ، كأنهم إنما وَضَعُوا الشُّروحَ المَصَنَّفَةَ لِتَفْسِير مُرادِ الشاعر فَقَطْ ، فكلُّ ما يذكرونه من زيادةٍ على ذلك مقصودةٌ بالعَرَضِ لا بالذَّاتِ ، وإذا كانت الحال هكذا لم يَجُزْأن يُقالَ إنهم غَلِطُوا لإخْلالهم بنَقْدِ الشعر والكلامِ على ما فيه من عِلْمِ الصناعة الشعرية ، والبَحْثِ عن فصاحته وبلاغته ؛ لأن ذلك فَنٌّ مُفْرَدٌ لم يَضَعُوا شُروحهم له ، وكذلك لم يتكلموا فى العَرُوضِ والقَوافى ودقائِقِ التصريف . فإن قلتَ قد تكلم كثيرٌ مِنْ شارحى الأشعار فى العَروض والقوافى ودَقَائِق فى التصريف أيضاً ، قلتُ : وقد تكلم كثيرٌ من شارحى الأشعار فى نَقْدِها ، و بحثوا عن فصاحتها و بلاغتها وما تحتهما من أسرارِ ذلك . ثم يقال له إن جُمْهُورَ مُفَسِّرى القرآن

اقتصروا على شرح المعانى واللغةِ والإعرابِ وأسبابِ النزول ، وما يتضمنه الكتابُ العزيزُ من الفقْهِ والأُصولِ ونحوها ، ولم يذكروا فى تفاسيرهم تَقْدَما فيهِ من البلاغة والفصاحة وأسرارها ، فإن ارتكبْتَ من ذلك قياسَكَ ، وغَلَّطْتَ المفسرين، كنتَ مُغَلِّطاً لأكابر الصحابة ، كعلىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وعبد الله بن عباس ، وهما اللذان أُخِذَ عِلْمُ التفسيرِ كلُّه عنهما ، ويكفيك ذلك قُبْحاً وشناعةً ، وإن لم تُغَلِّطْ المفسرين ، فقد انْتَقَضَ ما قلتَهُ من شرح الأشعار .

— ٧ —

قال المصنف : « وصِناعةُ تأليفِ الكلامِ من المنثورِ والمنظومِ تَفْتَقِرُ إلى آلاتٍ كثيرة . وقد قيل إن كلَّ ذى علم يَسُوغُ له أن يَنْسُبَ نفسهَ إليه ،فيقالَ فلانٌ الكاتبُ لِماَ يفْتَقِرُ إليه من الخَوْضِ فى كل فن »[(١)] .

أقولُ هذا الكلامُ من أُبهاتِ[(٢)] الكُتَّاب وتَزْوِيقاتِهم ، ولا يُعَوِّلُ عليه مُحَصِّلٌ ، وهذه الفنون التى يَذْكُرُها الكُتَّابُ ، ويزعمون أن الكتابة مُفْتَقِرَةٌ إليها ، إنْ أرادوا بها ضَرُرَتَها لها فهذا باطلٌ ، لأن سَحْبَانَ[(٣)]

---

(١) ملخص من كلام ابن الأثير ١ / ٤٠ .

(٢) الأبهات : جمع أبهة على وزن سكرة وهى العظمة والكبر .

(٣) سحبان وائل خطيب فصيح يضرب به المثل فى البيان والفصاحة ، خطب أمام معاوية فلم يشعر شاعر ولم يخطب خطيب ، لأنهم بهروا بفصاحته (البيان والتبيين ١ / ٦ ، ٤٨ ، ٣٤٨ .

وقُسًّا[1] وغيرَهما من خُطَباءِ العَرَبِ ما كانت تَعرِفُهما ، وكذلك مَنْ كان فى أَول الإسلامِ من الخطباء كمعاويَةَ[2] وزيادٍ[3] وغيرَهما .

وإن أرادوا أنها مُتَمِّمة ومُكَمِّلة فهذا حَقٌّ ، ولكن عدَمها لا يقتضى سَلْبَ اسم الكِتابةِ ، مع أن كل ما يحتاج إليه الكاتب يَحْتَاجُ إليه الشاعر وزيادة .

— ٨ —

قال المصنف : « ومن أقسام الفاعِل والمفعول ما لايُفْهَمُ إلا بعلامةٍ ، كتقديم المفعول على الفاعل ، فإنه إذا لم يكن ثَمَّ علامةٌ تُبَيِّنُ أحدهما عن الآخر ، وإلاَّ لأَشْكَلَ الأمرُ ، كقولك « ضرب زيد عمر » بالوقف عليهما ويكون زيد هو المضروب ، فإنك إذا لم تَنْصِبْ زيدا وترفع عمرا لم يُفْهَمْ ماذا

(١) قس بن ساعدة الإيادى خطيب جاهلى من قبيلة إياد ، كان يخطب الناس ويعظهم فى سوق عكاظ ، وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : رأيته بالسوق على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت (البيان والتبيين ١/٣٠٨) .

وقال الجاحظ : ولإياد مزية ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته ، وهذا إسناد تعجز عنه الأمانى ، وتنقطع دونه الآمال (البيان والتبيين ١/٥٢) .

(٢) معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية سنة ٤١ هـ وكان من دهاة العرب وفصحائهم .

(٣) زياد بن أبيه أحد ولاة معاوية وخطباء العرب المشهورين وساستهم . ألحقه معاوية بنسب أبى سفيان سنة ٤٤ فكان عضده القوى وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق ، ولم يزل والياً حتى توفى .

أردتَ . ومن هذا قوله تعالى : « إنما يَخْشَى اللهَ من عِبادِهِ العُلَماءُ »[1] .

أقول إن هذه الآية لامَدْخَلَ لها فى هذا الموضع ، لأنا لو وقَفْنا على الفاعل والمفعول منها لم يَحْصُلْ الالتباس ، لعِلْمنا أن الله لا يخشى أحداً لا من العلماء ولا مِنْ غيرهم ، فالآية تَدُلُّ بنفسها لا بعلاقة لفظية على أنه تعالى مفعولٌ ، وأن العلماء فاعل ، بخلاف ما إذا وقفنا على زيد ومحمد فى ضرب زيد محمدا ، فقد بان أن تمثيله بهذه الآية مُضاهِياً بضَرَبَ زيد محمد غير صحيح ، وأن أحَدَ المِثالَيْنِ لا يُشابِهُ الآخر .

— ٩ —

قال المصنف : « وكل خماسيٍّ يُحْذَفُ منه فى التصغير حَرْفٌ ، سواء كان فى الكلمة حرف زائد أو لم يكن ، مثال الزائد منطلق تصغيره مُطَيْلق ، فإن كان فى الكلمة حرفان زائدان اسْتُبْقِيَتِ الميمُ لأنها زِيدَتْ لمعنى وأُسْقِطَتَ النُّونُ لأنها زِيدَتْ لغير معنى ، ومثال الأصول جَحْمِرَش تصغيره جُحَيْمِر »[2] .

أقول :هذه القضيةُ على إطلاقها غيرُ صحيحة ، فإنهم قالوا فى تصغير حمراء ونحوها حُمَيْراء ، وهى خماسية ، ولم يسقطوا شيئا ، وكذلك لفظة أَجْمَال[3] صغروها فقالوا أُجَيْمال ، فهذه الخماسيات ما أسقطوا منها شيئا، ولا تصرفوا فيها بشىء سوى ياء التصغير فقط ، ومن الخماسيات ما تصرفوا فيه نَوْعَ تَصَرُّفٍ ،

---

(١) المثل السائر ١/٤٥ ، والآية من سورة فاطر ٢٨ .
(٢) المثل السائر ١/٤٩ .
(٣) أجمال : جمع جمل .

ولم يُسْقِطُوا منه شيئا ، نحو ميزان فإنهم قالوا مُوَيْزِين ، فأبدلوا ولم يسقطوا ، وبالجملة فقَوْلُه كلُّ خُماسِيٍّ لابُدَّ أن يَسْقُطَ بَعْضُ حُروفِهِ قَوْلٌ غيرُ صحيح .

— ١٠ —

قال المصنف : « وقد غَلِطَ أبُو نُواسٍ فيما لا يَغْلَطُ فيه مِثْلُهُ حيث قال :

كأن صُغْرَى وكُبْرَى من فواقعها ... حَصْباءُ دُرٍّ على أرض من الذهب[(١)]

فإن فُعْلَى أفعل لا يجوز حذف اللام منها إلا إذا أُضِيفَت ، وإنما يُحْذَفان من فُعْلَى التي لا أَفْعَلَ لها ، نحو حُبْلَى »[(٢)] .

أقول إنَّا لا ننكر أن كثيرا من أئمة العربية طَعَنَ فى هذا البيت ، لكنَّ كثيرا منهم انتصَرَ له ، وقالوا قد وَجَدْنا فُعْلَى أفعَل فى غَيْرِ مَوْضِع وارادةً بغير لام ولا مضافة ، مثل دُنْيا فى قول الراجز .

« فى سَعْيِ دُنْيا طالَ ما قَدْ مُدَّت »

وقول الآخر « لا تَبْخَلَنَّ بدنيا وهى مقبلة » . ومثلها أُخْرَى ، وقد جاء جُلَّى فى قوله :

وإن دعوت إلى جُلَّى ومكرمة . . . . . . [(٣)]

---

(١) ديوان أبى نواس ٢٤٣ وأكثر الرواة على أنها (فقاقعها) وهى النفاخات التى تعلو الماء أو الخمر .

(٢) المثل السائر ١/٥٢ .

(٣) تكملة البيت : يوما سراة كرام الناس فادعينا .

من قصيدة لبعض بنى قيس بن ثعلبة ، ويقال إنها لبشامة بن جزء (حزن) النهشلى ، مطلعها :

إنا محيوك يا سلمى فحيينا ... وإن سقيت كرام الناس فا سقينا

(شرح الحماسة للمرزوقى ١/١٠٠) .

وقالوا : طُوبَى لك .

وفى البيت وجه ،وهو أن يُجْعَلَ مِنْ فى قوله من فواقعها زائدة على مذهب أبى فى الحسن،زيادة مِنْ فى الواجب ،فإنه يذهب إلىذلك[1] .

ويحتج بقوله تعالى : « فيها مِنْ برد » أى فيها برد ، وعلى هذا يكون فُعْلَى من البيت مضافة ، وقد وَقَعَ الاتفاقُ على جوازه .

---

(١) أبو الحسن الأخفش ، يرى هو والـكسائى وهشام زيادة (من) بلا شرط مستدلين بقوله تعالى : «ويغفر لـكم من ذنوبكم » لأن (من) فى حيز الإيجاب وهى زائدة داخلة على المعرفة ، قالوا : ولو لم نقل بزيادتها فى الآية لزم التناقض بينها وبين قوله تعالى : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » ، وأجيب بأن قوله تعالى « يغفر لـكم من ذنوبكم » خطاب لقوم نوح، وقوله تعالى : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » خطاب لأمة محمد عليه الصلاة والسلام .على أنه لو كان الخطاب لأمة واحدة لم يلزم التناقض بين الآيتين ، لأن غفران بعض الذنوب لا يناقض غفران كلها ، بل عدم غفران بعضها يناقض غفران كلها .

والصحيح أن (من) فى الآية تبعيضية ، أى يغفر لـكم شيئا من ذنوبكم كما قال سيبويه. والجمهور يشترط لزيادة (من) ثلاثة شروط :

أحدها أن تكون مسبوقة بنفى نحو « ما جاءنا من بشير ولا نذير » أو نهى بلا نحو « لا يلتفت منـكم من أحد » أو استفهام بهل خاصة .

مثل قوله تعالى : « هل من خالق غير الله يرزقـكم » وبعضهم ألحق الهمزة بهل فى هذا الباب .

الثانى أن يكون مجرورها نـكرة كما تقدم .

الثالث أن يكون مجرورها المنـكر فاعلا أو مبتدأ أو اسماً لـكان أو مفعولا به . .

وبعض الـكوفيين أجازوا زيادتها بشرط تنـكير مجرورها فقط .

ونقل السعد عن القوم أن (من) لا تزاد فى الإثبات إلا فى تمييزكم الخبرية إذا فصل منها بفعل متعد كقوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون .

— ١١ —

قال المصنف : « وقد غلط أبو تمام فى قوله :

بالقائم الثَّامِنِ المُسْتخْلَفِ اطَّـأَدَتْ قواعدُ المُلْكِ ممتدًّا لها الطِّوَلُ[١]

والصواب اتَّطَدتْ بالتاء ، لأن التاء تبدل من الواو فى موضعين :

أحدهما مِقيسٌ عليه كهذا الموضع ، لأنك إذا بَنَيْتَ افتعل من الوَعْدِ قلت اتَّعَدَ ، وهنا يجب أن يكون اتَّطَدَ لأنه من وَطَدَ يَطِدُ ، مثل وَعَدَ يَعِدُ »

أقول : قرأت بخط أبى زكريا رحمه الله : قال : العلماء : اشتقاق اطَّـأَدَتْ من الطَّوْد ، وهو الجبل بُنِيَ على افْتَعَلَتْ من ذلك ، فقيل اطَّادَتْ لينا غير مهموز لأن تاء الافتعال إذا كان بعدها تاء قُلِبَتْ ألفا ، ثم هَمَزَها فى الشعر للضَّرورة .

— ١٢ —

قال المصنف : « وقد لَحَنَ أبو نُواسٍ فى أمرٍ ظاهرٍ ، فقال لمحمد ابن الأمين :

ياخَيْرَ مَنْ كان ومَنْ يكون إلا النَّبِيُّ الطـــاهر المَيْمُونُ[٢]

فرَفَعَ بعْدَ الاستثناء من المُوجَبِ »

أقول إن أبا نواس يستعمل فى شعره مذهب الكوفيين كثيراً ، وهذا من جملة مذاهبهم ، وقد قال :

---

(١) تصويب البيت من المثل السائر ١/٥٣ .

الديوان ١٦٧ .

(٢) ديوان أبى نواس ٣٣٧ ومنه أكملنا الشطر الثانى وصححناه .

لمن طللٌ عـــــافى المحل دفين (عفا عَهْدُه إلا خوالدُ جُونُ[١])

فابتدأ بقوله خوالد جون ، وحَذَفَ الخبرَ وتقديره فإن الأمينَ لا يَفْضُله . على أن من الناس مَنْ رواه « إلا النبيَّ الطاهرَ الميمونُ » فنصب اللفظتين الأُولَيَيْن على الاستثناء من المُوجَب ونَعْتِه ، ورَفَعَ الميمونُ على حذف المبتدأ ، تقديره هو الميمونُ ، ويجوز فى الوصف إذا كُرِّر أن يَتْبَعَ وأن يُسْتأْنَفَ .

— ١٣ —

قال المصنف : « وقد خفى على أبى الطيب المتنبى أمرٌ ظاهر ، فقال يَصِفُ ناقةً :

وتكرَّمَتْ رُكَبَاتُهـــا عن مَبْرَكٍ تقعانِ فيه وليس مسكا أَذْفرا

فجمع فى حال التثنية فقال رُكَبَاتُهـــا عن مَبْرك تقعان فيه وليس للناقة إلا ركبتان »[٢] .

أقول إن هذا من اتِّساع العَرَبِ ومذاهبها غَيْرُ بعيد ، كقولهم : امرأة ذات أَوْراك ، وهما وَرِكان ، وقال الشاعر :

ولا رَهِلٌ لَبَّاته وبَآدِلُه[٣] وقد جاء مثله فى حكم داود وسليمان فى الغنم التى نَفَشَتْ فى الحَرْثِ وكنا لحكمهم شاهِدِين .

---

(١) من أبيات له فى مدح الأمين ، منها :

ولى عهـد ما له قـرين ولا له شبـه ولا خـدين

أستغفر الله بـلى هـارون يا خير من كان ومن يكون

الا النبى الطاهر الميمون زلت له الدنيا وعز الدين

(٢) التصويب من ديوان المتنبي ١/٣٦٨ ومن المثل السائر ١/٥٥ .

(٣) هذا هوا الشطر الثانى من البيت :

فتى قد قد السيف لا متضائل ولا رهل لباته وأباجله

وهو من قصيدة لزينب بنت الطثرية فى رثاء أخيها :

(شرح الحماسة للمرزوقى ٣/١٠٤٦)

رهل : مسترخ . اللبات : المراد الصدر . الأباجل : جمع أبجل وهو عرق فى باطن الذراع وعرق غليظ فى الرجل .

وعلى رواية (بآدله) فإنها جمع بأدلة وهى لحمة بين الإبط والثندوة .

— ١٤ —

قال المصنف : « فأما الإدغام فلا حاجة إليه لكاتبٍ ، لكنّ الشاعرَ ربّما احتاجَ إليه ، لأنه قد يُضْطَرُّ فى بعض الأَحْوالِ إلى إدغام حَرْفٍ أوفَكِّ أو إدغام من أَجْلِ إقامة الميزان الشعرى » .

أقول إن المعرفة بأبواب الإدغام وَمباحِثِه كما يَحْتاجُ إليه الشاعرُ لإقامة الميزان الشعرى قد يَحْتاجُ إليه الكاتب لِلْقَرِينة ، وقد يُصيبُ فيه وقد يُخطِىء .

مثال الخطأ أن تقول « وأخلص بعدما نافق، وأصحب بعدما شاقق » فقد دعته القرينة إلى أن أخطأ فى فَكِّ الإدغام فى موضع لا يجوز فكه فيه .

ومثال الصواب أن يقال أَوْلاهُمْ بالإحسانِ مَنْ لم يَغُشَّ ولم يُمارِقْ، ولم يَشُقَّ عصا ولم يُشاقِقْ .

— ١٥ —

قال المصنف : « والأسماء المترادفة هى التى يتحد فيها المسَمَّى وتختلف أسماؤه ، كالخمر والرَّاح والمُدامِ ، فإن المسمَّى بها شىء واحد ، والأسماء كثيرة[١] » .

أقول: هذا الموضع من أمثال الغلطَات التى نَبَّه عليها المَنْطِقِيُّون ، فقالوا قد يُظَنُّ فى كثير من الأسماء أنها مترادفة ، وهى فى الحقيقة متباينة ، كالسيف والصَّارِم والمُهَنَّدِ موضوع للمنسوب إلى الهند ، فكل واحدٍ من هذه المعانى

(١) المثل السائر ١/٥٦ .

مبايِنٌ للآخر ، فالأسماء الموضوعةُ لها متباينةٌ فى الحقيقة ، وإن ظُنَّ فى الظاهر أنها مترادفةٌ .

وكذ ما مَثّلَ به هذا المصنِّفُ ، فإن الخمر اسم موضوع لهذا الشَّراب المخصوص ، وإن كان مُشْتَقًّا غير مُرْتَجَلٍ ، والراحُ اسم لما تَرْتاح النفس إليه ، والمُدَامُ اسم لمايُدام استعمالُهُ ، كأنه أُدِيمَ يُدَامُ فالمعانى متبايَنةٌ لا محَالَةَ ،وإن تُوُهِّم فى الظاهر أنها مترادفة .

— ١٦ —

قال المصنف : « والأسماء المشتركة هى التى تَتَّحد ، وتختلف مُسَمَّيَاتُها كالعَيْن »(١) .

أقول ينبغى أن تزاد فى ذلك زيادةٌ فيقالَ هى التى وُضِعَتْ لها وَضْعاً أوَّلاً ، ويكون ذلك احترازا عما يَدُلُّ على شىء بالحقيقةِ وعلى غيره بالمجاز فإنه مُتَّحِدٌ تختلف مُسَمَّياتُهُ ، ولا يُسَمَّى مُشْتَرَكا .

— ١٧ —

قال المصنف : من الناس من منع وُقُوعَ اللفظ المشْتَرَكِ بمعنى أنه لا يكون حقيقةً فى مُسَمَّيَيْن ، بل يكون مجازا فى أحَدِهما ، واحتجَّ بأن ذلك مُخِلٌّ بفائدة وَضْعِ اللغة ، لأن مَقْصودَ الواضع الإِفْهامُ والإِبَانَةُ ، والاشتراكُ يُخِلُّ بذلك .

---

(١) قال ابن الأثير : كذلك يحتاج (الكاتب) إلى معرفة الأسماء المشتركة ، ليستعين بها على استعمال التجنيس فى كلامه ، وهى اتحاد الاسم واختلاف المسميات ، كالعين فإنها تطلق على العين الناظرة وعلى ينبوع الماء وعلى المطر وغيره ... (المثل السائر ١/٥٦) .

ثم أجاب فقال لا نُسلِّم أن مقْصودَ الواضع هو البَيانُ فقط ، بل البيان والتجْنيس ، فالبيان يحصل بالألفاظ المتباينة التي هي كافية في الإفهام ، وأما التجنيسُ فإنه مُهِمٌّ في هذه اللغة ، لأنهُ عُمْدةُ الفَصاحة والبلاغة ، ولا يقوم به إلا الأسماء المشتركة ، وهي وإن أَخَلَّتْ بفائدة البيان إلا أنه إخلالٌ يمكن استدراكه بالقَرينةِ الدَّالَّةِ على المراد من اللفظ المشْتَرَك ، والإخلالُ بوَضْعِ الألفاظِ المشتركةِ تَسْقُطُ به الفصاحة والبلاغة ورَوْنَقُها ، ولا اسْتِدْراكَ له بحالٍ ، فكان وَضْعُ الألفاظِ المشتركةِ مُتَعَيِّنا(١) .

أقول: لا نُسلِّمُ أنه بتقدير عَدَمِ الألفاظ المشتركة يذهب التجنيس من الكلام ، ولا يزول رَوْنَقُهُ وبهاؤه كما زعم هذا الرجل ، وبَيانُهُ أنَّ التجنيس يَحْصُلُ بتَشابُهِ لفظتين في الحروف الأَصْلِيَّة ، وإن كانت في إحداهما زوائدُ ليست في الأخرى ، مثاله قولُ أبي تمام :

متى أنت عن ذُهْلِيةِ الحيِّ ذاهل(٢) .

وقوله :

تُطِلُّ الطُّلُولُ الدَّمْعَ من كلِّ مَوْقِفِ

وقوله :

منازل لم يُخْفِ الربيع ربوعها

(١) ملخص ما قاله ابن الأثير ١/٥٧ .

(٢) تكملته : وقلبك منها مدة الدهر آهل

وهو مطلع قصيدته في مدح محمد بن عبد الملك الزيات (الديوان ٣/ ١١٢) .

فذُهْلِيَّةٌ منسوبةٌ إلى ذُهْلٍ اسم رجل ، وذاهل فاعل ذَهَلَ عن الأَمْرِ يَذْهَلُ . وُيطل الطُّلولُ كذلك ، لأن يُطِلُّ مضارع أَطَلَّ دَمَه أى أَهْدَرَه ، والطلول جمع طَلَل ، وهو ما شَخَص من آثار الديار . وكذلك الربيع وهو العُشْب والرُّبُوع جمع رَبْعٍ وهو المنزل ، فهذه كلها تتضمن التجنيس ، وليست من المشتركات ، لأنها ليست لفظتين متماثلتين دالتين على مُسَمَّيين مختلفين ، كلفظة العَيْن .

وأكثر التجنيس فى الشعر والرسائل مثل هذا ، ولا يُسْتَعْمَلُ فيه التجنيس بالمُشْتَرَك إلا فى النادر أيضاً ، فلو كان كل تجنيس فى الذِّهْنِ بالمشترك فَقَطْ لم يكن ذلك من المقصودات الأصْلِيَّة التى تَقْتَضِى وضع المشـترك مع ما فيه من تَرَدُّدِ فَهْمِ السَّامعِ وعَدَمِ معرفته ، فإن مَحْذُورَ ذلك أعظمُ من تَزْوِيق اللَّفْظِ بالمشتركات ، خصوصاً ويمكن استدراك غَيْرِ اللفظ بغَيْرِ التجنيس، كالمطابقة والمقابلة وغيرها من أنواع البديع .

والعَجَبُ من قَوْلِ هذا الرجل إن عدم التجنيس يُذْهِبُ حُسْنَ الـكلامِ ، وقوله إن واضع اللغة نظر إلى ما تحتاج إليه الفصاحة والبلاغة ، فوَجَدَ من مُهِمَّات ذلك التَّجنيسَ الذى لا يَقُومُ إلا بالأسماء المشتركة ، وهو يرى القرآن عارياً عن التجنيس ، وهو أَحْسَنُ الـكلام وأَفْصَحُهُ وأَبْلَغُهُ ، كما قال تعالى : «الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ [1]» .

وليت شِعْرِى كيف تحتاجُ البلاغةُ إلى التجنيس ؟ أَتُراه يَعْلَمُ ما البلاغة ؟

---

(١) الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله .
سورة الزمر ٢٣ .

ألم يَسْمَعْ كلام عبد الحميد بن يَحْيَى[1] وابنِ المقفَّع[2] ومَنْ جاء بَعْدَهُما من الكتاب، ومَنْ كان قبلهما من فصحاء العرب الذين كلامهم مَحْضُ البلاغة ؟ فهل تَرَى لأحدمنهم تجنيسا فى كلامه، اللهم إلا أن يقع ذلك اتِّفاقا غَيْرَ مقصود قَصْده ؟

— ١٨ —

قال المصنِّفُ : وقد اسْتُعْمِلَ المشترك فى الكلام العزيز قال سبحانه : « ويوم تَقُوم السَّاعَةُ يقسم المجرمون ما لَبِثُوا غَيْرَ سَاعةٍ »[3] فالساعة الأولى هى القيامة، والساعة الثانية هى هذا المقدار المخصوص من الزمان »[4] .

أقول لذاهب أن يذهب إلى أن الساعة فى الموضعين بمعنًى واحدٍ ، وهو هذا المقدار المعَيَّنُ من الزَّمان ، وسُمِّيَتِ القيامةُ ساعةً لما يجرى فيها من الأهوال والأمور الشَّاقة ، وهذه عادتهم إذا اسْتَعْظَمُوا أمراً يَقَعُ فى زمان مخصوص اكتفوا بذكر ذلك الزمان فى الدلالة عليه ، كقولهم يوم الجمل[5] ويوم ذى قار[6] وليله الهَرِيرِ[7] ، وقوله سبحانه : « هذا يومكم الذى كنتم

(١) عبد الحميد بن يحيي مولى فارسى لبنى عامر نشأ بالشام فى أخريات الدولة الأموية ، وكتب لمروان بن محمد سنة ١٢٧ هـ ويعتبر من الزعماء الذين كان لهم أثر عظيم فى النثر الفنى . توفى سنة ١٣٢هـ .

(٢) ابن المقفع هو عبد الله بن المقفع أحد فحول البلاغة فى العصر العباسى الأول ولد حوالى ١٠٦ وقتل سنة ١٤٢ وله مؤلفات شتى منها الأدب الكبير والأدب الصغير وترجمة كليلة ودمنة .

(٣) سورة الروم ٥٥ .

(٤) لم نجد هذا النص فى كلام ابن الأثير عن المشترك ولكننا وجدناه قد استدل بالآية فى التجنيس الحقيقى (للمثل السائر ١ /٣٤٣)

(٥) موقعة كانت بين على بن أبى طالب وطلحة والزبير والسيدة عائشة سنة ٣٦ هـ بالقرب من البصرة ، وانتصر فيها على بن أبى طالب ، وانحصر بعدها النزاع بين حزبين اثنين هما حزب معاوية بن أبى سفيان . وحزب على بن أبى طالب .

(٦) يوم ذى قار أشهر الوقائع بين بنى بكر بن وائل وبنى شيبان وبنى عجل وبين كسرى وحلفائه من العرب ، كان النصر فيه للعرب ، وكان ذلك فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد البعثة . وقد أشاد الشعراء بانتصار العرب أيما إشادة (مروج الذهب ١/١٣٤ والتنبيه والإشراف ٢٠٨ والأغانى ٢/٢٩ و٢٠/١٣٢ وتاريخ الطبرى ٢/١٤٦) .

(٧) ليلة الهرير : ليلة بصفين كانت بين على ومعاوية ، حدث معاوية أنه هم فيها بالفرار ، لولا أبيات لعمرو بن الإطنابة ثبتته وقوته على البقاء (العمدة ١ / ١٠) ومن أيام العرب فى الجاهلية يوم الهرير بين بكر بن وائل وتميم (القاموس المحيط مادة هر) .

تُوعدون(١) » ولم يقل أحدٌ إن لفظة يوم مشتركة ، وأنها فى هذا الموضع بمعنى القيامة وفى غيره بمعنى هذا الزمان المخصوص ، وعلى هذا يكون معنى قوله تقوم الساعة أن تحضر السَّاعةُ التى وُعِدُوا بالمجازاة فيها ، فلا تكونُ اللفظةُ مشتركةً كما زَعَمهُ هذا المصنِّفُ ، أو يكون مجازاً فى القيامة حقيقة فى الوقت المخصوص ، فلا يتم أيضا ما يريده من الاشتراك .

ويؤكد بُطْلاَنَ الاشتراك أن العرب لم تكن تَعرِفُ القيامة فيضعوا لها لَفْظَةَ السَّاعة ، كما وضعوا لفظة الفَرَسِ لهذا الحيوان المخصوص ، اللهم إلا أن يُقَال إنها حقيقَةٌ شرعية ، فيكون ذلك تسليما لما يقوله المعترض ، لأن الحقيقة الشرعية مجازٌ حقيقى فى أَصْلِ الوضع .

— ١٩ —

قال المصنف : وقد تعسَّفَ قومٌ وأجابوا عن شبهة الاشتراك فى اللغة فقالوا: الأسماء المشتركة إنما وضعتها قبائلُ مختلفةٌ لا واضع واحد . قال : وهذا باطل ، لأنه قد ورد من الجموع ما يَقَعُ على مسمَّيَيْن مختلفين مثل كعاب جمع كَعْب وجمع الكَعْبَة لهذه البَنِيَّةِ المخصوصة ، وقد ورد لفظٌ لمفرد وجَمْعٌ لغيره على وزنه، مثل الرَّاح اسم الخمر ، وجمع رَاحةٍ وهى راحة الكَفّ ، ومثل عِقاب للعُقوبة وجَمْعُ عَقبةٍ ، ونظائر هذا كثيرة(٢) .

أقول لصاحبِ هذا الجوابِ أَنْ يَقُولَ إن هذه الجموعَ أيضا وضعتها قبائلُ مختلفون ، فوضع بنو تميم مِثْلَ الكِعاب جمع كَعْبة ، وكذلك ما جاء مثل الراح المفرد بمُسَمًّى والراح الجمع لمسَمًّى آخر يجوزأن يكون ورد عن قبيلتين كل واحدة منهما وضعت اللفظة بمُسًمًّى غير ما وضعته القبيلة الأخرى له ،

(١) سورة الأنبياء ١٠٣ « لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » .

(٢) المثل السائر ١/ ٥٩

فالقَدْرُ الأولُ عن وقوع الاشتراك فى اللغة مُطَّرِدٌ فيما ظَنَّ هذا المصنف أنه لا يمكن أطِّرادُهُ فيه حَذْوَ النَّعْل بالنَّعْلِ .

— ٢٠ —

قال المصنف « وَحَدُّ المَثَلِ هو القولُ الوجيزُ المرسَلُ ليُعْمَلَ عليه[1] » .

هذا باطل بقوله تعالى : « أقيموا الصلاة[2] » فإنه قول وَجِيزٌ أُرْسِلَ لِيُعْمَلَ عليه، وليس بمثل ، وأيضاً فإنْ أرادَ بقوله ليُعْمَلَ عليه أى ليعمل بمُوجِبِ ما فيه من الاقْتِضاء والطَّلَبِ ، فهذا باطل بأكثر الأمْثالِ ، نحو قولهم : هو أفْعَلُ من كذا .

وإن أراد بقوله ليعمل عليه أن يُسْتَعْمَلَ فى الموضع اللاَّئق ، فكُلُّ بَيْت شِعْرٍ من أشعار الجاهلية والمحْدَثِين قولٌ وجيز مُرْسَلٌ يستعمل فى موضع يليق به ، وذلك يقتضى أن يكون الشعر كله أمثالا ، ولم يقل بذلك قائل .

والصحيح أن يُقَالَ المثلُ يُطْلَقُ على نَوْعَيْنِ : أَحَدُهما ما قُصِدَ به المبالغةَ بلفظه أَفْعَل ، كقولهم : أشْغَلُ من ذَاتِ النِّحْيَيْنِ[3] ، والثانى كُلُّ كلامٍ وجيزٍ منثور أو مَنْظُوم قيل فى واقعة مخصوصه تَضَمَّنَ مَعْنىً وحكمة ، وقد تَهيأ بتَضمُّنه ذلك لأن يُسْتَشْهَدَ به فى نظائرِ تلك الواقعة .

— ٢١ —

قال المصنف : وقد كتبت كتابا لمن اقترحه علىّ أذكر فيه فتح مصر معارضاً لكتاب كتبه عبد الرحيم بن على البَيْسانىّ فى المعنى فقلت فيه . « ومن

(١) المثل السائر ١/٦٢ .

(٢) تكرر هذا الأمر فى سورة البقرة ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ وفى سور أخرى .

(٣) كانت امرأة من بنى تيم الله بن ثعلبه تبيع السمن فى الجاهلية ، فأتاها خوات بن جبير الأنصارى يبتاع منها سمنا ، فلم ير أحدا عندها ، وساومها ، فحلب نحيا — وعاء لبن — فنظر إليه ، ثم قال : أمسكيه حتى أنظر إلى غيره ، فلما حلب آخر قال أريد غير هذا فأمسكيه، فلما شغل يديها ساورها فلم تقدر على دفعه ، حتى قضى ما أراد وهرب (مجمع الأمثال للميدانى ١/٢٠٥) :

جُمْلَتِها ما فَعَلَه الخادمُ فى الدَّولة المصرية ، وقد قام بها مِنْبَرٌ وسرير ، وقالَتْ مِنَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ ، فَردَّ الدعوةَ العَبّاسيَّة إلى مَعَادِها ، وأذْكَرَ المنَابِرَ ما نسِيَتْهُ بها من زَهْو أعْوادِها ، ولم يُعِدْها إلى وطنهـــا حتى تَغَرَّبَتْ لها الأرْوَاحُ عن أوطانها ، وسهِرَتْ لها أجْفانُ السُّيوف سَهَرَ العُيون عن أجْفانِها » .

قال فانظر إلىَّ كيف أتيت فيه بكلام الُحبابِ بن المُنْذِرِ الأنصارى(١) حيث قال يوم السقيفة للمهاجرين : منا أمير ومنكم أمير . والقصة مشهورة ، فقال أبو بكر : بل نحن الأُمَراء وأنتم الوُرزاء قال : وهـــذا نُكْتَةَ هذا الفتح التى عليها المُعَوّل ، ومركزه الذى عليه يَدُور .

وعجيبٌ من عبد الرحيم بن على البيسانى مع تقدمه فى فن الكتابة كيف فاته أن يأتى به فى كتابه(٢) .

أقول إن القاضى الجليل الفاضل النبيل أبا على عبد الرحيم كان موفقا حيث لم يَذْكُرْ ماذكره هـــذا الرجل وأُعْجِبَ به ، وذلك أن الحباب بن المنذر والأنصار راموا أن يكون منهم أميرٌ ومن المهاجرين أميرٌ ، وملوك الدولة

---

(١) هو الحباب بن المنذر بن الجموح بن زيد السلمى . يكنى أبا عمرو ، شهد بدرا وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

كان يقال له ذو الرأى ، وهو الذى أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل على ماء بدر للقاء القوم .

وشهد أحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ، وهو القائل يوم السقيفة : أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، منا أمير ومنكم أمير .

مات فى خلافة عمر رضى الله عنه . الاستيعاب ٣١٦/١ .

جذيلها المحكك : الجذل عود ينصب للجربى لتحتك به ، ومنه : أنا جذيلها المحكك وهو تصغير تعظيم . يريد أنه حكيم محنك يشتفى الناس برأيه كما تشتفى الإبل الجربى باحتكاكها بهذا العود . عذيقها المرجب : العذيق النخلة يكثر حملها فيجعل تحتها دعامة تسمى الرجبة ، أو المراد أنه نافع كريم كهذه النخلة التى يكثر حملها .

(٢) ملخص من المثل السائر ٦٦/١

الطَّالبية[1] بمصر لم يقتصروا على أن يكون منهم خليفة ومن الأئمة العباسية خليفة ، بل كانوا يَدَّعُونَ أن الخلافة ليست إلا لهم خاصَّةً ، دُونَ غيرهم ، وما زالت الحربُ بين الفريقين قائمةً ، والمنهج سائمةً على ذلك ؛ ولو لم يكُنْ إلا ماجَرَى فى الأيام القائمة لكفى . فكيف كان القاضى الفاضل على جلالته ممن يَذْهَبُ عليه هذا ،ويُشَبِّهُ واقعتهم بواقعة الأنصار ،ويُورِدُ كلامَ الحباب ابن المنذر، ويُشَوِّهُ وَجْهَ رسالته الحسناء به؟ وإنما تُرَصَّعُ الرسالةُ بالوقائعِ والأيامِ المشهورةِ إذا كانت مطابقةً للحال الحاضرة ، لا إذا كانت مخالفةً لها ، فأما الكلام المنثور الذى أنشأه فى هذا فليس من جَيِّدِ قوله ، وفيه مالا يَجُوز ، وإن جاز فهو على ضَعْفٍ شديدٍ وتَكَلُّفٍ عظيم . فمن ذلك قوله: « وأذْكَرَ المنابر ما نَسِيَتْهُ بها من زَهْوِ أعْوادها » فإن الباء فى بها لا محالة متعلقة بزهو، وإلا لم يَبْقَ للكلام معنى ، وحينئذ التقدير « وأذكر المنابر ما نسيته من زَهْوِ أعوادها بها » وحرف الجر إذا تعلق بالمصدر صار من صِلَتِهِ ، فلا يجوز تقديمه عليه إلا على تأويل بعيد،وهو أن يُقَدِّر مثله شيء قد دَلَّ عليه المصدر المتأخر ، وهو فى هذا الموضع خاصة متعذر التقدير أو مُسْتَهجَنُ التقدير .

ومن ذلك قوله « وسَهِرَتْ لها أجفانُ السيوف سَهَرَ العيون عن أجفانها » فقوله سهر العيون عن أجفانها كلام بارد ، لأن العيون لاتَسْهَرُ عن الأجْفان ، وما سَمِعْنا من نثر ولا نَظْم سَهِرَتْ عَيْنِى عن جَفْنِى . ولا شُبْهَةَ أنه أراد وسَهِرَتْ لها أجفانُ السيوف سَهَرَ أجْفَانِ العُيونِ ، فلم يَسْتَوْسِقْ[2] له ذلك ، فأتى بلفظٍ إمَّا ألا يكون صحيحا أصْلاً ، أو يحتاج فى تصحيحه إلى تَعَبٍ شديد ، ليس تحت اللفظ من المعنى الغريب ما يُساوِى ذلك التَّعَبَ .

---

(١) الطالبية هى الفاطمية .

(٢) لم يستوسق : لم يجتمع .

— ٢٢ —

قال المصنف : وإنما قصدنا أن يكون الكتاب [الذى يكتب] فى هذا المعنى مشتملا على الترغيب والترهيب والمسامحة فى موضع والمحاققة فى موضع[١] .

أقول قد ظهرت فائدة علم الإدغام فى باب الكتابة كما قدمناه ، فإن الكاتب أراد أن يوازن لفظة المسامحة بلفظة المحاققة ، وسها عن أن المحاققة بفك الإدغام غير جائزة .

— ٢٣ —

قال المصنف : اللفظ قد يُتَأَوَّلُ فى المعنى وضدِّه ، وقد يُتأَوَّلُ على المعنى وغَيْرِهِ الذى ليس بِضدٍّ . والأولُ أغْرَبُ وأظْرَفُ . فما جاء منه قوله عليه السلام : « صلاةٌ فى مسجدى هذا خَيْرٌ من ألْفِ صلاةٍ فى غيره من المساجد إلا المسجدَ الحرام »

قال فهذا الحديث يستخرج منه معنيان ضِدَّان : أحدهما أن المسجد الحرام أفْضَلُ من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفْضَلُ من المسجد الحرام ، إلا أن صلاةً واحدة فيه لا تَفْضُلُ ألْفَ صلاةٍ فى المسجد الحرام ، بل تَفْضُل مادُونهَا بخِلاف المساجد الباقية ، فإن ألْفَ صلاة فيها تَقْصُرُ عن صلاة واحدة فيه »[٢] .

أقول هذا الحديث لاَ يَدُلُّ على أن المسجد الحرامَ أفضلُ من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا على أن مسجد رسول الله أفضلَ من المسجد الحرام ، وليس الأمر كما تَوَهَّمَهُ هذا الرجل ، وإنمَا يَدُلُّ على أن حكم المسجد الحرام مُخَالِفٌ لهذا الحكم الذى قد حكم به صلى الله عليه وسلم فى حَقِّ مسجده وباقى المساجد ، لأن تقدير الكلام كلُّ مسجدٍ فى الأرض إذا صُلِّى فيهُ ألف صلاة فهى فى الفضيلة دونَ الصلاةِ الواحدة فى مسجدى ، وأستثنى من هذا الحكم

(١) المثل السائر ١/٧١

(٢) ملخص من المثل السائر ١/٧٦

المسجد الحرام فَدَلَّ فى المطابقة على أن المسجد الحرام يُخَالِفُ باقى المساجدِ فى هذا الحكم .

هذا هوا الذى يدل عليه هذا اللفظ فقط ، ولا يَدُلُّ على شىء آخر ، لا أَفْضَلِيَّة مسجده على المسجد الحرام ، ولا أَفْضَلِيَّة المسجد الحرام على مسجده .

لكن هذه المخالفة تحتمل أموراً ، منها أن يكون مسجده عليه السلام لا تَفْضُلُ الصلاةُ الواحدة فيه أَلْفَ صلاةٍ فى المسجد الحرام ، بل تَفْضُلُ تِسَعْمائةِ صلاةٍ أو ثمانمائة صلاة مثلا .

ومنها أن يكون مسجده صلى الله عليه وسلم تَفْضُلُ الصلاةُ الواحدةُ فيه صلاةً واحدةً فى المسجد الحرام ، لا فَرْقَ بينهما .

ومنها أن تكونَ الصَّلاةُ الواحدة فى المسجد الحرام أفْضَلَ من صلاةٍ كثيرةٍ فى مسجده ، إما ألف صلاة أو أقَلّ منها أو أكثر ، ومراتب ذلك غير متناهية ولا معلومة ، فهذه الاحتمالات كلها تَدْخُلُ تَحْتَ المخالِفة التى دَلَّ الاستثناء عليها .

فقد ظهر أنه لم يُصِبْ فى قوله إن هذا الحديث يمكن أن يستخرج منه مَعْنَيانِ ضِدَّان ، هما أفْضَلِيَّةُ مسجده عليه السلام ، للمسجد الحرام ، والآخر أفْضَلِيَّةُ المسجد الحرام لمسجده عليه السلام ، لأنا قد بَيَّنَّا أن الحديثَ إنما يَدُلُّ على أن حكم المسجد الحرام مُخالفٌ لما قد حَكَمَ به فى حَقِّ مسجده وبَقِيَّةِ المساجد ، ولا يدل على شىء آخر لا فى هذا ولا فى ذاك ، لكن المخالفَة المدلولَ عليها يمكن انقسامُها إلى أفضلِيَّةِ كل واحد منهما ، وإلى تساويهما أيضاً .

فالحاصلُ أن الحديثَ مادلَّ على شيئين ضِدَّين كما ذكره صلى الله عليه وسلم، وإن سُلِّم له أنه قد دَلَّ فإنه يَدُلُّ أيضاً على المساواة ، وهى أمر ثالثٌ ، قُصِدتْ أيضاً ، وهى شىء غير أفضلية كل واحد منهما ، وذلك لم يذكره المصنف ، فقد ظهر أن الذى ذَكرَ مستدرَكٌ على كلا التَّقْدِيرَيْن .

— ٢٤ —

قال المصنف : وقد قال أبو الطيب المتنبى :

وأظلمُ أهلِ الظُّلْمِ مَنْ بات حاسداً لِمَنْ بـــات فى نَعمائه يَتَقَلَّبُ

قال : هذا البيتُ يستخرَجُ منه معنيان ضدان ، أحدهما أن المُنْعَمَ عليه يَحْسُدُ المُنْعِمَ ، والآخر [أن المنْعِمَ يحسد] المنْعَمَ عليه(١)

أقول أما أولاً فإن هذين المعنيين ليسا بضِدَّيْن ،لأنه يجوز اجتماعهما معاً ، فيكون زيدٌ قد أنْعَمَ على عمرو، ثم حسده ، وعَمْرٌو يَحْسُدُه أيضا ،فيكون المنْعِمُ والمُنْعَمُ عليه كلٌ واحدٍ منهما يَحْسُدُ صاحِبَه ، فقد بَطَلَ التضاد الذى ذَكَره ، وَوَجَبَ دُخولُ هذا البيت فى القِسْمِ الآخر ، وهو أن تتأول اللَّفْظَ على المعنى وغيره لا على المعنى وضِدِّه ، وأيضا فإن لفظة البيت تشعر بأنه أراد أن المُنْعَمَ عليه يَحْسُدُ المُنْعِمَ ، وكذلك سِياقُ الشعر ، أما لفظ البيت فلأنه سَمَّاه ظالما وقال إنه أَظْلَمُ الظالمين ، ولا شُبْهَةَ أن من أُنْعِمَ عليه بنعمة فحسَدَ من أَنْعَمَ بها عليه وَودَّ زَوالَ نِعْمَتِهِ ، وانتقالَها إليه ، فإنه يكونُ قد كافأ الإحسانَ بالإساءة ، وكان ظالما . فإذا أَنْعَمَ إنسانٌ على غيره ، ثم حَسَدَ ذلك الْغَيْرَ فإنه

---

(١) التصويب من المثل السائر ١/٧٧

والبيت من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

أغالبُ فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

الديوان ١/١٢٨

لا يُسَمَّى ظالما ، لأنه لم يكافىء الإحسانَ بالإساءة . نعم قد يسمى بخيلاً كما قال ابن هانىء :

وهَبَ الدهرُ نفيســـاً فاسْتَرَدّ   رُبَّما جادَ بخيلٌ فحسَدْ(١)

وأما سياق البيت فإن هذا المصنف ذكر في بيت أبي الطيب وهو :

فإن نلتُ ما أمَّلْتُ منك فربما   شرِبْتُ بماءٍ يُعْجِزُ الطيرَ وِرْدُهُ(٢)

أنه ليس متردداً بين المدح والذم كما قد توهمه قوم ، لأن سـياق الشعر يقتضي أنه أراد المدح لا الذم ، وإذا كان كذلك فسياقُ هذا الشعر يَقْتَضِي أنه أرادَ أن المنعمَ عليه يَحْسدُ المنعِمَ ، لأنه قال :

تريد بك الحسّادُ ما الله دافعٌ   وسُمْرُ العوالي والحديدُ المذَرَّبُ

إذا طلبوا جَدْواكَ أُعطوا وحُكِّمُوا   وإنْ طلبوا الفضلَ الذي فيك خُيِّبُوا

ولو جاز أن تعطى علاكَ وهبْتَها   ولكنْ من الأشياء ما ليس يُوهَبُ

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً   لمن بات في نعمائه يَتَقَلَّبُ(٣)

فهذا يدل على أن الممدوح يعطي هؤلاء وهم يحسدونه ، وإذا كانت السياقة تدل على أنه أراد هذا المعنى خرج من كونه دالاًّ على معنيين ضدين كما حَكَمَ به في البيت المتقدم .

---

(١) هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدي الأندلسي ، ولد بالأندلس بمدينة إشبيلية ونشأ بها واشتغل بالأدب ومهر في الشعر ، ولما خرج معز الدولة يريد مصر شيعه ومدحه بقصيدة مشهورة ، ثم جاء إلى مصر ليلحق به فقتل ببرقة سنة ٣٦٢ .
(وفيات الأعيان ٤/٤٩)

(٢) من قصيدته في مدح كافور التي مطلعها :
أود من الأيـام ما لا توده   وأشـكو إليها بيننا وهي جنده
الديوان ١/٢٦٢

(٣) من قصيدته في مدح سيف الدولة
الديوان ١/١٢٨

— ٢٥ —

قال المصنف : وقد قال أبو الطيب أيضاً فى كافور :

فما لك تُعنَى بالأسِنَّةِ والقَنــا ... وجَدُّك طَعَّانٌ بغيـر سِـنان

ومالك تختار القِسيَّ وإنما ... عن السَّعْدِ يَرْمى دُونك الملوان[١]

فإن هذا يحتمل المدحَ والذَّمَّ ، بل هو بالذم أَشْبَهُ ، لأنه يقول إنك لم تَبْلُغْ ما بَلَغْتَهُ بسَعْيِك واهتمامك ، بل بِجَدٍّ وسَعادة ، وهذا لافَضْلَ فيه ، لأن السعادة ينالها الخَامِلُ والجاهلُ ومَنْ لا يستحقها . قال : وأَكْثَرُ ما كان المتنبى يَسْتَعْمِلُ هذَا الفَنَّ فى القصائِدِ الـكافوريَّات[٢]

أقول إن الناسَ واقعٌ لهم واقعٌ ظريفٌ مع المتنبى فى هذا الباب ، وكان أَصْلُهُ الشيخ أبو الفَتْح عُثْمان بن جِنِّى[٣] رحمه الله ، فإنه نَبَّهَ المتنَبِّى ، ولم يكن ذلك لبُغْضه لـكافور وحَنَقِهِ عليه ، فصار فيه حديثٌ طويل .

وزَعَمَ مَنْ جاء بعده أن المتنبى كان يَقْصِدُ ذلك وَيَتَعَمَّدُهُ ويَمْدَحه بالشعر الموَجَّهِ الذى يَحْتَمِلُ المدحَ والذَّمَّ .

ومنهم مَن يَزْعُمُ أن كافورا كان يَتَفَطَّنُ لذلك ، ويُغْضِى عنه ، ويَنْقُلُون هذا عن المتَنَبِّى ، وما كان ذلك قَطُّ ولا وَقَعَ شىء منه ، ولا قَصَدَ أبو الطَّيِّبِ نَحْوَ ذلك أَصْلاً .

---

(١) رواية الديوان تقديم البيت الثانى على الأول . وفيه (يرمى دونك الثقلان) . الديوان ٤/٢٤٧ .

(٢) المثل السائر ٧٨/١

(٣) هو أبو الفتح عثمان بن جنى الإمام النحوى ، كان من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف ، صنف فى ذلك كتبا تفوق فيها على المتقدمين وأعجز عن مثلها المتأخرين ، منها الخصائص وشرح ديوان المتنبى . وكان يحضر مجلس المتنبى ويناظره ، وكان المتنبى يعجب بذكائه وحذقه ويقول : هذا الرجل لا يعرف قدره كثير من الناس .
ولد حوالى سنة ٣٣٠ وتوفى سنة ٣٩٢ هـ (معجم الأدباء ٨١/١٢)

فأَمَّا هذان الشيئان فقد قال فى سيف الدولة أبى الحسن(١) مثلهما كثيرا ، نحو قوله له :

ولقد رمتَ بالسعادة بَعْضاً   من نفوس العدا فأدْرَكْتَ كُلاًّ(٢)

وقوله له :

إذا سعت الأعداء فى كيد مجْده   سَعى جَدُّه فى كيْدهم سَعْى مُحْنَق(٣)

وهذه الرواية الأولى من رواية من روى (سعى مجده فى جده) لأن قوله بعدها :

وما ينصر الفضلُ المبينُ على العِدا   إذا لم يكن فضلَ السعيد الموفق

يؤكد ما ذكرناه

ونحو قوله له :

لولم تكن تجرى على أسيافهم   مُهَجاتُهُمْ لجَرَتْ على إقْبالِهِ(٤)

ونحو قوله له :

هم يطلبون فمن أدركوا   وهم يكذبون فمن يَقْبَلُ

(١) سيف الدولة بن حمدان أمير حلب الذى مدحه المتنبى كثيراً .

(٢) من قصيدته فى تعزية سيف الدولة بأخته الصغرى وتسليته بالكبرى التى مطلعها :

إن يكن صبر ذى الرزية فضلا   تكن الأفضل الأعز الأجلا

الديوان ٢/٩٦

(٣) صوبنا البيت من الديوان .

وهو من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى   وللحب ما لم يبق منى وما بقى

الديوان ١/٤٥٧

(٤) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

لا الحلم جاد به ولا بمثاله   لولا ادكار وداعه وزياله

الديوان ٢/٥٠

وهم يتمنون ما يشتهون ومن دونه جدك المقبل (١)

وقد قال لعضد الدولة أبى شجاع وهو أعظم مُلكاً من سَيْف الدولة أبى الحسن، وأَشَدُّ بأسا، وأكثر انتقاداً للشعر، وهو يَذْكُرُ هَزِيمَتَهُ (وَهْشُوذَان) وهو بعيد عن عسكرِ لدَوْلَةِ أبيه :

وَليتَ يوْمَىْ فَناءِ عَسْكَرِه ولم تكن دانياً ولا شاهدْ
ولَم يَغِبْ غائبٌ خليفَتُهُ جَيْشُ أبيه وجَدُّه الصاعدْ (٢)

وقال له فى هذه القصيدة وقد صرح بأنه يقهر الأعداء بالجَدّ فقط :

إن كان لم يَعمِدِ الأميرُ لما لقِيتَ منـــــه فيُمْنه عامدْ
فلا يُبَلْ قاتلٌ أعادِيَهُ أقائما نال ذاك أم قاعدْ (٣)

وقال له فى قصيدة الوداع :

وأيّاً شئتِ ياطُرُقى فكونى أذاة أو نجـــاة أو هلاكا

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :
أيقـدح فى الخيمـة العـذل وتشمـل من دهرهـا يشمـل
الديوان ٢/٥٩

(٢) من قصيدته فى مدح عضد الدولة أبى شجاع حينما حارب وهشوذان ملك الديلم وهزمه وأفنى عسكره ، ولم يحضر عضد الدولة القتال فى الوقعتين ، ولم يكن قريباً منهما فكتب النصر له وهو غائب ، كأن سعده ناب عنه فى قتالهم .
مطلع القصيدة :
أزائـر ياخيـال أم عائـد أم عنـد مولاك أننى راقـد
الديوان ١ / ٢٩٨

(٣) الخطاب موجه إلى ملك الديلم الذى لم يقصده الأمير بنفسه .
ومعنى البيت الثانى أن من قتل أعاديه لا يبالى أقتلهم قائما أم قاعدا ، بنفسه أم بغيره .
قال الواحدى : كان حقه أن يقول لا يبال بحذف الياء للجزم لكنه قاس على قولهم لا يبل بمعنى لا تبال وإنما جاز ذلك لكثرة الاستعمال ولم يكثر استعمالهم لا يبل فيجوز فيه ما جاز فى غيره .

يُشرِّدُ يُمْنُ فَنَّا خُسْرَ عنى قنا الأعداء والطعنَ الدِّراكا[١]

وقال لغيره من ممدوحيه :

نفذ القضاء بما أردتَ كأنه لك كلما أَزْمَعْتَ شيئا أَزْمعا

وأطاعك الدهر العصىُّ كأنه عَبْدٌ إذا ناديْتَ لبَّى مسرعا[٢]

ولكن سيف الدولة لما اشتهر إخلاصُ أبي الطيب فى وَلائِه عَدَلَ الناس عن هذا الشعر الذى يتضمن ذِكْرَ الجدِّ والحظِّ ، فلم يذكروه ، ولم يجعلوه مَوَجَّهاً متوسطا بين المدح والذم ، وقالوا ذلك فى كافور لما حدث تغيُّره مع أبي الطَّيب ، وانحرافُ كلٍّ واحدٍ منهما عن صاحبه ، ومُجاهرة أبي الطَّيب له بعد مفارقته بالهجاء .

ولو تأمَّلْتَ الأشعار كلَّها وأَرَدْتَ أن تَسْتَنبِطَ منها ما يمكن أن يكون هجاء لقَدَرْتَ .

هذا السَّيد الحِمْيَرىُّ من الشِّيعَةِ العَلَوِيَّةِ[٣] ، لا يَخْتَلِفُ فى ذاك اثنان

---

(١) من قصيدته فى وداع أبي شجاع عضد الدولة ومدحه التى مطلعها :

فدى لك من يقصر عن مداكا فلا ملك إذن إلا فداكا

فنا خسرو : اسم عضد الدولة . الطعن الدراك : المتتابع.

الديوان ٢/١٧

(٢) من قصيدته فى مدح عبد الواحد بن العباس بن أبي الإصبع الكاتب التى مطلعها :

أركائب الأحباب إن الأدمعا تطس الخدود كما تطس اليرمعا

تطس : تدق . اليرمع . حجارة بيض صغار رخوة :

الديوان ١/٤٢٤

(٣) شاعر شيعى ولد سنة ١٠٥ وتوفى سنة ١٧٣ فأدرك الدولة الأموية والعباسية وكان من غلاة الشيعة ، يفرط فى سب أصحاب رسول الله وأزواجه ، فتحامى الناس شعره . ولولا ما فى شعره من سب السلف ما تقدمه أحد من طبقته (الأغانى ٧/٣) .

وقال أبو عمرو الجاحظ فى كتاب الياقوتة إن بعض الشيعة أَنْشَدَ أبا مخلد قَوْلَ السَّيِّدِ :

أُقْسِمُ باللهِ وآلائـــه ... المرءِ عَمَّا قال مَسْئُولُ
أن على بن أبى طالب ... على الهدى والبِرِّ مجبول
وأنه كان الإمام الذى ... له على الأمة تفضيل
كان إذا الحرب مَرَتْها القَنا ... وأحجَمتْ عنها البهاليل
يَمْشِي إلى الرَّوْعِ وفى كفه ... أبيض ماضى الحَدِّ مَصْقُولُ
مَشْيَ العَفَرْنَى بين أشباله ... أضجره للقنص الغِيل(١)
ذاك الذى سَلَّمَ فى ليله ... عليه ميكال وجبريل
ميكال فى الألف وجبريل فى ... ألف ويتلوهم إسرافيل
فى يوم بدر بدا كلهـم ... كأنهم طيرٌ أبابيل(٢)

فقال أبو مُخَلَّد فى هذا : إن الشاعر لم يمدح صاحبك ، وإنما هجاه فى موضعين : أحدهما أنه زعم أن عليا مجبول على البرِّ والهدى ، ومَنْ جُبِلَ على أمر لم يُمْدَحْ عليه ، لأنه لم يكتسبه بسَعْيه .

والثانى أنه زَعَمَ أنه أُيِّدَ فى حُرُوبه بالملائـكة ، ولا فَضِيلَةَ له إذًا فى الظَّفَر ، لأن أبا حيَّة النُّمَيْرِىّ(٣) لو أيَّدهُ هؤلاء لَقَهَرَ الأعداء وغَلَبَهم .

---

(١) أسد عفرنى : شديد .
(٢) البيتان الأولان بالأغانى ٧/٣
(٣) أبو حية النميرى اسمه الهيثم بن ربيع شاعر مجيد من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، مدح الخلفاء فيهما ، وكان أهوج جبانا كذابا بخيلا ، وله فى الأكاذيب أخبار شتى (الأغانى ١٥ /٦١) منها أنه دخل ليلة إلى بيته كلب ، فظنه لصاً ، فانتضى سيفه الذى كان يسميه لعاب المنية ، ووقف فى وسط داره وهو يقول : أيها المغتر بنا والمجترىء علينا ، بئس والله ما اخترت لنفسك ، خير قليل ، وسيف صقيل ، لعاب المنية الذى سمعت به ، مشهورة ضربته ، لا تخاف نبوته ، اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك ، إنى والله إن أدع قيساً إليك لا تقم لها ، وما قيس ؟ تملأ والله الفضاء خيلا ورجلا . فبينما هو كذلك إذا الكلب قد خرج ، فقال : الحمد لله الذى مسخك كلباً ، وكفانى حرباً .

واعلم أن الشعراء مازالت على قديم الدهر وحديثه يمدحون الرئيس بعلو جده، ومساعدة الأقدار له، ومطاوعة الأفلاك والكواكب والدهر لإرادته. وأقوالهم فى هذا أكثر من أن تورد وتحكى، وإن كان الأصل فى إكثارهم من ذلك أن يهدوا (إلى) أسماع أعداء الممدوح وخصومه، ويوقروا فى صدورهم، ويثبتوا فى نفوسهم أنه منصور من السماء، وأنه محاط بالعناية الإلهية، وأن الكواكب تساعده، والأفضلية والأقدار تجرى على مراده، فيوقعوا الرعب منه فى الصدور، والخوف فى القلوب، إلى أن ينخذل من يناوئه من غير حرب ولا كيد.

وقد روى أن ملك الصين عرض عسكره إلى الإسكندر فاستعظمه، ورأى ما هاله، فقال: قد كنت قادراً على أن أصادمك بهذه العساكر العظيمة، لكنى رأيت الأفلاك ناصرة لك، فرأيت ألا أحارب من تنصره. ثم أعطاه الطاعة، ودفع إليه الإتاوة.

— ٢٦ —

قال المصنف: فأما ما يدل على الشيء وغيره، لا على الشيء وضده، فمثل قوله تعالى فى قصة إبراهيم وولده «فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك» إلى قوله «فبشرناه بإسحاق نبيًّا من الصالحين[1]» قال: فقوله فبشرناه باسحاق يحتمل أن يكون استئنافا لذكر إسحاق بعد ذكر الغلام الحليم صاحب القصة الذى هو إسماعيل. ويحتمل أن يكون قوله وبشرناه بإسحاق بنبوته بعد البشارة بميلاده، أو يكون قوله فبشرناه بغلام حليم إشارة إلى إسحاق وهو بشرى الولادة فقط، وقوله وبشرناه

---

(١) سورة الصافات الآيات ٩٩ — ١١٢.

بإسحاق نبيًّا بشرى النبوة ، ويكون هو صاحب القصة لاغير[١] .

أقول هذا القسْمُ بأَنْ يُجْعَلَ فى جُمْلة القِسْم الأَوَّلِ وهو ما يَدُلُّ على الشىء وضِدِّه أَلْيَقُ ، لأن هذه الآية تُجاذِبُها حتْمًا ، لأنه يَسْتَحِيلُ الجمع بينهما ، لأن الناس مجمعون على أن أحدهما هو الذَّبيح لا كلاهما ، فكل واحد من القولين يناقض الآخر ويُضادُّه ، فتكون الآية من باب ما يمكن استخراج أَمْرَيْن متنافِيَيْن منه ، فلا وَجْهَ لإدخالها فى هذا القِسْمِ ، ولا هى من صُورَهِ إن صَحَّ أنَّ هذين الاحتمالين يتجاذبانها على السواء .

والصحيح أن حَمْلَها على أن الذبيحَ هو إسماعيل أَرْجَحُ وأَظْهَرُ مِنْ حملها على أنه إسحاق ، لأن الظاهر يقتضى البِشارة بمولد إسحاق لا بِنُبُوَّته ، لأنه إذا قِيلَ قد بُشِّر عِمْرانُ بموسى تبادَرَتْ الأَفْهام إلى البِشارة بمَوْلِدِه ، ولأنه عُطِفَ على قوله « ربِّ هَبْ لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم » ثم قال « وبشرناه بإسحاق » فهذه البشارة هى مثل تلك البشارة الثانية) وكلاهما بالولد ، ولأنه لو كان صاحب القصة هو إسحاق والمراد بالبشارة)[٢] البشارة بنُبُوَّته لقال وبشرناه به نبيا من الصالحين ، لأن قبله ضمائر كثيرة تَرْجِعُ إليه ، فلو كان هو المراد لأتى بالضَّمِيرِ كالضمائر المتقدمة .

— ٢٧ —

قال المصنف : ومن هذا القسم أيضا ما يحكى أن الحَرُورِيَّة ظَفِرَتْ برجل فقالت له : ابْرَأْ من علىٍّ وعُثْمانَ .

---

(١) عبارة ابن الأثير : قوله تعالى « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين » قد يكون بشارة بنبوته بعد البشارة بميلاده ، وقد يكون استئنافاً بذكره بعد ذكر إسماعيل وذبحه . والتأويل متجاذب بين هذين الأمرين . ولا دليل على الاختصاص بأحدهما : ولم يرد فى القرآن ما يدل على أن الذبيح إسماعيل ولا إسحاق ، وكذلك لم يرد فى الأخبار التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... » ١/ ٨٠ .

(٢) ما بين قوسين تكملة تم المعنى ملحقة بهامش النسخة الأصلية .

فقال أنا مِنْ عليّ وعثمانَ برىء. فهذا يدل على مَعنيين : أحدهما أنه برىء من عُثمانَ وَحْدَه ، والآخر أنه برىء منهما معاً ، ولكن الرجل لم يُرِدْ (إلا) الوجه (الأول)[1] .

والرواية أنا مِنْ عليّ، ومن عثمان برىء بإثبات مِنْ الثانية ، وهو الصحيح ، لأنها لو حُذِفَت لعَطفَ بالواو على عامِلَيْنِ ، وهو غير جائزٍ ، بل التقدير أنا مِنْ أصحابه ، وأنا مِنْ عثمان بَرِىءٌ . ولم أَجِدْ لفظة مِنْ فى النسخة التى وَقَفتُ عليها بهذا الكتاب ، ولعل الناسخ قد أَوْهَمَ .

وأيضا فإن هذه الحكاية بأن تُلْحَقَ بالقسم الأول أولى، لأنه قد استُخْرِج منها معنيان متضادان : أحدهما البراءة من عثمان والاتباع له ، والثانى البراءة من على وعثمان ، ولا أرى أن أحد هذين القسمين منافٍ للآخر ، فهو بالقسم الأول أشبه .

— ٢٨ —

قال المصنف : ومن هذا ما يحكى أن عبد المسيح بن بُقَيْلة دخل على خالد بن الوليد بالحيرة ، فقال له خالد : من أينَ أَقصَى أثرك ؟ قال من ظَهرِ أَبِى . قال : من أين خَرجْتَ ؟ قال : مِنْ بطْنِ أُمّى . قال : عَلاَمَ أنت ؟ قال . على الأَرضِ . قال فِيمَ أنت ؟ قال : فى ثِيابِى . قال : ابنُ كَمْ أَنتَ ؟ قال : ابنُ رجل واحدٍ . قال : وهذا من توجيه الكلام على نَمَطٍ حسَنٍ ، وهو يَصْلُحُ أن يكون جَواباً لخالدٍ عما سأل ، ويَصْلُحُ أن يكونَ جوابا لغيره مما ذكره عبد المسيح[2] .

---

(١) ما بين قوسين تكملة من ابن الأثير ١/٨٢ .

(٢) المثل السائر ١/٨٢ .

أقول إن اللفظ الذى يُحْمَلُ على المعنى وغيره فى هذه الحكاية هو ألفاظ خالد علامَ أنت ؟ يَحْتَمِلُ أن يريد به على أىِّ حالٍ أنت ، أو على أىِّ دِينٍ ، أو على أىِّ عَزْمٍ ، ويَحْتَمِلُ أن يُرِيدَ به على أىِّ مكان أنت ، وكذا بقية الألفاظ ، فعبد المسيح ترك ما عَلِمَ أنه غَرَضُ خالدٍ ، وعَدَلَ إلى المَحْمِلِ الآخر الذى يَعْلَمُ أنه ليس بغَرَضِهِ ، فقول المصنف « هذا من تَوْجِيهِ الكلام على نَمَطٍ حَسَنٍ وهو يصلح أن يكون جوابا لخالد » هو إشارةٌ بغير شك إلى أن ألفاظ عبد المسيح ليست موجَّهَةً ، بل الموجَّهُ ألفاظ خالد ، لأنها هى المحتملة الأمرين ، فقد بان أن قَوْلَ المصنِّف أن ألفاظ عبد المسيح موجَّهة ليس بصحيح ، وأيضا فقَوْلُهُ « وهو يصلح أن يكون جوابا لخالد عما سأل،ويصلح أن يكون جوابا لغيره » غير صحيح أيضا ، لأن هذه الأجوبة لا تصلح أن تكون أجوبةً لخالد ، لأن خالدا سأل عن أمرٍ ، فأجاب عبد المسيح عن غيره ، فالذى قال عبد المسيح لا يصلح أن يكون جوابا لخالد عما سأله عنه ، بخلاف ما قاله هذا الرجل .

— ٢٩ —

قال المصنف : وقد ورد فى التوراة : لا تأكل الجَدْىَ بلَبَنِ أُمِّهِ . وهذا التحريم يحتمل وجهين : أحدهما ما دَلَّ عليه ظاهر اللفظ ، وهو تحريم أكل الجَدْىِ بلبن أمه خاصَّةً ، فإذا أُكِلَ بلبنٍ غير (لبن) أمه جاز ولم يكن حراما ، واليهود لا تقول بذلك . والآخر أن كل شىء من اللحوم بكل شىء من اللبن حرام ، وهو قولُ كافة اليهود . الثانى الذى فى التوراة لا تُنْضِج الجَدْىَ بلبن أمه ، أى لا تأكل[1] .

وهذه سواء كانت لا تُنْضِج أو لا تأكل خارجة عن هذا القِسْم الذى

(١) المثل السائر ١/٨٣ بتصرف .

قَبْلهُ أيضا ، لأنها دالة على إنضاج الجدى بلبن أمه ، أو تحريم أكله بلبن أمه، وليس منها ما يدل بالمطابقة ولا بالتَّضَمُّن ولا بالالتزام على تحريم أكل الجَدْيِ بغير لَبَنِ الأم ، واليهود لا تحرم أكل اللحم باللبن بمجرد هذه الآية ، بل بنصوص أخرى نقلها فقهاؤهم عَنْ نبيهم ، فإدخال هذه الآية فى باب الألفاظ المترددة فى المعانى المختلفة لا وَجْهَ له .

— ٣٠ —

قال المصنف : ومما يجرى على هذا النهج ما حُكِيَ عن أفلاطونَ(١) أنه قال : ترك الدواء دواء. فذهب بعض الأطباء إلى أنه أراد أنه إذا لَطفَ المزاج وانتهى إلى غاية فهو دواء ،فتركُهُ حينئذ والإضراب عنه دواء .

وذهب آخرون إلى أنه أراد بالترك الوضع، أىْ تَرْكَ وَضْعِ الدَّواءِ على الدواء دَوَاءٍ ، يشير بذلك إلى حِذْق الطبيب فى وقت عِلاجه(٢) .

أقول إن مراد الحكيم ليس واحدا مِنْ هذين التفسيرين ، ومراده ظاهر ، كقول العامة دائما وهو أَنَّ تَرْكَ التداوى حيث لا حاجة إليه هو التَّداوى بَعْينِهِ ، وقد شرح ذلك جالينوس(٣) ، فقال : الحِمْيَةُ فى الصحةِ كالتَّخْلِيطِ فى المَرَضِ . فأما التفسيران المذكوران فباردان جدا ، وخصوصا الثانى منهما ، فإنه بعيد أن يُحْمَلَ الكلامُ عليه . وليست الأدواء كلها

---

(١) أفلاطون من أكبر فلاسفة اليونان ولد نحو سنة ٤٢٨ قبل الميلاد ، وله الفضل فى جمع الآراء الفلسفية المتناثرة واستنباط فلسفة خاصة به ، وقد خلف كتباً كثيرة فى الفلسفة صاغها فى أسلوب حوار ، متأثرا فى ذلك بأستاذه سقراط ، واتخذ سقراط بطلا لكثير من المناقشات ، وهو فى فلسفته أديب فنان .

(٢) المثل السائر ١/٨٣ .

(٣) جالينوس طبيب يونانى قبل الميلاد يعتبر من أساطين الطب فى عصره ، ونقل العرب كثيراً من آرائه فى كتبهم الطبية وقد توفى بعد بعثة للمسيح .

مما يوضع الدواء على داء عارض فى الأعضاء الظاهرة وسطح البشرة ، وبالجملة فهو تفسيرٌ ركيكٌ لا يُستَحسَنُ حَملُ كلام ذلك الحكيم الفاضل عليه .

— ٣١ —

قال المصنف : ومما ينخرط فى هذا السلك قول أبى صخر الهُذَلِىّ :

عَجِبتُ لسَعْى الدَّهْرِ بَينى و بينها فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدَّهْرُ[(١)]

قال : وهذا يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أنه أراد بسعى الدهر سُرْعَةَ تقَضِّى الأوقاتِ مُدَّةَ الوصَالِ ، فلما انقضى الوَصْلُ عاد الدهْرُ إلى حالته الأولى فى السُكونِ والبُطْء ، والآخر أنه أراد بَسْعِى الدهر سَعْىَ أهْلِ الدَّهْرِ بالنَّمائِمِ والوِشايات ، فلما انقضى ما كان بينهما من الوَصْلِ سكنوا وتركوا السِّعاية[(٢)] .

أقول :التفسير الثانى هو الصحيح ، والأولُ غيرُ صحيح ، واللفظ لايَحْتَمِلُهُ ، وفى البيت ما يمنع منه ، بيان ذلك أنه قال « بينى وبينها » وهذه اللفظة تمنع من أن يُرِيدَ سرعة تَقَضِّى الزّمان أيامَ وِصالنا ، فإنها قرينةٌ تحمل لفظةَ السَّعْىِ على السِّعاية والنميمة بالشَّرِّ لا على السَّعْىِ بمعنى الحركة والسير ، ألا تراهم يقولون سَعَى فلانٌ بين فلان وفلان بالشر ، أى ضرب بينهم، وحَمَلَ بعضهم على بعض ، ولا يقولون سَعَى بينهم من السَّعْىِ بمعنى الحركة والسَّير ، إلا أنْ يراد أنه كان يتحرك ويسير بين قومٍ مفترقين فى أماكن شتى ، وليس

---

(١) البيت من قصيدة لأبى صخر الهذلى وليست لأبى كبير الهذلى كما فى الأصل وهو عبد الله بن سلم السهمى الهذلى شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأمويه ، مطلعها :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر

شرح الحماسة للمرزوقى ٣/١٢٣١ والأمالى ١/١٤٨) .

(٢) المثل السائر ١/٨٤ .

هذا مَقْصُودَ البيت ، ولو أراد السعى بمعنى سُرْعَةِ مُرورِ الزمانِ لقال عَجِبْتُ لسَعْيِ الدهر أيَامَ وَصْلِنا أو ما يُشْبِهُ ذلك ، وبالجملةِ فَسادُ المَحْملِ الأوَّلِ ظاهرٌ عند مَنْ له أدْنَى نَقْدٍ للمعانى الشِّعْرِية . .

— ٣٢ —

قال المصنف : وليس كلُّ مَنْ حَمَلَ ميزانا سُمِّيَ صَرَّافاً ، ولا كلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمِّيَ عرَّافا(١) .

أقول : العَرَّافُ هو الكاهِنُ ، وليس الوَزْنُ من الكَهانةِ ولا يُناسبها ، ولو قال ولا كلُّ مَنْ تفَرَّسَ أو مَنْ تَكَهَّنَ سمى عرَّافا كان أوْلَى ، اللهم إلا أن يُريدَ ليس كل من وَزَنَ بخاطِرِهِ أىْ لَمَحَ ونَقَدَ سُمِّى عرَّافا ، فيجوز، لكنه تأويلٌ بعيدٌ ، وخَيْرُ الكناية ما كان معناه جَلِيًّا ، ويُحْمَدُ فيها مِنْ وضوح المعنى مالا يُحْمَدُ فى كثير من الشِّعْر .

— ٣٣ —

قال المصنف : والفرق بين الترجيح البيانى والترجيح الفقهى أن هناك يُرَجَّحُ بين دَليلَىْ الخصْمَيْنِ فى حكم شرعى ، وهاهنا يُرَجَّحُ بين جانِبَى فصاحةٍ وبلاغة فى ألفاظ ومعانٍ خطابية .

وبيان ذلك أن صاحب الترجيح الفقهى يُرَجِّحُ بين خبر الواحد مثلا وبين خبر المتواتر ، وبَيْنَ المُسْنَدِ والمُرْسَلِ(٢) ، أو ما جرَى هذا المجرى، وهذا لا يتعرض له صاحبُ علم البيان ، لأنه ليس من شأنه ، ولكن الذى من شأنه أن يُرَجِّحَ بَيْنَ حقيقةٍ ومجاز ، أو بين حقيقتين ، أو بين مجازين ، ويكون فى ذلك كله ناظرا إلى الصِّناعة الخطابية(٣) .

---

(١) المثل السائر ١/٨٦ .

(٢) خبر الواحد ما رواه الواحد . التواتر هو الذى رواه جمع يؤمن تواطؤه على الكذب واستمر هذا فى إسناده . المسند هو الذى ذكر جميع رواته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . المرسل هو الذى سقط منه الصحابى الذى رواه عن الرسول .

(٣) كان فى العبارة سقط فأصلحناها من المثل السائر ١ / ٨٦ .

أقول إنه قد أطال فى هذا الفَصْل وأَسْهَبَ بما لا ثمرة له إلا تسويد الكاغد، وتضييع الزَّمان ، فإن كلَّ أحدٍ يَعْلَمُ أن البابَ المَعْقُودَ فى هذا العِلْمِ للتَّرْجيحاتِ لا يكونُ مُتَضَمِّناً ترجيحاتِ الفقهاء ، ولا تَرْجيحاتِ النُّحاة ، ولا تَرْجيحاتِ الاصُوليين ، فأىُّ حاجةٍ له إلى أن يَقُصَّ هذه القِصَصَ ، ويُطِيلَ هذه الإطالة ؟ ومن العجب قوله « وبيان ذلك » وهذه لفظة تُقَالُ فيما يَحْتَاجُ إلى بيانٍ وبُرْهانٍ . فأما مَنْ قال إن مباحِثَ النُّحاة مثلا فى باب الصِّلَةِ والموصول غَيْرُ مباحِثِ الفلاسفةِ فى ماهِّيةِ الزمان والمكان ، فإنه لا يُنازِعُهُ فى ذلك عاقلٌ حتى يحتاج إلى أن يقول « و بيان ذلك » .

— ٣٤ —

قال المصنف : والترجيحُ إنما يَقَعُ بين مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عليهما لفظٌ واحدٌ ، ولا يخلو الترجيحُ بينهما من ثلاثة أقسام : إما أن يكونَ اللفظُ حقيقةً فى أحدهما مجازا فى الآخر ، أو حقيقةً فيهما معا ، أو مجازا فيهما معا .

قال : والترجيحُ بين الحقيقتين أو بين المجازَيْنِ يَحْتاج إلى نظر .

وأما التَّرجيحُ بين الحقيقة والمجاز فإنه يُعلَمُ بالبديهة لمكان الاختلاف بينهما ، والشيئان المختلفان يَظْهَرُ الفرق بينهما ، بخلاف الشيئين المتشابِهَيْن(١) .

أقول : الذى يُعْلَمُ بالبديهة هو الفرقُ بين الحقيقة والمجاز لا التَّرْجيحُ ، لأنَّا إذا عِلمْنَا فى لفظٍ مُسْتَعملٍ فى شعر أو خطابة أنه مُتَرَدِّدٌ بين مُسَمَّيَيْن وهو موضوع لأحدهما وضعا أَوَّلاً ومنقول إلى الآخر ثانيا ، فقد علمنا الفَرْقَ ، وأما ترجيحُ أحدِ المَحْمَلَيْنِ على الآخر فإنه لا يُعْلَمُ الترجيحُ بين مَحْملين فى لفظ واحد ، وكلاهما حقيقةٌ أو كلاهما مجازٌ إلا بالنظر ، ويدل على ذلك

---

(١) المثل السائر ١/٨٧ .

الآية التى قد أوردها بعد هذا الكلام بلا فصل ، وهى قوله « شَهِدَ عليهم سَمْعُهُم وأبصارُهم وجُلودهم » فإن لفظة الجلود هاهنا مترددة عنده بين الجلود الحقيقية وبين الفُروجِ على سبيل المجاز ، ويَحْتاجُ ترجيحُ أحد المَحْملين على الآخر إلى نظرٍ دقيق .

— ٣٥ —

قال المصنف : وبيان الترجيح بين الحقيقة والمجاز قوله تعالى : « حتى إذا ما جاءوها شَهِدَ عليهم سَمْعُهُمْ وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون[١] » قال فالجلود هاهنا يمكن أن تكون هذه الجلودَ الحقيقيةَ ، ويمكن أن يراد بها الفروج مجازا ، لكنَّ المانعَ البلاغِيَّ منَعَ من حمل لفظ الجلود فى هذا الموضع على حقيقتها ، لما فيه من لطف الكِناية عن المَكْنِىِّ عنه .قال:ويمكن أن يُسْتَدَلَّ على ذلك من وجه آخر استنباطا بأن يقال إما أن يراد بالجلود هذه الجلودُ المعروفةَ والجوارح التى هى ذوات الأعمال ، والأول باطل ، لأن شهادة الجلود وهى غير فاعلةٍ شهادةٌ باطلة ، لأن المراد الإقرارُ بأن تَقُولَ اليدُ أنا أخذتُ كذا ، وتقول الرِّجْلُ أنا مشيتُ إلى كذا ، وكذلك بقيةَ الجوارح ، وهو باطل ، لأنه قد دَخَلَ تحته السمعُ والبصَرُ فلا يكونُ لتخصيصهما بالذكر فائدةٌ ، أو بعض الجوارح فيكون ذلك البعضُ هو الفروج ، لأن حمله عليها أَوْلَى من وجهين :

أحدهما أن الجوارحَ قد ذُكِرَتْ فى القرآن شاهدةً على صاحبها بالمَعْصِيَةِ ما عدا الفَرْجَ ، فكان حَمْلُ الجِلْدِ عليه أَوْلَى ليستكمل ذِكْرُ جميع الأعضاء ، والثانى أنه ليس فى الجوارح ما يُكْرَهُ التصريحُ بذكره إلا الفَرْجُ ، فكَنَى عنه بالجِلْدِ كراهيةً لذكرِهِ . ثم سأل نفسه: لِمَ لايجوزأن يُرادَ كُلُّ الجوارحِ

---

(١) سورة فصلت ٢٠ .

ويكونَ ذِكْرُ السمع والبصر من باب التفضيل كقوله تعالى : « فاكهةٌ ونخلٌ ورمَّان »[1] وهما من الفاكهةُ ؟

وأجاب فقال : هذا الكلام يؤيد استدلالنا ، لأن النخل والرمان إنما أفردا بالذكر لفضيلتهما على الفاكهة ، وليس السمع والبصر أفضلَ وأكثرَ وزراً من غيرهما من الأعضاء فى المعصية ، لأن قُصارَى العِصْيانِ بهما إبْصارٌ مُحَرمٌ أو سماعٌ مُحَرَّمٌ ، وكل ذلك لايوجِبُ الحدَّ ، وأما غيرهما من الأعضاء فيقع به الكبائرُ التى توجِبُ الحدودَ ، فكان ينبغى أن تكونَ تلك الأعضاء هى المخصوصةَ بالذكر دُوَن السمع والبصر[2] .

هذا مُلَخَّصُ ماذكره بَعْدَ حذف التطويلات .

أقول : أما الوجه الأولُ فليس بشىء ، لأنه ما زاد على أن قال هذا مانع بلاغىٌّ يمنع من حَمْلِ الجلود على حقيقتها ، وأن تُحْمَلَ على الفُروجِ ، وهذا ضعيفٌ لأنه بمنزلة قول من يقول إن الجلودَ فى قوله تعالى « كلما نَضِجَتْ جلودهم بدَّلناهم جلودا غيرها »[3] بمعنى الفروج ، وإن هذه الآية نَزَلَتْ فى الزُّناةِ ، وكَنَى عن الفُروجِ بالجلودِ لأنها كنايةٌ لطيفة ، وأيضا كان سبحانه قد ذَكَرَ ثلاثةَ أجزاء مِنْ أجزاء بَدَنِ الإنسان ، وهى السمعُ والبصَرُ والْجِلْدُ ، وقال إنها تَشْهَدُ عليهم ، فلم حِمِلَ الجِلْدُ على الفرج ؟ لأجل أن الفَرْجَ يَلِيقُ الا يُذْكَرَ تصريحا ، ويحسن أن يُكَنَّى عنه بغيره أولى من أن يُحْمَلَ السمعُ والبصر على الفرج لهذه العلة ، وإنما يتعين حَمْلُ الجلد على الفرج إذا كان بين لفظَتَى

---

(١) سورة الرحمان ٦٨ (فيهما فاكهة ونخل ورمان) .
(٢) المثل السائر ١/٨٨ .
(٣) سورة النساء ٥٦ .

الجِلْدِ والَفرجِ أو معناهما مناسبةٌ لاتحصل بين السمع والفرج ولا بين البصر والفرجِ ، ونحن لانجد فرقا بين هذه الأجزاءِ الثلاثةِ ، وكلٌّ واحد منها بعيدٌ عن الَفرْجِ لامناسَبَةَ بينه وبينه ، اللهم إلا أن يكون لأجْلِ أن الجلد جزء من أجزاء ما هِيَّةِ الَفرج ، فَعَبَّرَ عن الـكُلِّ بالبعض ، وهذا بعيد جدا .

فأما استدلالُهُ له ثانيا ، وإبطاله أن يراد بالجلود هذه الجلودُ الحقيقيةَ ، لأنها ليست هى الفاعلة ، بخلاف الأعضاء كاليد والرجل ، فينبغى أن يُجابَ عنه بالضحك من عاقل يَتَوَهَّمُ أن اليد هى التى فعلَتْ الشىء ، وأن اللسانَ هو الذى فَعَلَ النُّطْقَ ، وهذا وَهْمٌ عامِّىٌّ لايعتقدهُ مُحَصِّلٌ ، فإنما إبْطالُهُ أن تـكون الجلودُهى جُمْلَةَ الأعضاءِ والجوارحِ بقوله إنه قد ذَكَرَ السمعَ والبصرَ فلا يكون لإفرادهما بالذكر فائدة ، فجوابُهُ ما سأل عنه نَفْسَهُ ، وهو أن المرادَ بذلك ما أراد من قوله تعالى « فإن الله هو مَوْلاه وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائـكةَ بَعْدَ ذلك ظهيرٌ » .

وقوله هذا لايجوز ، لأن العصيانَ بالسمع والبصر أخَفُّ ، فيقال له بل هو هذا الترتيب ، والصحيح فى نظم الـكلام ، لا كما تَوَهَّمتَهُ ، مثال ذلك يقال دخلتُ قريةَ كذا فوثب علىّ الوِلْدانُ والنساء وكلُّ مَنْ فيها . يَوَدُّ الولدان والنساء ويخصهم بالذكر ، لأنه ليس من شأنهم أنَ يثبُوا بالرجال ويقبلوا عليهم ، وأنت إنما تُريدُ أنه وَثَبَ عليك الضعيف والقوىُّ ، فـكذلك الآية تقديرها شَهِدَ عليهم من الجوارحِ ماالمعصيةُ به صغيرة ، والمعصيةُ به كبيرة .

ثم يقالُ له سَلَّمْنا أنه ليس المرادُ كلَّ الجوارح بلَ بعضَها فلم قُلْتَ إن ذلك البعضَ هو الَفرْجُ ؟

وقوله « لأن سائرَ الأعضاء قد ذُكِرَ فى القرآن أنها تَشْهَدُ إلا الَفرْجَ

فوجب أن يكون هو المراد بالجلود لتكامل شهادة كل الأجزاء » باطلٌ لأنه لم يُذْكَرْ فى القرآن شهادةُ الأعضاء ، وإنما ذُكِرَ شهادةُ الأيدى والأرجل والسمعِ والبصرِ والألسنةِ والجلودِ فى آيات مُتفرِّقةٍ ، فأما القلوبُ فلم يُذْكَرْ لها صريحُ شهادةٍ ، بل قال : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » [1] ولا ذَكَرَ شهادةَ الذوق وهى اللهاة فيما ذَاقَتْهُ من الحَرامِ والحلالِ ، ولاشهادةَ حاسَّةِ اللَّمْسِ بما لمسته من المحرَّماتِ ، فقد بَطَلَ قوله إنه إنما وقع الإخْلال من جميع الأعْضاء من الشَّهادة بالفرج وحده .

وأما قولُهُ إنه يجبُ حَمْلَهُ على الفَرَج لأنه مما يُكْرَهُ التصريحُ بذِكْرِهِ ، فَوَجَبَ أن يُجْعَلَ هذا اللفظ كنايةً عنه ، فباطلٌ ؛ لأنه تعالى قد ذكره فى غير موضع ، فقال : « والذين هم لفروجهم حافظون » [2] وقال : « وقُلْ للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فروجهن » [3] وقال تعالى : « ويعلم ما فى الأرحام » [4] وما رأيناه كنى فى هذه المواضعِ بكنايةٍ أصْلاً .

— ٣٦ —

قال المصنف . ومما أُسْتَدِلُّ به على مُرادِ المتكلم بقَرِينة دقيقةٍ لطيفةٍ قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم « من جَعَلَ نفسه قاضيا للمسلمين فقد ذُبِحَ بغير سِكِّينٍ » [5] قال ومعناه أن مَنْ جُعل قاضيا فقدحِيلَ بينه وبين نفسه وهواها ،

---

(١) سورة الإسراء ٣٦ .

(٢) سورة المؤمنون ٥ .

(٣) سورة النور ٣١ .

(٤) سورة لقمان ٣٤ .

(٥) النص فى المثل السائر : وأما ما يستدل عليه بقرينة لبست من توابعه ، فإن ذلك أرق من الأول ، وألطف مأخذا . فما ورد منه قول النبى صلى الله عليه وسلم : من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين » ١/٩٣ .

لأنه يكون محمولاً على الامتناع من أخذ الرّشا ، ومأمورا أن يحكم لعدوه على صديقه ، وأن يرفع الحجاب بينه وبين الناسِ ، ويجلس للقضاء فى وقت راحته ، ويُتْعِبَ نفسه ويُجْهِدها . قال : فلما اشترك القضاء والذبح فى الألم الشديد، وكان الذبح الحقيقىُّ هو قَطْعَ الحُلقومِ ، والقضاء هو قَطْعَ النَّفْسِ عن هواها ، لاَجَرَم كان الشخصُ الذى يُجْعَلُ قاضيا مذبوحا ذَبْحًا معنويا . قال : وهذا موضعٌ غامض لطيف[1].

أقول إن تأويلات الباطِنِيَّة[2] لآياتِ الكتابِ العزيزِ أَوْقَعُ وأَقْرَبُ إلى العَقْلِ من هذا التَّأْوِيلِ ، وكيف يجوز أن يُنْسَبَ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أرادَ هذا المعنى ؟ وهل هذا إلا فى قُوَّةِ أن يُقالَ من رُتِّبَ قاضياً فإنه يَتْعَبُ ، ويجدُ مَشَقَّةً ، وينقطع عليه كثير من أوقات راحته ؟ ومَنْصِبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلُّ وأعظمُ من أن يكون هذا المقدارُ فَحْوَى كلامِه .

---

(١) بتصرف من ١/٣٠٩.

(٢) فرقة من الإسماعيلية الذين ينسبون الإمامة لإسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق . وفى رأيهم أن الأرض لن تخلو من إمام حى قائم إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور . ولهم آراء شتى منها أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية . وأشهر ألقابهم الباطنية ، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا .

وهم يلقبون بالعراق الباطنيه والقرامطة والمزدكية، ويلقبون بخراسان التعليمية والملحدة.

ويقولون نحن إسماعيلية لأننا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص .

وقد خلط الباطنية القدماء كلامهم ببعض كلام الفلاسفة ، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج . ومن آرائهم نفي للصفات لأن إثباتها الحقيقي يقتضي شركة بين الله تعالى وسائر الموجودات وذلك تشبيه .

ولهم دعوة جديدة تزعمها الحسن بن محمد الصباح فى القرن الخامس الهجرى . (الملل والنحل ١/١٧٠) .

ومعلومٌ أنه إنما أَخْرَجَ هذه اللفظةَ مُخْرَجَ التحذير لأصحابه من القضاء ، لما فيه من التعرض للآثامِ والمؤاخذةِ الأُخرويَّةِ ، وأنه ليس كلُّ أحدٍ يَقْدِرُ على ضَبْطِ نفسه عن الميل إلى أحد الخصْمَيْنِ ، ولا يَمْلِكُ سَوْرَةَ الغَضَبِ التى تُفْضِى به إلى الحكم بغَيْرِ الحقِّ ، ولا يستطيع تَجنُّبَ المراقبة والمحاباة لأبناءِ الدنيا وأصحاب السلطان ، ولذلك كان الصحابة والتابعون رضوانُ الله عليهم يتأذَّونَ من القَضاء ، ويفِرُّون منه ، ويَسْتَتِرُون الدَّهْرَ الاطْوَلَ إذا نُدِبُوا إليه ، ويتحملون مشقة الهَرَبِ والاسْتِتَارِ ومفارقة الأوطان حذرا من عِقابِ الآخرة لا غيْرُ .

وكيف يُحَذِّرُ رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابَهُ وأُمَّتَهُ من الدخولِ فى القضاء لكَوْنِهِ مجاهدةً لهَوى النفس ، وكَوْنِهِ يُورِثُ التَّعَبَ والمشقة الدنيوية ، وهو يأمرهم بالجهادِ ومناهضةِ المشركين وقَتْلِ أولادهم وآبائهم وإخوانهم فى طاعة الله ورسولِه ؟

ومعلومٌ أن ذلك أَصْعَبُ وأَشَقُّ منا متاعب القضاء بأَضْعاف مضاعفة ، وهم مأمورون به لما فيه من ثَوابِ الجهادِ ، فكذلك القضاء متاعبُهُ ومشاقُّهُ مغمورةٌ بما فيه من ثواب الانتصارِ للحكم بالحقِّ ، ونُصْرةِ المظلوم ، وإقامة شعائر الإسلام ، وما أعلمُ ما أقولُ فيمن حَمَلَ كلامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك التَّأويل الرَّدىء .

— ٣٧ —

قال المصنف : ومِثالُ ما يَتَرَدَّدُ بَيْنَ معنيين ويَحْمِلُ على أحدهما القَرِينةُ المتقدمةُ فى أول الكلام قولُه تعالى : « لا تجعلو دُعاءَ الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا »[1] فإنه يحتمل أن يريد به لا تدعوه باسمه فتقولوا يا محمد ،

(١) سورة سبأ ٥٤ .

كما يدعو بعضكم بعضا بأسمائكم ، ويحتمل أن يُرِيدَ به أنكم إذا حَضَرْتُم في مَجْلِسه فلا يَكُنْ حضوركم كحضوركم في مجالسكم ، أي لا تفارقوا مَجْلِسَهُ إلا بإِذْنِهِ ، والْزَمُوا معه الأدَبَ . قال : والحمل على هذا المحمل أولى[1] لأن قبل هذه « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمْرٍ جامعٍ لم يَذْهَبُوا حتى يستأذنوه[2] » .

أقول : هذه قرينةٌ متقدمةٌ لعمرى ، ولكنّ في الآية قرينةً أخرى متأخرةً تقتضى حمله على مَحْمَلٍ آخرَ غيرِ هذا وغَيْرِ المحملِ الأوَّلِ ، ولعله الأصَحُّ ، وهو أن يراد بالدُّعاءِ الأمْرُ ، يقال دَعَا فلان قومه إلى كذا أى أمرهم به ونَدَبَهُمْ إليه ، قال سبحانه « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحْيِيكم[3] » أى ندبكم . وقال سبحانه « وإنِّى كلما دعوتهم لتَغْفِرَ لهم »[4] أى أمرتُهم ونَدَبتُهم . والقرينة المتأخرةُ قوله « فلْيَحْذَرِ الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة[5] » فلم كان حَمْلُ الآية على ما ذكره لأجل القرينة المتقدمة أولى من حمله على هذا المحمل لأجل القرينة المتأخرة ؟

— ٣٨ —

قال المصنف في حد الحقيقة : هى اللفظُ الدَّالُّ على مَوْضوعِهِ الأصْلِيِّ ، والمجازُ ما أُرِيدَ به غَيْرُ المعنَى الموضوع له في أصل اللُّغةِ . وهو مأخوذٌ من جَازَ من هذا الموضع إلى هذا الموضع إذا تخطاه إليه ، فالمجازُ إذَنْ اسمٌ للمكان الذى يُجاز فيه ، كالمَعَاجِ والمزَارِ وأشباهِهما .

(١) المثل السائر ١/٩٤ .

(٢) سورة النور ٦٢ .

(٣) سورة الأنفال ٢٤ .

(٤) سورة نوح ٧ .

(٥) سورة النور ٦٣ .

وحقيقتُهُ هو الانتقالُ من مكان إلى مكان ، فجُعِلَ ذلك لنَقْلِ الألفاظِ من مَحَلٍّ إلى محل (١) .

أقولُ : أما حَدُّ الحقيقةِ الذى ذكره فمنقوضٌ بلفظ الدَّابَّةِ إذا استُعْمِلَتْ فى الدُّودة والقَمْلة ، فإنها قد دَلَّتْ على موضوعها الأصْلِيِّ ، لأنها موضوعةٌ لما يَدِبُّ ، مع أنها بالنسبة إلى الوَضْعِ العُرْفِيُّ مجازٌ ، فإذن قد دخل المجازُ العُرْفِيُّ فيما جعله حـدًّا لِمُطْلَقِ الحقيقةِ ، وبلَفْظَةِ الصَّلاةِ إذا استُعْمِلَتْ فى الدُّعاء ، فإنها قد دَلَّتْ على موضعها الأصلى ، فيكون قد دخل المجازُ الشَّرْعِيُّ فيما جعله حَدًّا لِمُطْلَقِ الحقيقة ، وهو غير جائزٍ .

والواجبُ أن يقالَ : الحقيقةُ ما أُفِيدَ بها ما وُضِعَتْ له فى أصْلِ الاصطلاح الذى وَقَعَ التخاطبُ به ، فيدخلُ فى ذلك الحقيقةُ اللغويةُ والعُرْفيةُ والشَّرعيةُ .

فأما ما ذكره فى حَدِّ المجاز فهو باطلٌ أيضاً فى الحقيقيتين العرفية والشرعية ، فإنهما يدلان على غير ما وُضِعَا له فى الأصْلِ ، وهما حقيقتان .

على أن قوله : « المجاز ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى أصل اللغة » ليس بجَيِّدٍ ، لأنه لو عَبَّرَ بالسماء عن الأرض لـكان قد أرادَ باللفظ غيرَ المعنى الموضوع له فى أصل اللغة ، وليس مجازا ، والأجْوَدُ أن يُبْدَل لفظ ما أريد به بلفظ ما أُفِيدَ به ، أو ما يُدلُّ ، وفيه مع ذلك الإشْكالُ الذى ذكرناه أوَّلاً .

وأصْلَحُ ما قيل فى حَدِّ المجاز أَنَّهُ لما أُفِيدَ به معنىً مصطلحٌ عليه غيرُ ما اصطلح عليه فى أَصْلِ تلك المواضعة التى وقع التخاطبُ بها ، لعلاقة بينه و بين المعنى الأول .

(١) المثل السائر ١/١٠٥ .

وهذا القَيْدُ الأخيرُ يُتِمُّ تَحْدِيدَ المجازِ ، لأنه لولا تلك العلاقةُ لما كان مجازا من الأول ، بل كان وَضْعاً جديدا .

ومن العَجَبِ أن هذا الرجل قال: « المجاز اسم للمكان الذى يُجاز فيه » ثم قال عَقِبَهُ بلافصل: « المجاز هو الانتقال من مكان إلى مكان[1] » فتارة يجعل الفعل هاهنا اسما للمكان كالمُقام لموضع الإقامة ، وتارة يجعله اسما للمصدر كالمُقامِ من قال يقول قولا ومقالا ، وهذه مناقضة ظاهرة .

فأما قوله : « لجعل ذلك لنقل الألفاظ من محل إلى محل » فإنه أراد من مُسَمًّى يعدل عن اللفظ الجيد إلى اللفظ الردىء ، فإنه يوهم أن المعنى شىء يحل فيه اللفظ ، ولسنا نضايقه فى ذلك وأمثاله .

— ٣٩ —

قال المصنف : والفرق بين الحقيقة والمجاز بتَبادُرِ الفهمِ عند الإطلاق إلى الحقيقة دون المجاز ، كالشمس لهذا الكوكب المخصوص دون الوجه المستحسن فإن قلتَ : فإنا نَرَى الأفهامَ تُبادِرُ عِنْدَ سماعِ كثيرٍ من الألفاظ العُرْفيَّةِ إلى غير حقائِقِها الأصلية ، كالغائط الذى لا يُفْهَمُ منه إلا الحاجةُ المخصوصةُ دون المطمَئِنِّ من الأرض . قلت هذا شىء يَذْكُرُه الفقهاء ولا طائلَ له ، لأن المعتبر بمبادَرَةِ أَفْهامِ الخاصَّةِ من الناسِ لا العامَّةِ ، كالحدادين والنَّجارين والخبَّازيين والحَاكَةِ والاساكِفَةِ ، ومعلومٌ أن الخَواصَّ من العلماء لايفهمون من الغائطِ إلا المطْمئِنَّ من الأرض . قال : والعَجَبُ من الفقهاء كيف دَوَّنُوا هذا وذَهَبُوا إليه[2] .

---

(١) المثل السائر ١/١٠٥ .
(٢) ملخص من ١/١٠٦ وما بعدها .

أقول: الجواب الصحيح أن يُقالُ إن تَبادُرَ الأفهام إلى أن المراد بالغائط الحاجةُ المخصوصةُ ، وبالدَّابة الفرَسُ ، و بالرَّاوِيَةِ المَزادةُ ، وبالمَلَكِ الرَّسُولُ الرُّوحانى خاصَّةً ، دليلٌ على أن هذه الألفاظَ حقائق فى الوضع العرْفى الجديد ، وذلك لاَ ينقُضُ قَوْلَنا إن تَبادُرَ الافهام إلى المعنى دليلٌ على أن اللفظ حقيقةٌ فيه ، لأنَّا قد قُلْناَ بِوُجبِه ، وجعلنا هذه الألفاظَ حقائقَ ، ولـكنها عرُفيَّاتٌ. فأما الجواب الذى أجاب به فليس بجيِّدٍ ، لأنه إما أنْ ينفِىَ الحقائق العرُفيَّة أو يثْبتها ، فإن أثْبتها فقد بَطَل قوله إنه لا إعتبار بمُواضعَةِ أهْلِ العرُفِ ، وإن نفَاها فهو باطلٌ ، لأن الحقائق الأصلية اللُّغوية ما كانت حقائق لقرآن أنزله الله تعالى فيها ، بل لأن طائفةً من الناس تواضعوا عليها ، فلأىِّ حال كانت مواضعةُ العرَبِ فى الجاهلية على ألفاظٍ مخصوصة لمعان مخصوصة تقتضى جعْلها حقائقَ فى مُسَمَّياتِها، ولاتـكون مواضعةُ طائفة أخرى موجودين الآنَ على ألفاظٍ مخصوصة لمعانٍ مخصوصةٍ تَقْتَضِى جعْلَها حقائقَ فى مُسَمَّياتِها ؟

أليس وَضْعُ الأكْرادِ والفرْسِ والتُّرْكِ والرُّوم لغاتِهم وألفاظهم لمعانٍ قد اصطلحوا عليها بينهم يُوجِبُ جعْلَ تلك الألفاظِ حقائقَ فيما وُضِعَتْ له ؟ فليس الأمرُ فى هذا الباب موقوفا على مُواضعَةِ العرب قبل الإسلام، فقد ظهر أن الذى دَوَّنه الفقهاء هو الحقُّ ، وأن ما اعترضهم به ليس بحقٍّ .

ونحن نستنبط بعد هذا من نصِّ كلامه ماتخصُّهُ به ، وننتصر به للفقهاء عليه ، وذلك أنه قال ماهذه صورته : إن كان إطلاق اللفظ بين عامة الناس من إسْـكَاف وحَدَّادٍ ونجار وخَبَّازٍ ومَنْ جرَى مجراهم ، فهؤلاءلااعتبارَ بهم ولا اعتدادَ بأقوالهم .

فيقالُ له ما تَعْنِي بالإسْـكَافِ ؟ كلَّ صانعٍ أم صانعِ النِّعال خاصة ؟

فإن قال صانع النعال خاصة ،قيل له فأنت من الخاصة لا من العامة ، وقد تبادر ذهنك إلى ماليس بحقيقةأصلية ، لأن كلَّ صانعٍ إسكافٌ عندالعرب ، وكتب اللغة كلها تشهد بذلك . وإن قال أردتُ كل صانع ، قيل له لاتُغالِطْ ، فإنك قُلْتَ من إسكاف وحداد ونجار وخباز ، فجعلت الإسكافَ صاحبَ صناعة مفردةٍ كالنجار والحداد ، ولو أَرَدْتَ العمومَ لقلتَ من حداد ونجار وخباز وَغَيرِهِم من الأساكفة ، ولم تقل ذلك .

فإذا كان نَصُّ كلامك يَشْهَدُ عليك أن ذهنك قد تبادر إلى الاصطلاح العُرْفِيّ وهو قَصْرُ لفظةِ الدَّابَّةِ على هذا الحيوان المخصوص ، فقد بَطَلَ قولك إنه لايتبادر إلى أفْهام الخاصة عند إطلاق كلِّ لفظ إلا حقيقتهُ لا غَيْرُ .

— ٤٠ —

قال المصنف : والفرق بين الحقيقة والمجاز أنَّ الحقيقة جائزةٌ على العموم في نظائرها ، كقولنا فلان عالم ، يصدق على كل ذى علم ، بخلاف : « واسأل القرية [(١)] » لأنه لايَصِحُّ إلا فى بعض الجمادات دُونَ بعض ، إذْ المرادُ به أهلُ القرية ، لأنهم ممن يَصِحُّ السؤال عنهم ، ولا يجوز أن يُقالُ واسأل الحجَر والترابَ [(٢)] .

أقول : أما دَعْوَى وُجودِ اطِّراد الحقيقةِ ففيه كلامٌ ، فإنا قد رأيناها غير مطَّرِدَة في مواردها ، إما لأن العَقْلَ يمنعُ من ذلك ، كلفظة الدَّليل عند من يقولُ إنه حقيقة فى فاعل الدِّلالةِ ، فإنه لما كَثُرَ استعمالُهُ فى نفس

---

(١) سورة يوسف ٨٢ .

(٢) المثل السائر ١/١١٠ .

الدِّلالة لاَ جرَمَ لم يَحْسُنْ استعمالُهُ فى حَقِّ اللهِ تعالى إلا مقيداً كقولهم : يادليل المتحيرين ، وإما لأن الشرع يَمْنَعُ من ذلك ، كتسميته تعالى بالفاضل والسخِىّ ، فإن الشرع يَمْنَعُ من ذلك ، مع حصول حقيقتهما له تعالى ، وإما لأن اللغة تَمْنَعُ من ذلك ، كامتناع استعمال الأَبْلَق فى غَيْرِ الفرَسِ ، ولاَ يصِحُّ أن يُعْتَذَرَ عنه بأن الأَبْلَقَ موضوعٌ للمُلَوَّن بهذين اللونين ، بشرط أن يكونَ فَرَساً ، لأنه يَلْزَمُ عليه أن يَجُوزَ فى كلِّ مجاز لاَ يَطَّرِدُ أن يكونَ سَبَبُ عَدَمِ اطِّرادِهِ لاشتراطِ كونِهِ ذلك المسَّى بعَيْنِهِ ، وحينئذ لايمكن الاستدراك بعَدَمِ الاطِّراد على كونه مجازا .

وأما قوله « عالِم » لمَاَّ كان مَوْضوعا لذى العِلْمِ اطَّردَ فى كل علم ، « واسأل القرية » لم يَطَّرِدْ فى كل الجمادات ، فإنه استدلالٌ على أمرٍ كُلِّىٍّ بصورة جُزْئية .

ومن أين له أن كلَّ حقيقةٍ فإنها جاريةٌ فى الاطِّرادِ مَجْرَى قولنا « عالِم » لذى العلم ، وأن كلَّ المجازاتِ لاتَّطرِدُ كقوله « واسأل القرية » ؟

ولِمَ لا يجوز أن يكون المجاوَزُ وإن لم يَجِبْ اطِّراده فإن بعضه قد يطردُ لا على سبيل الوجوب ؟

ولايمكن أنَ يدَّعى أنه قد استَقْرَى الألفاظَ كلَّها فلم يجد فيها مَجازا مطَّرِدا ، ولوكان ذلك قد وَقَعَ لكانت ألفاظُ المجاز كُلُّها قد عُلِمَتْ وعُلِمَ أنَّ ما عداها حقيقةٌ قبل العِلْمِ بنفى اطِّرادها ، وذلك يقتضى أن يكون الفرقُ بين الحقيقة والمجاز قد وَقَعَ قَبْلَ هذه الدِّلالةِ .

— ٤١ —

قال المصنف : واعلَمْ أن كلّ مجازٍ فله حقيقةٌ ، لأنه لا يصح أن يُطْلَق عليه اسْم المجاز إلا لنقْلِهِ عن حقيقةٍ موضوعةٍ له ، وليس من ضرورة كل حقيقة أن تكون مجازا ، فإن من الأسماء مالا مَجازَ له ، كأسماء الأعلام التى وُضِعَتْ للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصِّفات[1] .

أقولُ : هذا يَدُلُّ على أنه يَتوَهَّمُ أن أسماء الأعلام حقائقُ فى الأشخاص المسمَّيْنَ بها ، وليس كما توهمه ، لأن الحقيقة ما أُفِيدَ به ما وُضِعَ له ، ونعنى بقولنا ما وُضِعَ له وَضْعْ أهل اللغة وأربابِ الاصطلاح ، فتكون اللفظة حقيقةَ تبَعًا لكونها موضوعةً لشىء قبل استعمال المُسْتعْمِل ، حتى إذا استعملها المستعِملُ فيما وُضِعَتْ له كانت حقيقة فيه ، وأسماء الأعلامِ لم تَقَعْ على مسَمَّياتِها المعْنيَّةِ بَوضْعٍ من أهل اللغة ولا من الشرع حتى يكون من اتَّبعهم فيها فى أصل موضوعهم فقد استعملها على حقيقتها .

وهذا الكلام كما يَنفِى أن تكون الحقيقةُ داخلةً فى أسماء الأعلام يَنْفِى أن يكون المجاز أيضا داخلاً فيها .

والصواب أن يقال : المجاز هو المُستَعمَلُ فى غير موضوعه الأصلى لمشابَهةٍ بينهما . وهذا تصريح بأن من ضَرُورةِ تحقيقِ المجاز ثبوتَ الحقيقةِ ، وليس يلزم من كَوْنِ اللفظِ موضوعا لشىء أن يصير موضوعا لشىء آخر بينه وبين الأول مشابهةٌ ومناسبة ، لجواز أَنْ يُعْدَمَ ذلك عن بعض المسمَّياتِ .

---

(١) المثل السائر ١ / ١١٠ بتصرف .

وهاهنا دقيقةٌ ،وهى أن دلالة اللفظ على المعنى فى الموضوع الأول قد خَلَتْ عن كونها حقيقةً ومجازا ، لأن الحقيقة استعمالُ اللفظِ فى موضوعه الأصلى ، فلا تـكونُ الحقيقةُ حقيقةً إلا إذا كانت مسبوقةً بالوضع الأول ، والمجازُ هو المستَعْمَلُ فى غير موضوعه الأصلى ، فيـكون هو أيضا مسبوقاً بالوضع الأول ، فثبت أن شَرْطَ كَوْنِ اللفظ حقيقةً أو مجازا حُصولُ الوَضْعِ الاول ، فالوضع الأول وجب ألاَّ يكون حقيقةً ولا مجازا .

وهذا الـكلامُ على ظاهره يَقْدَحُ فى قولنا المجاز فرع الحقيقة ، ومتى وُجِدَ الأَصْلُ فالمجازُ لا يكون مجازا إلا والحقيقةُ موجودةٌ ، لأن المجاز لاَ يَسْتَدْعِى إلا مُجَرَّدَ كَوْنِهِ موضوعا قَبْلَ ذلك لمعنى آخر ، فهو يتوقف على ذلك فقط لا على الحقيقةِ ، لأن الوَضْعَ الاوَّلَ ليس بحقيقةٍ .

وجوابُه أَنَّا لا نَدَّعِى أن المجازَ يتوقَّفُ على الحقيقة ، بل مُتَوَقِّفٌ على أنه موضوع فى الأصل لمعنى آخر ، متى استعمل اللفظ فى ذلك الموضوع كان حقيقةً .

— ٤٢ —

قال المصنف : فأما الفرق بين الفصاحة والبلاغة فقد أكثر الناس فيه ، وخُلاصَةُ ما ذكروه أن الفصاحة هى الظهور ، يقال أَفْصَحَ يُفْصِحُ إذا ظَهَرَ ، ثم يقفون عند هذا ولا يكشفون عن السر فيه[1] .

أقول : قد وقفت لأبى محمد بن الخَشَّاب على رسالة فى الفرق بين الفصاحة والبلاغة أتى فيها بنوادر شريفة . وقد ذكر أبو هلال العسكرى فى كتاب

---

(١) المثل السائر ١/١١٢ .

الصناعتين كلاما جيدا فى هذا المعنى [1] . وقد ذكرنا نحن فى كتاب « العبقرىّ الحسان » أقوالا كثيرة فى هذا الباب ، وماأظن أن أحدا ممن يَتَصَدَّى لـكلام فى هذا الفن إلا وقد قال قولا بالغا فى هذه المسألة ، فما أَعْلَمُ كيفَ يدَّعى هذا الرجلُ على الناس أنهم يقتصرون فى هذا البحث بتبينك اللفظتين لا غير .

---

(١) قال أبو هلال العسكرى : البلاغة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، وبلغتها غيرى ، ومبلغ الشىء منتهاه ، والمبالغة فى الشىء الانتهاء إلى غايته . فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه ، وهى البلاغ أيضا . ويقال للدنيا بلاغ لأنها تؤدى إلى الآخرة . والبلاغ أيضاً التبليغ فى قول الله عز وجل : « هذا بلاغ للناس » أى تبليغ . ويقال بلغ الرجل بلاغة إذا صار بليغا ، كما يقال نبل نبالة إذا صار نبيلا . ويقال : أبلغت فى الـكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه .

والبلاغة من صفة الـكلام لامن صفة المتـكلم ، وتسمية المتـكلم بأنه بليغ توسع ، والحقيقة أن كلامه بليغ ، كما تقول فلان رجل محكم والحقيقة أن أفعاله محكمة ، إلا أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بأنه بليغ كالحقيقة ، كما أنها جعلت تسمية المزادة راوية كالحقيقة ، وكان الراوية حامل المزادة وهو البعير ونحوه ، ولذا سمى حامل الشعر راوية .

فأما الفصاحة فقد قال قوم إنها من قولهم أفصح فلان عما فى نفسه إذا أظهره ، وأفصح الصبح إذا أضاء ، وأفصح اللبن إذا انجلت رغوته فظهر . وأفصح الأعجمى إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين .

وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما ، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له .

وقال بعض علمائنا : الفصاحة تمام آلة البيان ، فلا يسمى الألثغ والتمتام فصيحين ، لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف ، وعلى هذا تـكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين ، لأن الفصاحة تمام آلة البيان ، فهى مقصورة على اللفظ ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة إنما هى إنهاء المعنى الى القلب ، فـكأنها مقصورة على المعنى .

ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ والبلاغة تتناول المعنى أن الببغاء يسمى فصيحا ولا يسمى بليغا ؛ إذ هو يقيم الحروف وليس له قصد الى المعنى الذى يؤديه . ويجوز مع هذا أن يسمى الـكلام الواحد فصيحا بليغا اذا كان واضح المعنى سهل اللفظ جيد السبك غير مستـكره فج ولا متكلف وخم ، ولا يمنعه من أحد الاسمين شىء لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف

وإذا كان الـكلام يجمع نعوت الجودة ولم يكن فيه فخامة وفضل جزالة سمى بليغا ولم يسم فصيحا .

(ملخص من الصناعتين ٧ — ١٠)

— ٤٣ —

قال المصنف : ولا يجوز أن تُفَسَّر الفصاحة بهذا لوجهين : أحدهما أن اللفظ قد يكون ظاهر المعنى عند زيد لا عند عمرو ، فيجب أن يكون فصيحا غَيْرَ فصيح ، وهذا مُحالٌ ، بل الفصيح يجب أن يكون فصيحا مُطْلَقاً .

والثانى أن اللفظ القبيح الذى يَنْبُو عنه السمعُ ولكنه ظاهرُ المعنى يجبُ أن يكون فصيحا ، وهذا محالٌ ، لأن الفصاحةَ وَصْفُ حُسْنٍ ، فلا يجوز أن يكون اللفظ قبيحا(١) .

أقول إن أرباب علمِ البيانِ لم يقتصروا فى حد الفصاحة على أنها ظهورُ المعنى من اللفظ فقط ، بل قالو فى حَدِّها وحقيقتها ما يعرفه مَن تمارسَ كُتُبَهُمْ ، ولو قالوا ذلك لم يكن ما أوْرَدَه عليهم قادحاً فى كلامهم .

أما الوجهُ الأول فإنه ليس من شرط الفصيح أن يكون ظاهرا مكشوف المعنى لكل سامع ، فإن الزَّنْجَ والرُّوم لايفهمان المرادَ بالقرآن ، ولاَ يقْدَحُ ذلك فى كونه فصيحا ، والفصاحةُ أمْرٌ نسبىٌّ لأنها صِفَةُ اللفظ ، واللغاتُ والألفاظَ تختلف باختلاف الأمم قُرونِها وبِلادِها .

وأما الوجه الثانى فلأن القبيحَ الظاهرَ المعنَى فصيحٌ من حيث ظهورُ معناه وإن كان قبيحا من وجهٍ آخر ، ونظيرُ ذلك الكلام الفصيح يتَضَمَّنُ شَتْمَ الأنبياء والثناء على إبليسَ والشياطين أو غير ذلك من الوجوه التى يَقْبُحُ

---

(١) ذكر ابن الأثير ثلاثة اعتراضات ، لخص ابن أبى الحديد ثانيها وثالثها ، ولم يذكر أولها وهو : أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحا ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحا المثل السائر ١ / ١٩٣ .

لأجلها ، فانه حَسَنٌ من وَجْهٍ وقبيحٌ من وجه ، وليس يَلْزَمُ من قبْحِ الشيء من جهةٍ ألا يكون حَسَناً من جهة أخرى ، كما لا يلزم من كَوْن سماع صَوْتِ العُود حراما ألا يكون لذيذا .

— ٤٤ —

قال المصنف : والفصاحةُ مختصةٌ بالألفاظ دون المعانى ، لوجوه منْها أن الفصيح هو المألوف الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لحُسْنِهِ ، وحُسْنُهُ يُدْرَكُ بالسَّمع ، لأنه أمرٌ عائدٌ إلى تركيب حُروفه وخِفَّتهما وتبَاعُدِ مخارِجها ، والذى يُدْرَكُ بالسمع يكونُ صوتاً يأتلف من مخارج الحروف ، وكل ما ليس بمسموع لا يكون فصيحا(١) .

أقول هذا الكلام يحتمل أمرين : أحدهما أن يَجْعَلَ حدَّ الفصاحة هى الألفاظُ المألوفةُ الاستعمالِ ، وإنما كانت مألوفة الاستعمال لخفتها وسلاستها . والآخر ألاَّ يَجْعَلَ ذلك حَدًّا للفصاحة ، بل مراده تعليل اختصاص اللفظ بوصف الفصاحة ، وكون المعانى لايجوز أن تُوصَفَ بالفصاحة .

فإن أرادَ الأَوَّلَ لم نُضايِقْ على ذلك ، لأن لكل واحد أن يتكلم بما شاء ، ويقول عَنَيْتُ به كذا وكذا . وإن أراد الثانى وهو الظاهر من كلامه قيل له إن كان كَثْرَةُ الاستعمال وسلاسةَ اللفظ تُوجِبُ أن يُسَمَّى اللفظُ فصيحاً فليس

(١) المثل السائر ١ / ١١٥ وليست به هذه الجملة (وكل ما ليس بمسموع لا يكون فصيحا) بل ملخص قوله : إن الكلام الفصيح هو الظاهر البين ، وأعنى بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة ، لأنها مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر ، وإنما كانت مألوفة الاستعمال لمكان حسنها ، لأن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها ، فاختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه ، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها لظهورها وبيانها ، فالفصيح إذا من الألفاظ هو الحسن .

ذلك بمانعٍ من أن تُوجَدَ دلالة أخرى على تَسْمِيَةِ المعنى فصيحاً ، فليس ذلك بمانعٍ ، لأن دلالتك على ماتدَّعيه لاتُوجِبُ انتفاءَ الأدِلَّةِ على إطلاقِ هذه اللفظة على المعنى ، فغاية ما فى الباب أنك استَدْلَلْتَ على أن اللفظ يُطْلَقُ عليه الوصفُ بالفصاحة ، فلِمَ قُلْتَ إن الوَصْفَ بالفصاحة لا يُطْلَقُ على المعانى ؟

— ٤٥ —

قال المصنف : وأيضا فإن لفظَتَى المُزْنَةِ والدِّيمةِ كلفظة البُعاقِ ، فكلٌّ واحدٍ من هذه الألفاظ يَدُلُّ على معنًى واحدٍ ، ولو كانت الفصاحةُ ترجع إلى المعانى لما اختلفَتْ هذه الألفاظُ ، ولا كان فيها ما يُستَحْسَنُ استعمالُهُ ، وفيها ما يُستَقْبَحُ ، لأنها فى الدِّلالةِ على المعنى سواء . لكنْ لا رَيْبَ فى حُسْنِ استعمال اللفظتين الأولَيَيْنِ ، وأما لفظة البُعَاق فقبيحةٌ منكرة[1] .

أقول إن هذا الرجلَ يَتَوَهَّم أن مَنْ قال إن المعانى قد تُوصَفُ بالفصاحة فقد أراد المعانى المفردة ، وهذا غلَطٌ ، فإن أحدا لم يَقُلْ ذلك .

و إنما قالوا إن الكلامَ المرَكَّبَ الدَّالَّ على مَعْنًى قد يُسَمَّى فصيحا أيضا ، وقد يقولون لمعنيين أحدهما أكثرُ بيانا وأَوضَحُ عند السامعين : هذا المعنى أفصح من هذا ، بل قد يقال له بليغٌ ، والفصاحة للألفاظ ، فوقع بينهم النِّزاعُ فى ذلك ، لا فى اللفظة المفردةِ الدالَّةِ على المسَمَّى المفرد .

— ٤٦ —

قال المصنف : وأيضا فإن الفصيحَ على وزن فَعِيل بمعنى فاعل ، نحو كريم

---

(١) صفحة ١١٥

وشريف ولطيف ، والفاعل للإبانة عن المعنى هو اللفظ لا غير ، وكانت الفصاحة مختصةً به لا غير[1] .

أقول إن هذا الموضع من المواضع التى اشتبهت على هذا الرجل ، وذلك أن أفعالَ الطبائعِ نحو فصيح وظريف وشريف وكريم إنما تُعطِى الاتّصافَ بتلك الصفّةِ فقط ، ولاتُعطِى مَعْنَى الفاعِليَّةِ أصْلاً ، ولاتَدلُّ على المؤثر . ألا ترَى أن قولنا كريم ولطيف لا يدل على أنه فعَلَ الكَرَمَ واللُّطْفَ ، وإنما يدل على أنه ذو لطف وكرم فقط ، مع قطْعِ النظرِ عن الفاعل لهما مَنْ هُوَ .

فالفصيح معناه ذو الفصاحة ، لا فاعل الفصاحة ، كالجميل والصّبيح معناهما ذو الجمال والصّباحة لافاعلهما ، وهذ الرجلُ توَهَّمَ أن فَصيحاً فاعلُ الفصاحة ، ثم بَنَى الدليلَ على هذا وقال إن فاعلَ الإبانهِ المعنى والمكيِّفَ له هو اللفظ ، فكان الفصيحُ هو اللفظ ، وهذا من الغَلَطِ على ماتراه .

وعلى أنه لو كان ما توَهَّمَهُ صحيحا لكان لخصمه أن يقول : المعنى الواضحُ هو الذى فعَلَ الفهْمَ والإدراكَ فى نَفْسِ السامع ، وأَوضَحه له فانكشف له فحواه ومغزاه ، فهلاَّ سُمِّيتَ المعنى فصيحا بهذا الاعتبار ؟

وإن النزاع فى هذه المسألة لَفظِيٌّ مَحْضٌ . والذى قاله المحققون أنا وجدنا الاصطلاح واللغة يَشْهدانِ بأن الفصاحةَ للألفاظِ والبلاغةَ للمعانى ، فإنهم يقولون : هذا معنًى دقيقٌ ، وهذا معنًى غامضٌ ، ولهذا يقولون فى الحيوان غير الناطق كالببَّغاء هو فصيح ، لإقامته الحروف ولا يسمونه بليغا ، إذ ليس له

---

(١) المثل السائر ١/١١٦

قَصْدٌ إلى المعنى ، وإذا كان أَهْلُ اللغةِ والاستعمالِ قد اصطلحوا على ذلك واتفقوا عليه وَجَبَ اتباعُهُمْ لأن البحث لفظى .

— ٤٧ —

قال المصنف : واعلم أن البيانَ علمٌ عقلى يُدْرَكُ بالذَّوْق والعَقْلِ حُسْنُهُ من قُبْحِهِ ، وليس كعلم النحو ، فإنه تَقْليدُ العُرْفِ ، والذى تَكَلَّفه النَّحاةُ من التعللات واهٍ لا يثبت على مَحَكِّ النظر ، لأنهم إنما سمعوا من واضح اللغة رَفْعَ الفاعل ونَصْبَ المفعول من غير دليلٍ أبداه لهم،فاستخرجوا لذلك أَدِلَّةً وعِلَلاً ، وإلا فمن أين علم هؤلاء أن الحكمة التى دَعَتْ الواضعَ إلى رَفْعِ الفاعل ونَصْب المفعول مِن غير دليل أبدا هى التى ذكروها[1] .

أقول : إن كان هذا الرجل ممن يَنْفِى القياسَ فى الشَّرْعيات كَلَّمناه كلاماً أُصولياً كما تَكَلَّمَ الشِّيعَةُ والنَّظَّامُ[2] وأَهْلُ الظَّاهِرِ[3] وَغيرُهُمْ مِمَّنْ نَفَى القياسَ فى الفقه ، وإن كان يَعْتَرِفُ بالقياس فى الشرعيات فالقياسُ فى الشرعيات كقياس فى النحويات ، لأنَّا علمنا أن الحكمة التى دَعَتْ الواضعَ إلى رفع الفاعل ونصب المفعول هى الوجوهُ التى يَذْكُرُها النُّحاة ، لكونها

---

(١) بتصرف من ١/١١٩ .

(٢) النظام هو إبراهيم بن سيار بن هانىء البصرى ، انفرد فى الاعتزال بمذهب خاص ، وكان أستاذ الجاحظ ، وكان متكلما عالما أديبا له نثر جيد وشعر رقيق ، وقد بنى مذهبه الكلامى على الشك والتجربة . توفى سنة ٢٢١ هـ .

(٣) أهل الظاهر هم الذين ينكرون الرأى والقياس ، أسس المذهب داود الظاهرى الأصفهانى الأصل البغدادى الدار ، وعماد مذهبه إنكار القياس ، والاعتماد على أن فى الكتاب والسنة ما يفى بمعرفة الواجبات والمحرمات ، والجرى على تقديم ظواهر الآيات والأحاديث على التعليل العقلى للأحكام .

مات ببغداد سنة ٢٧٠هـ ونشر مذهبه بعده ابنه محمد المتوفى سنة ٢٧٩ .

وقد كثر أتباع المذهب بالعراق وفارس والأندلس ، ثم انقرضوا بعد المائة الخامسة .

مناسبةً ، والحكم ثابت على وَفقِها ، نحو قولهم الفاعل للفعل الواحد لا يكون إلا واحدا ، والمفعولات قد تكثر وتتعدد ، والفعلُ واحدٌ ويتعدَّى مع ذلك إلى أشياء ، كالمفعولات فى المعنى نحو الحال والظرف والمصدر ، فكان الفاعل أخفَّ لقِلَّتِه ، فأعطِيَ الرَّفْعَ وهو أثقلُ الحركات تَمْدِيلا بين الثقيل والخفيف. ونحو قولهم لمَّا كان الفعلُ والفاعلُ جملةً مُفيدةً كالمبتدأ والخبر أُعْطِيَ الفاعلُ إعرابَ المبتدأ وهو الرفع للمشابهة بينهما من الجهة المذكورة ، وغير ذلك من الوجوه التى قد ذكرناها فى كتاب (العبقرى الحسان) وذكرها غيرنا ، فصار ذلك كتعْلِيلِ سُقوط قَضاءِ الصلاة عن الحائضِ بالمشقة ، فإنه مناسبٌ ، وقد ثَبَتَ الحكمُ على وَفْقِه فى سقوط قضاء الركعتين المنقطعتين من صلاة الظهر فى السَّفَرِ ، فهذا تعليلٌ متفقٌ بين القايسين على صحته . ولم يكن لقائل أن يقول من أين علمتم أن الحكمة التى دعت إلى إسقاط قضاء الصلاة عن الحائضِ هى المشقةُ ، لأن الشارع لم يذكُرْ ذلك ، وإنما حَكَمَ بسقوط القضاء فقط ولم يذكر العِلَّة .

— ٤٨ —

قال المصنف : فأما نثر المنظوم فينبغى أن يكون كذا وكذا ، ثم ذكر له شروطا ،وضرب من كلامه أمثلة أكثرها جيِّدٌ ، وفيها ماليس بجيد مثل قوله : « فسِرنَا فى غَمامةٍ من الكتائِبِ ، تظلها غَمامةٌ من الطيور الأشائِبِ ، فهذه يَضُمُّها بحرٌ من حَديدٍ ، وهذه يضمها بَرٌّ من صَعيدٍ »[(1)] وذلك لأن الصعيد وجه الأرض ، والطيور التى تظل الجيش إنما يضمها بحر من الجو والهواء لامن الأرض . ومثل قوله فى ذكر الصَّليب : « ولم يعلموا أن الله كَتَبَ عليه الهَوانَ

---

(١) بتصرف واختصار ١٤١/١ وأصلحنا النص من المثل السائر .

عقَبِ تلك الكرامة، وأنه ذو شُعَبٍ أَرْبَع، والتربيعُ نَحْسٌ فى عِلْمِ النِّجامة[١] »
فإن لفظة النجامة لفظة رديئة مستغفلة ، على أنا لا نعْرِفُ صحتها أو جوازَها ، ولا سمعناها اسماً للتنجيم ولا مصدرا .

ومثل قوله: « قد عَدَّ الخادم احتمالَ تثقيله من جُمْلةِ الايادِى التى أَثْقَلَتْهُ وأراد أن يَجْرِى معها بَسوابِقِ شُكْرِهِ فأَعجَلَتْهُ وما أَمْهَلَتْهُ ، وهو الآن مُرْتَهَنٌ منها بَيْنَ قديمٍ وَجدِيدٍ ، وأصبح كَخراشٍ إذْ تكاثرت الظِّباء عليه فلا يَدْرِى لِكَثْرتها ما يَصِيد »[٢] فإن تشبيه نفسه بَخراش قبيحٌ جدا ، لأنه إن كان لا يعلم أن خَراشا فى هذا البيت اسم كلب فهو معذور ، حيث لم يَعْرِفْ مُرادَ الشاعر ، وإن كان يَدْرِى فقد شَبَّهَ نفسه تشبيها قبيحا . أليس هو الذى استقبح فى هذا الكتاب قول الرِّضَوِىِّ المُوسوِىِّ[٣] :

يَعِزُّ علىّ أن أراك وقد خَلَتْ ... من جانِبَيْكَ مَقاعِدُ العُوَّادِ

لأجل لفظة مقاعد ؟

وقول أبى الطيب المتنبي :

أذاقَ الغوانِىَ حُسْنُهُ ما أذَقْنَنِى ... وعَفَّ فجازاهُن عَنِّى على الصَّرَمْ[٤]

---

(١) ١٤٥/١
(٢) ١٤٨/١
(٣) هو الشريف الرضى أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى ينتهى نسبه إلى الحسين ابن على ولد ببغداد سنة ٣٥٩ وكان من أكابر الشعراء .
(٤) صححنا البيت من ديوان المتنبى ، وهو من قصيدته فى مدح الحسين بن إسحاق التنوخى التى مطلعها :
ملامى النوى فى ظلمها غاية الظلم ... لعل بها مثل الذى بى من السقم
الديوان ٣٢٠/٢
وقد استقبح ابن الأثير بيت المتنبى وقال : وإن الصرم فى اللغة القطع ، فغيرتها العامة ، =

لأجل لفظة الصرم .

وقول أبى تمام :

أعطيتنى دية القتيل وليس لى عَقْلٌ ولا حَقٌّ عليك قديمُ[(١)]

لأجل قوله ليس لى عقل .

ومثل قوله[(٢)] فى صفة فرس : وخَلْفَها جَنِيبٌ من الخيل يُقْبِلُ بِجِذْع ويُدْبِرُ بصَخْرة ، وينظر منَ عيْنٍ جَحْظة ، وَيَسْمَعُ بأذُنٍ حَشَرة »[(٣)] فإنا ماسمعنا إلا عينا جاحظة ولم نسمع جَحْظة ، ولو قال من عين حَذِرة لاستغنى عن جحظة التى لم تستعمل .

وقد كان زاد فى القرائن قرينة ، وأتى بلفظة امرىء القيس فى قوله :

وَعَيْنٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ شُقَّتْ مآقيهما من أُخُرْ .[(٤)]

والعين الحدرة هى المكتنزة الصُّلبة .

وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره فأبدلوا السين صادا ، ومن أجل ذلك استكراه استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها ، لكن المكروه منها ما يستعمل على صيغة الاسمية ، كما جاءت فى هذا البيت . وأما اذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا صرمه وتصرم فإنها لا تكون كريهة ، لأن استعمال العامة لا يدخل فى ذلك .
(المثل السائر ١/٢٥٥) .

(١) من قصيدته فى مدح محمد بن الهيثم بن شبانة التى مطلعها :

أسقى طلولهم أجش هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

الديوان ٣/٢٩٢ .

(٢) يريد ابن الأثير .

(٣) من كتاب له ١ / ١٥٤ .

(٤) صوبنا البيت من لسان العرب مادة أخر . قاله امرؤ القيس فى وصف فرس حجر — أنثى — . عين حدرة : مكتنزة صلبة . بدرة : تبدر بالنظر ، ويقال هى التامة كالبدر. شقت من أخر: مفتوحة كأنها شقت من مؤخرها .

ومثل قوله إن إنسانا كلفه أن يُرَصِّع قوله «إن الملائـكة لا تَدْخُلُ بيتا فيه صورة ولا تِمثالٌ » فى فصل من الـكتابة فقال « قد أصبح الخادم وليس بقلبه سوى الولاءِ والإيمانِ ، فهذا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فى طاعة السِّرِّ ، وهذا فى طاعة الإعلان ، وما عداهما فإن دُخولَه إلى قلبه من الأشياء المحظورة ، والملائـكةُ لا تَدْخُلُ بيتا فيه تمثال ولا صُورة »(١) .

فإن ترصيع الخبر فى هذا المَقْصِدِ بعيدٌ جدا ، لأن الولاء والإيمان لَيْسا بصورة ولا تمثال . ثم إن ما عداهما أمرٌ يَعُمُّ ويتسع جدا إلى مالا نهاية له ، وقد يكون مُضَادًّا لهما كالـكفر والنفاق ، ولاَ يَحْسُنُ أن يقال الـكُفر ونِيَّةُ الخروج على الإمام لا يدخلان فى قلب ، لأن الملائـكة لا تدخل بيتا فيه صورةٌ ولا تمثالٌ ، ولا هذا مناسبُ ذاك ، ولا قريبٌ منه ، وقد سألنى بعض الأصدقاء هل يمكنُ استعمالُ هذا الخبر فى الـكتابة وإخراجه فى مَعْرِضٍ آخر ، ألطفَ من هذا . فقلت : قد يمكن ذلك بأن يكتب إلى صديق أو حبيب : قد تَمَثَّلَتْ صورتُك فى سَوادِ العينِ وسُوَيْدَاء الجَنَانِ ، وملأَت أقطارهما ، فلم يَبْقَ لغيرها فيهما مكان ، فإذا صليت الظهر لم أعلم أركعتان هى أم ثمان ؟ وقد مَنَعَتْ صُورتك القلبيَّةُ مَحَلَّها من اعتقاد الهدى ، وفرّغته لاعتقاد الضلال ، لأنهما من آثار الملك والشيطان ، والملائـكة لا تدخـل بيتا فيه صورة ولا تمثال » .

واعلم أن هذا الباب وهو حَلّ المنظوم هو عين هذا الـكتاب وخلاصته ووجه جميعه ، وطراز حُلَّتِهِ ، وكأنه لم يُصَنِّفْهُ إلا لأجله ، وليظهر صناعته فيه .

---

(١) المثل السائر ١/١٩٣ .

على أن كتابته كلها إذا تأمَّلَها العارفُ بهذا الفن وَجَدَها من هذا الباب، لأنها إماَّ محلُولٌ منظومٍ ، أوترصيعُ آيةٍ أوخبرٍ أومثلٍ أو واقعةٍ ، وهذه إحدى طرائقِ الكتاب عندى ، وإليها أذهب ، ولها أستعمل .

وقد كنت شرَعْتُ فى حَلِّ سَيْفِيَّاتِ أبى الطيب المتنبى[1] لشهرتها ، وغلبتها على ألسنة الناس ، وأن أجعل ذلك كتابا مُفْرداً أتقرب به أيضاً إلى الخزانة الشريفة ـ عمرها الله تعالى ـ فخرج بعضه ، وَصَدفَ عن إتمامه عوائقُ الوقتِ أو شواغله .

وأنا أوردها هنا بعض ذلك، ليكون معارِضاً لما جاء به هذا الرجل ، ولكيلا يكون كتابُنا هذا مقصوراً على المناقَضاتِ النظرية والمؤاخذات الجَدليَّةِ فى علم الكتابة فقط ، بل يكون حَاوِياً لذلك ، والجزء من الكتابة نفسها

فصل فى التهنئة بعيد :

«لازالت المواسم تَغْشَاك وأَغصانُها وَرِيقةٌ ، وحدائقها أَنيقةٌ ، والأعيادُ تلقاك، وأنت عيدُها على الحقيقة ، ولا بَرِحْتَ تهتَصِرُ من الشَّبابِ لَدْناً رطيباً، وَتَنْضُو من الأعيادسَمَلاً وتَلْبَسُ قَشيباً، فهذا اليومُ الشريف فى الأيام مِثْلُكَ فى الأنام ، لكنه أَوْحَدُ عامٍ مَحْصُورٍ ، وأنت أوحد الأعوام والدهور،ولا أُحيلُ ذَلِكَ على مَحْضِ الجَدِّ الذى أَسْهَرَكَ ، وحاسِدُك رَاقدٌ ، وشانئك قاعد » .

هذا محلول قوله :

هنيئا لك العيد الذى أنت عيدُه ‏ ‏ ‏ وعيدٌ لمن سَمَّى وضَحَّى وَعَيَّدا
ولا زالت الأعياد لُبْسَك بعده ‏ ‏ ‏ تسلم مخروقا وتعطى مجددا

---

(١) سيفيات المتنبى هى قصائده فى مدح سيف الدولة بن حمدان أمير حلب والموصل .

فذا اليومُ فى الأيام مثلُك فى الورى　　كما كنتَ فيهم أوحدا كان أوحدا
هو الجَدُّ حتى تَفْضُلَ العَيْنُ أُخْتَها　　وحتى يكون اليومُ لليوم سَيِّدا[1]

وقد زدت عليه بأن جعلت توحيده بالاستحقاق لا بالجَدّ والإنفاق ، وفيه زيادةٌ أخرى وهى عمومُ توحيده وخصوصُ توحيد العيد فى أيام العام مفردة .

فصل فى لقاء عدو :

«فلو كشف لك عن قلوبنا لرأيت التشوق قد فعل فيها بُبرَحائه ، فِعلَ قَنَا الأَميرِ فى صُدور أعدائه ، فإنه جعلهم هَلْكَى يُطْعَنُون مَخلوجَةً وسُلْكى ، فالفضاء الرَّحْبُ لديهم أَحْرَجُ من التَّابوت ، ونَسْجُ داود عليهم أَوْهَنُ من بَيْتِ العنكبوت » .

هذا محلول قوله[2] :

نُوَدِّعُهم والبَيْنُ فينا كأنه　　قَنَا ابْنِ أبى الهَيجْاء فى قلب فَيْلَقِ
قواضٍ مواضٍ نَسْجُ داود عندها　　إذا أوقعت فيه كنسج الخدَرْنَقِ

وفيه أيضا حل قول امرىء القيس :

---

(١) من مدحه لسيف الدولة ، وتهنئته بالعيد .
الديوان ١/١٨٩ .

(٢) من قصيدة فى مدح سيف الدولة ، مطلعها :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى　　وللحب ما لم يبق منى وما بقى

الديوان ١/٤٦١ .
أبو الهيجاء : والد سيف الدولة . الفيلق : الكتيبة من الجيش . نسج داود : الدروع . الخدرنق : العنكبوت .

نطعنهم سُلْكَى ومَخْلوجةً   كَرَّكَ لأمَيْنِ على نَابِلِ[1]

فصل فى وصف منهزم

«أجْفَلَ إجفال النَعام ، وانْقَشَع إنقِشاعَ الغمام، يتوهَّمُ كلَّ حفيف يسمعه رَشْقَ نابلٍ ، ويرى الأرضَ فى عينيه كِفةَ حابلٍ . وقد كان أبى ألاَّ ينكُصَ له قدَم ، وعُقْبى يمينِ الجبانِ حِنْثٌ وَندم ، وإذا تزلزلت الأقدام لم تَردْ اليمين فى الإقْدام ، والحرب يُحسِّنُ الهزائم ، ويُغيِّرُ العزائم ، ويجعل أهون شيء مايقول اللوائم » .

هذا محلول قوله :

عُقبَى اليمين على عُقبى الوَغَى نَدَمُ   ماذا يَزيدك فى إقدامك القَسَمُ[2]

وقوله :

والعِيانُ الجليُّ يُحْدِثُ للظن   زَوالا وللمُرادِ انتقـــالا[3]

---

(١) من قصيدته التى مطلعها :

يا دار مية بالحـائل   فالسهب فالخبتين من عاقل

الديوان ١٥١ ولسان العرب مادة لأم

سلـكى : مستقيمة : مخلوجة : معوجة . كرك لأمين على نابل : مر الشاعر بنابل وصاحبه يناوله الريش فى سرعة فشبه به .

(٢) مطلع قصيدته فى مدح سيف الدولة حينما قيل فى مجلسه إن البطريق أقسم عند ملك الروم أنه سينتصر على سيف الدولة ، وسأله أن ينجده بالمحاربين ، ففعل ، فانهزم . (الديوان ٢ / ٢٩٤) .

(٣) صححنا البيت من الديوان . وهو من قصيدة فى مدح سيف الدولة لما نهض لينقذ ثغر الحدث من الروم ، ومطلعها :

ذى المعالى فليعلون من تعالى   هكـذا هكـذا وإلا فلا لا

(الديوان ٢/١٠٩) .

وقول بعض شعراء الحماسة :

ملأتَ عليه الأرضَ حتى كأنها   من الضِّيق فى عَيْنيه كِفَّةُ حابلِ(١)

وقول القائل :

إذا هبَّتْ النكْباء بينى وبينكم   فأهوَنُ شىء مايقولُ العَواذلُ

فصل فى الصفح عن الجرائم

« سَيْفُ الإحسان والإجمال أقْتَلُ من سَيْفِ القتل والاستئصال ، وطالما غلَّ يدا مُطْلِقِها ، واستَرقَّ رقبةً مُعتِقِها ، إلا أن اللئيم يُفْسده الإحسان ، ويصلحه الهوان ، كما يَنْفِرُ من الضَّيْم ذو الأنفِ الحَمِىّ ، ويَفِرُّ عنه فرار الطائر الوَحْشِىّ » :

هذا محلول قوله :

وما قتل الأحرارَ كالعفو عنهم   ومَنْ لك بالحُرِّ الذى يحفظ اليَدا ؟

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكتَهُ   وإن أنت أكرمتَ اللئيم تمرَّدا(٢)

---

(١) القائل هو الطرماح بن حكيم الطائى وهو من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم ، وكان صديقاً للكميت ، والبيت من أبيات له بديوان الحماسة .

الكفة : يجوز أن يريد بها الحفيرة التى ينصب فيها الحابل الحبالة ، أو يريد بها ناموس الصياد ، أو هى الحبالة نفسها ، لأنها تحبل كالطوق ، وهذا أقرب لأن الخليل فسر الكفة على ذلك ، وجازت إضافتها إلى الحابل كما تضاف الحبالة إليه .

الحابل : ناصب الحبالة (شرح المرزوقى ١ /٢٢٨) .

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة وتهنئته بالعيد ، مطلعها :

لكل امرىء من دهره ما تعودا   وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا

(الديوان ١/١٩١) .

وقال الرَّضِيُّ الموسَوِيُّ :

مامقامى على الهَوانِ وعندى ... مِقْوَلٌ صارمٌ وأَنْفٌ حَمِىٌّ

وإباءٌ مُحَلِّقٌ بى عن الضيم ... كما رَاغ طائرٌ وحشىٌّ(١)

وأدخلت أيضا فيه لفظة لبعض الخوارج قالها لقطرىّ بن الفجاءة(٢) ، والقصة مشهورة .

فصل فى ذكر المرسلة :

«وتوالت منهم رسائل جعلوها عليهم أَدْراعا،وقَصَدُوا بهما تَزْجِيَةً للوقت ودفاعا ، فظاهِرُها الإعظامُ لنا والإجلالُ ، وباطنها الإِرْجاء لهم والإِمْهال »

هذا محلول قوله :

دروعٌ لملَكْ الروم هَذِى الرسائِلُ ... يَرُدُّ بها عن نَفْسِه ويُشاغِلُ

هى الزَّرَدُ الضَّافى عليه ولفظها ... عليك ثناء سابغ وفضائل(٣)

فصل :

«باب المعمور كعبة الحَيا ، ومغناطيس الشِّفا ، فالملوك تقبِّلُ بساط ديوانه ، وتَقْصُرُ عن تقبيل كُمه وبَنانه »

هذا محلول قوله :

تقبل أفواه الملوك بساطَهُ ... ويَكْبُرُ عنها كُمُّه وبَراجِمُه(٤)

---

(١) ديوان الشريف الرضى ٥٤٦ وقد سبق التعريف به .

(٢) زعيم من زعماء الخوارج شاعر خطيب .

(٣) من قصيدته فى مدح سيف الدولة حينما جاء إليه رسول ملك الروم (الديوان ٩٠/٣) ورواية الديوان (يرد) بدلا من (يذب) التى فى الأصل .

(٤) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ... بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

فصل :

«إذا كان الهوى من القلب فى الشَّغافِ والصَّميم ، واللوم يَحُوم حول ذلك الحِمَى والحريم ، وكلما شاهد الحر فتى ثار،وكلما عاين النار استطار ، لاَ جَرمَ أنه يستحيل جوهره هباء ، ويَذْهَبُ زَبَدَه جُفاء ، وَيَذْبُتُ فى محله ذلك الهوى ، ويُلقِى عصاه ، ويستقر به النَّوَى » .

هذا محلول قوله :

عذل العَواذلِ حوْلَ قَلْبِ التَّائهِ وهوَى الأَحِبَّةِ منه فى سوْدائِه

يشــكو الملامُ إلى اللوائمِ حرَّه ويَصُدُّ حين يَلُمْنَ عن بُرَحائه(١)

فألقتْ عصاها واستقر بها النوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافر

فصل فى ذكر معقل :

« حمَاها فأَجْلَى، وبناها فأعلى ،ونيران المرّان تضطرم ، وأمواج الأرماح تلتطم ، وشَباَ الظُّبا يصطدم ، ولَظَى الوغى تحْتدم ، نقرَّتْ بعد انزعاجها ، وسلمت بعد ارْتتاجها ، وشفيت من أَلمها ، وبَرِئَتْ من لَمَمِها ، وأصبحَتْ متَقَلِّدةً بغمائم من أشلاء الفَوارسِ ، تَدْفَعُ عنهاعَيْنَ العائِنِ ونفَس النّافِس ، وليست كقلائد عرَّاف اليمامة وعرَّاف نجْد ، ولـكنها قِلادةٌ طرَفاها الشَّرَف وَواسطتها المَجْد » .

= البراجم : مفاصل الأصابع ، مفردها برجة .
(ديوان المتنبي ٢/٢٣٩) .
(١) الديوان ١/١

وقد حللت فى هذا قوله فى وصف قلعة الحدث :

بناها فأَعْلَى والقَنَا يَقرَعُ القَنا   ومَوْجُ المنايا حَوَلها مُتلاطِمُ

وكان بها مثــــــل الجنونِ فأصبحَتْ

ومن جُثَثِ القَتْلَى عليهــا تمائِمُ(١)

وأشرت فيه إلى قوله صلى الله عليه وسلم للحسن والحسين عليهما السلام :

أعيذكما من عَيْنِ العائِنِ ونَفْسِ النَّافس(٢) . و إلى قول عروة بن حزام :

ضمنت لعراف اليمامة حُكْمَهُ   وعرَّاف نجد إن هما شفيانى(٣)

— ٤٧ —

وقد نثر هذا المصنف هذين البيتين ، فقال : « بناها والأسنةُ فى بِنائها متخاصمة ، وأمواج المنايا فوق أيدى البانين متلاطمة ، فما أحلَّت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها بركْضِ الجياد ، وأصيبت بمثل الجنون ، فعُلِّقتْ عليها تمائمُ من الرءوس والأجساد ، ولا شك أن الحرب تُعَرِّدُ عمَّنْ عزَّ جانبه ، وتقول ألاَ هكذا فليكْسبِ المجدَ كاسبه »(٤) .

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة لما بنى ثغر الحدث ، ومطلعها :
على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكرام المكارم
(الديوان ٢/٢٦٩) .

(٢) النفس : من معانيها العين والحسد ، يقال نفسه بنفسه إذا أصابه بعين (القاموس المحيط مادة نفس) .

(٣) عروة بن حزام بن مهاصر شاعر غزل عذرى قصر حبه على عفراء بنت عمه ، وحالت عوائق دون زواجه بها ، فمرض حتى قضى نحبه سنة ٢٨ أو ٣٠ .
ورواية البيت (جعلت) بدلا من (ضمنت) .
الأغانى ٢٠/١٥٣ وفوات الوفيات لابن شاكر ٢/٣٥ وتزيين الأسواق لداود الأنطاكى ٧٥ .

(٤) المثل السائر ١/١٣٥

ونثرها على أسلوب آخر فقال : « بناها ودُونَ ذلك البقاء شَوْكُ الأَسَل ، وطُوفان المنايا الذى لا يقال ساَوِى منه إلى جبَل ، ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هَمَدَتْ رءوسٌ عن أعناق ، وكأنما أصيبَتْ بجنون فَعُلِّقَتْ القتلى عليها مكان التمائم ، أوشِينَتْ بعَطَلٍ فعُلِّقَتْ مَكاَن الأطْواق [١] » .

ومَنْ عنده أدنى ذَوْقٍ فى فن الكتابة يَعْرِفُ الفَرْقَ بين كلامنا وهذا الكلام .

وقد نثر هذا الكاتب البيت الثانى خاصة فجاء أصلح مما قاله فى نثر البيتين وهو : « سَرَى إلى حِصْنِ كذا مستعيدا منه سَبِيَّةً نزعها العدوُّ اختلاسا ، وأخَذَها مخادعةً لا افتراسا ، فأنزلها حتى اسْتَقَادها ، ولا نزلها حتى استعادها ، وكأنما كان بها جُنون فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلى تمائم » [٢] .

وهذا وإن كان حسنا لكن الزيادات العجيبة والتسميطات والأسجاع التى أتينا بها نحن تزرى على ما أتى به هذا الكاتب ، وتتجاوزه أضعافا مضاعفة .

فصل :

« أنا أستعين بك عليك ، فالخصومة فيك ومنك و إليك ، وأستميحك عَدْلَ قَضائك الذى عَمَّ الخلْقَ وعَدانى ، وشَمِلَ الناسَ وتَخَطَّانى . وأُعيذُ مرآةَ فِكْرِكَ وهو الجَوْهَرُ الشَّريف، والشَّفاف اللطيفُ، ألا يظهر فيها تلبيس

---

(١) المثل السائر ١/١٣٦

(٢) المثل السائر ١/١٣٥ ومنه أصلحنا النص .

الحاسدِ ،وبُهتانُ الكاشح المعانِدِ ،وأخلاقكِ التى تَظْلَمُ إذا قِيسَتْ فى اللَّطافة بالسُّلافة ،وفى الصفاء بالصَّهْباء ،أن تحمل قَذَى الغِشِّ الصُّراح ،وهى ألطفُ من أن تُمزَجَ بالماء القَراح »

هذا محلول قوله :

يا أعـــدل الناس إلا فى معـــاملتى

فيـــك الخِصام وأنت الخصْمُ والحكم[1]

وقول غيره :

أخـــــلاقك الغرُّ الصَّفايا ما لَهَا

حَمَلَتْ قَذَى الواشـــين وهى سُلافُ ؟

واللَّبْسُ فى مكنون رأيك ماله   يَخْفَى وأنت الجوهر الشَّفَّافُ ؟

فصل في صفة جيش :

قد تَسَرْبَلَ قميصا من الزَّرَدِ الْمحكَمِ إلا أنه مُحمَّلٌ بالرِّماح ، وتَرَدَّى بُرْداً من النَّقْع المظلم إلا أنه مُعْلَمٌ بوَميض الصِّفاح ، تَسْحَبُ جيادُه الحديد فتخالها تمشى بغير قوائم ، وتستغنى بعده عن المخالب بعد أن خُلِقَتْ رِماحُه والصَّوارم ، ولا يعرف فى بريقه البرامك فالثياب مثلُها والعمائم ، وبطن حديده ماء ، وهو يخدع خَدْعَ السراب ، تَحْسَبُ خَيَّالَتُه ساكنةً وهى تمر مَرَّ السحاب » .

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :
واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمى وحالى عنده سقم
(الديوان ٢/٢٥٨) .

هذا محلول قوله :

وَمَلْمُومَةٌ زَرَدٌ ثوبهـــا ولكنه بالقنـــا مُخْمَلُ(١)

وقوله :

أتوك يجرون الحديد كأنما سَرَوْا بجياد مالهن قوائمُ

إذا بَرَقُوا لم تُعْرفِ البيضُ منهم ثيابُهُمُ من مثلها والعمائمُ

وقوله :

وما ضَرَّها خَلْقٌ بغير مخالب وقد خُلِقَتْ أسيافُهُ والقوائم(٢)

فصل :

« العادةُ طبيعةٌ غالبةٌ ،وسَجِيَّةٌ إلى فعل المعتاد جاذبة . وعادتك طَعْنُ الأَحداق،وضرب الأعناق ، وطِبالٌ ونبال يهويان ذاك، وأنت تُبْلِغُ النفوسَ هَواها ، والقلوب مُناها، فأَجْرِ متهما على أعْراقك ، ومعهود عوائدك وأخلاقك، فإن الملك لا تَثْبُتُ دعائمه ،حتى تُخَضَّبَ بالدَّمِ صَوَارِمُه » .

---

(١) من مدحة لسيف الدولة مطلعها :

أيقدح فى الخيمة العذل وتشمل من دهرها يشمل

(الديوان ٢/٦٢) .

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

(الديوان ٢/٢٧٢) .

هذا محلول قوله :

لـكل امرىء من دهــره ما تَعَوَّدا
وعاداتُ سَيْفِ الدولةِ الطعْنُ فى العِدا[1]

وقوله أيضا :

لايَسْلَمُ الشرف الرفيع من الأذى   حتى يُراقَ على جوانبه الدَّمُ[2]

وقول ابن هند :

سيوفك تَهْوَى أن تبيحَ لها العدا   فلا تحرمنها إن عادتك النَّدا

— ٤٨ —

فصل فى نثر قوله :

لا تَعْذَل المشــتاقَ فى أشــواقه
حتى يكون حَشاكَ فى أحشــائه[3]

نثره هذا المصنف فقال : « لا تَعْذُل المحبَّ فيما يهواه ، حتى تَطوِيَ القلبَ على ماطواه »[4] .

---

(١) مطلع قصيدته فى مدح سيف الدولة .
(الديوان ١/١٨٥) .
(٢) من قصيدته التى مطلعها :
لهوى النفوس سريرة لا تعـلم   عرضا نظـرت وخلت أنى أسلم
الديوان ٢/٣٨٣
(٣) من قصيدته التى مطلعها :
القلب أعلم يا عذول بدائه   وأحق منـك بجفنه وبمائه
الديوان ١/٣
(٤) المثل السائر ١/١٣٣

ونثره أيضا على وجه آخر فقال : « إذا اختلفَت العينان فى النظر ، فالعَذْلُ ضَرْبٌ من الهَذَر »[(١)] :

وقد نثرناه نحن على وجوه منها : « لا تَعذُل المحب فى حبه ، حتى ينطق لسانُك عن قَلْبه » ، ومنها : « المتبُول يَعذل المتبُول ، والفارع مُغْرًى بالمشغول » . ومنها . « لو ذقتَ ما يذوق العاشق لتركت عَذْلَه وعرَفْتَ عُذْرَه ، ومن يَضَعْ يده فى الماء يَجِدْ بَرْده ويَعْرِفْ حَرَّه » ومنها : « إذا لم يتوارد القلبان على مَوْرِد واحد ، فالعاذل يَضْرِبُ فى حديد بارد » ومنها : « لو اتحدت الغرائز والأخلاق ، لعَذَرتْ المشتاقَ فى الأشواق ، ولكن النفس الواحدة لا تُدَبِّر تدبيرين ، كما لا يكون الاتفاق واحدا ولا الواحد اثنين » . ومنها : « لو كنتَ تود بقلبى ، وترانى بطَرْفى لعَذَرتنى فيما أُبْدِى ، ورحمتنى مما أُخْفِى » وفى هذا إشارة إلى قوله فى هذه القصيدة :

ما الخِلُّ إلا من أود بقلبه وأرى بطرف لا يرى بسوائه[(٢)]

فصل فى صفة السيوف :

« فنَهَدْنا إليهم وفى أيدينا النار الموقَدة فى الرءوس ، المعبودة قبل مِلة المجوس ، التى يفسدها الماء ، ولا يطفئها الهواء ، ولا تَحْرِقُ الأغماد ، ولا خمدت ليلة الميلاد . ترْمِى بالدم لا بالشَّرَر ، وتُوقَدُ بالناس لا بالحجر ، تحكم تارة بالتعظيم وتارة

---

(١) المثل السائر ١/١٣٣
(٢) الديوان ١/٤

بالتصغير ، وتجمع قوما جَمْعَ السَّلامة ، وقوماً جمع التكسير » .

هذا محلول قوله :

وفي أكفهم النار التى عُبِدَتْ   قبل المجوس إلى ذا اليوم تضطرم
هِنْدِيَّةٌ إن تُصَغِّرْ معشرا صَغُرُوا
بحَدِّها أو تعظِّمْ معشرا عَظُموا[١]

وقد زدت علية زيادات كثيرة ، ورمزت إلى الخبر الوارد فى أن نار فارس خمدت ليلة ميلاد نبينا صلى الله عليه وسلم ، وخرجتُ إلى قوله تعالى : « إنها ترْمِى بشَرَرٍ كالقَصْر »[٢] وقوله سبحانه « وَقُودها الناس والحجارة »[٣] ثم خرجت إلى نكتة نحوية وهى جمع السلامة وجمع التكسير .

فصل :

السيف بالضارب لا بمضاء المَضَارب ، والُحسَام فى يد الجبان كَهَام ، والكَهام فى يد الشجاع حُسام ، ولذلك قال عمرو لعمر : لا لَوْمَ علىَّ ولا حَيْف ، فإنى لم أنحلك السَّاعد ، وإنما نحلتك السيف » .

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم   ماذا يزيدك فى إقدامك القسم

الديوان ٢/٣٠٠

(٢) سورة المرسلات ٣٢

(٣) سورة التحريم ٦

هذا محلول قوله :

إن السيوف مع الذين قلوبُهم ‏ ‏ ‏ كقلوبهن إذا التقى الجمعان

تلقَى الحسامَ على جراءة حدّه ‏ ‏ ‏ مثلَ الجبان بكفِّ كل جبانِ(١)

فصل في العتاب

«العتاب نسيم الحياة ، والعَتَبْ سَموم الحياة ، فأنا أعاملك بالأول ، لأنه من شِيم الأحباب ، والود باق ما بقي العِتاب ، وأُجِلُّ مجدك الرفيع المباني عن المعاملة بالثاني » .

نظرت في هذا إلى قوله :

هــــذا عتابك إلا أنه مِقَةٌ ‏ ‏ ‏ قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلا أنه كَلِمُ(٢)

فصل في ذكر السبايا

فلم يعتصم منا إلا رباتُ الفِتاخ والوِشاح(٣) ، ومَنْ شيمها جر الذيول لا جر الرماح ، فإنهن طعن فيه بالعذْوِ بالمرّان ، وكان لهن أوجه شفيع إلينا ، وهو الشفيع العُرْيان ، فنحن بين لاهٍ ولاعب ، وأهلهن عليهن بين باك ونادب ، وهذه سجية الدنيا تَعْمُرُ البيتَ بخراب البَيْتِ ، وتُميت الحيَّ بحياة الميت » .

---

(١) من قصيدته في مدح سيف الدولة التي مطلعها :

الرأي قبل شجاعة الشجعان ‏ ‏ ‏ هو أول وهي المحل الثاني

الديوان ٢/٤٣٢

(٢) من قصيدته في عتاب سيف الدولة ، مطلعها :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ‏ ‏ ‏ ومن بجسمي وحالي عنده سقم

الديوان ٢/٢٦٦

(٣) الفتاخ : جمع فتخة وهي الخاتم أو الخلخال .

الوشاح : أديم عريض مرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها .

هذا محلول قوله :

فلم يبقَ إلا مَنْ حَماها من الظُّبَا لَمَى شَفَتَيْها والثُّدِىُّ النَّوَاهِدُ

تُبَكّى عليهن البطاريقُ فى الدُّجى وهن لدينا مُلْقَيَاتٌ كواسد

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد[١]

وقد رمزت فيه إلى قول القائل :

كتب القتل والقتال علينا وعلى المحْصَنات جرُّ الذيولِ[٢]

وقول آخر :

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

— ٤٩ —

فصل فى نثر قوله :

إن القتيلَ مُضَرَّجا بدموعه مِثْلُ القتيل مُضَرَّجا بدمائه[٣]

نثره المصنف فقال « القتيل بسيف العُيون ، كالقتيل بسيف المَنُون ،

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :
عواذل ذات الخال فى حواسد وإن ضجيع الخود منى لماجد
الديوان ١/١٨٣

(٢) قائله عمر بن أبى ربيعة — الأغانى ٨/١٢٣

(٣) ديوان المتنبى ١/٥ وقبله قوله :
لا تعذل المشتاق فى أشواقه حتى يكون حشاك فى أحشائه
فجعل جريان الدموع كجريان الدماء ، لأن العاشق مثل القتيل .

غير أن ذاك لا يُجَرَّدُ من غمده ، ولا يُقادُ صاحبه بعِمْدِه » ونثره على وجه آخر فقال : « دَمْعُ المحب ودم القتيل ، متفقان فى التشبيه والتمثيل ، ولا تَجِدُ بينهما بَوْنًا ،سوى أنهما يختلفان لونا »[١]

وقد نثرناه نحن على وجوه منها : القتيل المتَشَحِّط فى نجيعه ، كالعاشق المنخرط فى دموعه ، وكلا الماءين دمٌ ، إلا أن هذا سال على أصل الخلقه ،وهذا صعد من حرقة الفُرقة » .

ومنها « القتيل الذى قطعت شرايينُ نَجيعه ،أَرْوَحُ من القتيل الذى قطعت شرايينُ دموعه ، فذاك قد فارق الدنيا فأَمِنَ شرَّها وخيرها ، وهذا كلما نضجت جلوده بُدِّلَ جلوداً غيرها »

ومنها « الدمع دمٌ أحالَتْ لونه نار الهوى فابيضَّ ، وقطعَتْ سِلْكَهُ يَدُ النَّوَى فتبدد وارفَضَّ ، ولا فَرْقَ بينهما عند البَصَرِ والبصيرة ، إلا أن هذا يَسِيلُ من عُضْوٍ واحد ، وذاك من أعضاء كثيرة ».

ومنها « مصارع العشاق كمصارع الشجعان ، يتماثلان فى المَعْنَى وإن اختلفا فى العِيان ، وكلا القتيلين شهيدٌ ، فهذا نَزِيفٌ من العَينِ وذاك من الوَرِيد » .

فصل

فلله آراؤك التى نَكَسَتِ القوم عن صَهَوات الشَّواهق لا من صهوات

---

(١) المثل السائر ١/١٣٣

السوابق ، وطَعَنَتَ فُرْسانَهَا برماح الـكَيْدِ والخطِّ لا برماح سَمْهَرَ والخطِّ[١] ، فـكأنما كانت جبالها تشـكو عَطَلَ الأعناق ، فَنَظَمْتَ جِيادَكَ لها مكانَ القلائدِ ، وأدَرْتَها مكانَ الأطواق ، وخَضَبْتَ ذلك الصَّعيدَ بخضاب من الدماء لا من الـكَتَمِ[٢] والحِنَّاء ، وجعلت حمامه سُجودا فى غير محْراب ، وهُجوداً لا يَرْون حُـكْماً إلا حُـكْمَ العَذاب ، وكم هَدَّمت لهم من حِصنٍ بعد حصن ، فى مَشْهد بعد مشهد ، وأعَدْتَها أطلالا ، ولـكنها ليـت لَخوْلَةَ بُبْرقَةِ ثَهْمَدَ ، وَجعَلْتَ عِمارة تلك المعالم كرواجِـع الوشوم فى نواشر المعاصم ، وأذقت الرَّدى أهلها والجنادل ، وسُقْتَ مافوق المعاقل حتى كدت تسوق المعاقل » .

هذا محلول قوله :

تنـكسهم والسابقات جبالهـم   وتطعن فيهم والرماح المـكايد
وتضحى الحصون المشمخرات فى الذرى
وخيلك فى أعنـــــاقهن قلائد

مُخَضَّبة والقوم صرعى كأنها   وإن لم يكونوا ساجدين مساجد
وألحقنَ بالصَّفْصاف سابورَ فانْهوَى
وذَاقَ الرَّدَى أهلاها والجـــلامِدُ[٣]

---

(١) سمهر : رجل كان يقوم الرماح فنسبت إليه . الخط : مرفأ بالبحرين ، كانت ترد إليه رماح من الهند .

(٢) الـكتم : بالتحريك نبت يخلط بالوشم يختضب به .

(٣) الديوان ١ /١٨٢ وفى الديوان البيت الثالث مقدم على الأبيات .

يقول إنك تنزلهم من جبالهم منـكوسين أو من خيولهم التى كأنها الجبال . المشمخرات : المرتفعات . الصفصاف وسابور : حصنان منيعان للروم .

وأضفنا إليه من مواضع أُخَرَ ما كَمُلَ به المعنى ، وهو قول الشاعر ·

وأرضك أرضـــك إن تَأْتنا   تَنَمْ نومةً ليس فيهـا حُلُمْ

وزدنا عليه أن نفوسهم تعذب بعد الموت فيتألمون ، كما يتألم النائم بالأحلام المزعجة ، وقول طرفة بن العبد :

لخولة أطلالٌ بُبرقةِ ثهمَدِ(١)

وقول زهير :

ديار لها بالرقمتـــــين كأنها   رواجع وشم فى نواشر معصم(٢)

وقول البحترى :

وقد سُقْتَ ما فوق المعاقلِ منهم   فلم يبق إلا أن تسوق المعاقلا

وزدنا على لفظة أبى الطيب وهى (مخضبة) قول علىّ وقد قبض لحيته : « أما والله لتخضَّبَنَّ هذه بخضاب دَمٍ لا خِضابِ عِطْرٍ وعَنْبرٍ » فخرج من مجموع هذا ما وقَفْتَ عليه .

فصل

« عُذْرُ الخيمةِ واضح فى السقوط ، لأنها علتْ على مولانا فتاهَ بْت له

---

(١) من مطلع معلقته :

لخولة أطلال ببرقـــة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

(٢) من معلقته التى مطلعها .

أمن أوفى دمنة لم تــكلم   بحــومانة الدراج فالمتثلم

بالهُبوط ، وعَلِمَتْ عجزَها عن أن تَشْمَلَ من يَشْملُ الزَّمانَ ، وأن تعْلُوَ مَنْ يعلو على بَهْرامَ(١) وكِيوان(٢) ، فأَرْجاؤُها في السَّعةِ بحَيْثُ يَرْكُضُ في كلِّ قُطْرٍ منها جَحْفَلٌ ، ولكنها تَضِيقُ عن العالَمِ المجموع في الواحد الأَجْمَل ، وتَقْصُرُ عنه وتَطولُ على القَنَا الذُّبَّل ، وأظنها لما أشْرَقَتْ بأنوارِهِ ، وتاهت لَمَّا عُدَّتْ من جُملةِ دِياره ، لم تَمْلِكْ نَفْسَها فَخَرَّتْ وضَعُفَتْ ، ورُبَّ نفسٍ أَفْرَط عليها الفَرَحُ فزَهَقَتْ . ولو رُزِقَ الناسُ مارُزِقَتْ من الشَّرَفِ الباذخ البُنيانِ ، لخانتهم الأَرْجُلُ وخَرُّوا سُجود للجباه والأَذْقان ، وماسقطت عَبَثًا وانما أشارَتْ بالرَّحيل ، كما أنَّ القَصْواء(٣) ما خَلأَتْ(٤) وإنما حَبَسها حابسُ الفِيل » .

هذا محلول قوله :

أَيَقْدَحُ في الخَيْمَةِ العُذَّل   وتَشْمَلُ مَنْ دَهْرَها يَشْمَل ؟

وتعلو الذى زُحَلٌ تحتــه   مُحالٌ لعمــرك ما تُسْأَلُ ؟

تضيق بشخصــك أرجاؤها   ويركض فى الواحد الجحفَلُ

وتقصر ما كنتَ في جَوْفها   وتُرْكَزُ فيها القَنا الذُّبَّلُ

---

(١) بهرام : ملك فارسى حكم الفرس قبل الإسلام . وهم أربعة بهذا الاسم ، ولعله يقصد بهرام جور بن يزدجرد ، وهو الذى ربى تربية عربية فى الحيرة فى عهد النعمان بن المنذر ثم تولى ملك فارس بعد أبيه وضبط أمورها وحمى حدودها (تاريخ الطبرى ٢/٧٤) .

(٢) كيوان : نجم فى السماء هو الذى يسمى زحل .

(٣) القصواء : اسم ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٤) خلأت : حرنت أو بركت فلم تبرح .

رأت لون نورك فى لونهـــا كلون الغـــزالة لا يُغْسَل
وأن لهـــــا شرفا باذخا وأن الخيام بها تَخْجَلُ
فلا تنـكرن لهـــا صَرْعةً فمن فرَحِ النفس ما يقتـــل
ولو بُلِّغَ الناسُ ما بُلِّغَتْ لخانتهم حولك الأرجـــل
ولمّا أمرت بتطنيبهـــــا أشيع بأنك لا ترحـــل
فما اعتمد الله تقويضهـــــا ولـكن أشار بما تفعل(١)

وزدت على ذلك الخبر المشهور وهو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ركب ناقته القَصْواء فى عام الحديبية متوجِّها إلى مكة ، فلم تَنْبَعِثْ تحته ، فزجرها مِراراً وزَجرها أصحابُهُ فلم تنبعث ، فقالوا خَلَأَتْ القصواء ، فقال النبيَ ماخَلَأَتْ ، وإنما حبسها حابِسُ الفيل . وجرَى مِنْ تَوَقُّفِهِ عَنْ مَـكَّةَ وصُلْحِهِ قريشا فى تلك السنة ما هو مشهور .

فصل

« هنيئا لأهل كذا جميلُ رأيك وحُسْنُ بَلاَئِكَ ، وعَميمُ آلائك ، فقد

(١) من قصيدة للمتنبي يمدح بها سيف الدولة ويذكر الخيمة التى أوقعتها الريح ، وكان سيف الدولة قد ضرب خيمة كبيرة بميا فارقين وأشاع الناس أن مقامه يتصل بها ، فهبت ريح شديدة أوقعت الخيمة ، فتـكلم الناس فى ذلك (الديوان ٢/٥٩) وقـد صححنا الأبيات من الديوان .

الجحفل : الجيش العظيم . القنا الذبل : الرماح اللينة . الغزالة : الشمس . لا يغسل : لا يزول : التطنيب : مد الأطناب .

كان الدهر جارَ عليهم واعْتدَى فثقَّفتَهُ فاعتَدلَ ، واعْتَرَقَ العَظْمَ منهم وانْتَقَى ، فزَجرْته فانتقلَ ، فأَمْرُكَ مُمتَثَلٌ فى خَطْبه، وخَوْفك ماثلٌ فى قَلْبِه ، فإن شَكَّ فليُحْدِثْ بهم ضَرْباً من الحادثات ، لترْقِل له القنا باللَّهازِمِ الرَّاعفاتِ ، فيوماك يومٌ يُخمِدُ نارَ الحَرْبِ والحَرَب ، ويوم يُبْرِدُ أُوارَ الجدْبِ والسَّغَبِ » .

هذا محلول قوله(١) .

هنيئا لأهـــــل الثَّغْرِ رأيُك فيهِمُ
وأنك حِزْبُ الله صرت لهـــم حِزْبا

وأنك رُعْتَ الدهرَ فيها وريبـــــه
فإن شك فليُحْدِثْ بســــاحتها خَطبا

فيوما بخيلٍ تَطْرُدُ الرُّومَ عنهم
ويوما بجُودٍ تطرد الفقر والجدبا

وقول أبى حية النُّمَيْرى :

أما إنه لو كان غـــيرك أرقَلَتْ
إليه القنا بالرَّاعفاتِ اللهازم(٢)

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة لما بنى مرعش ، ومطلعها:

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا
فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

الديوان ١ / ٤٤

(٢) أرقلت : أسرعت . اللهازم : جمع لهزمة ، وهى الناتىء تحت الأذنين ، والمراد منا الأعناق .

فصل

« كريم ما شَتَمَ ولا شُتِم ، ولا ظَلم ولا ظُلِم ، فالملوك تَشْتُمُ بالفِعْل لا بالقَوْل ، كالأسود لاتفرِس بالحِيل بل بالحَوْل ، وما أفْرَجَت الأعداء عن البلاد حُبَّاله بل حذرا من شدة نَـكالِه ، ولاعزبت عنه بُقْيا عليه ، ولـكنْ خوفا من ضرر نباله » .

هذا محلول قوله :

ولم تفترقْ عنه الأسنة رحمةً ولم تترك الشامَ الأعادى له حُبّا
ولـكنْ نفاها عنه غيرَ كريمة كريمُ الثناما سُبّ قطولاسَبّا(١)

وقد أضيف إليه قول الأول :

وتجهل أيدينا ويحـكم رأينــا ونَشْتُم بالأفعال لا بالتَّـكلم

وقول الآخر :

فما بُقْيــــــا علىّ تركتمانى ولـكن خفتما ضرر النِّبــــال

— ٥٠ —

فصل في حل قوله

تُبارِى نجومَ القَذْفِ فى كل ليلة نجومٌ له منهن وَرْدٌ وأَدْهَم(٢)

---

(١) الديوان ١/٤٨ من قصيدته فى بناء مرعش .

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم . . أ كل فصيح قال شعرا متيم

الديوان ٢/٢٥١ .

ورد : ما بين الـكميت والأشقر من الخيل .

أدهم : أسود. نجوم القذف : هى التى تقذف بها الشياطين .

قد حله المصنف فقال : « تركب ظهر الليل تبارى مسير شُهبه ، وتستقرب بُعْدَ المدَى فى نيل مطلبه ، غير أن ذاك يفرى أديم الفياهب ، وهذا يَفرِى أديم السَّباسِب [١] » .

وقد نثرناه نحن على وجوه منها : « فمازلنا نقطع الأَدْهَمَ الواقفَ بالدُّهْمِ السائرات ، ونُسارى الشُّهْبَ النَّيِّرات بالشُّهب الطائرات ، إلا أن تلك نُجُوم القَذْف والرُّجُوم ، وهذه نجوم الغارة والهُجوم .

ومنها :

« فما زلت أبارِى أَدْهَمَ الليل بُدْهِم الخيل ، وأجارى شُهُبَهُ بالشُّهُب التى تَسْبق جرْىَ السَّيْل ، حتى وَرَدَتْ مدينةَ كذا قُبيلَ الصَّباح ، والثُّرَيَّا [٢] معترضةٌ تَعَرُّضَ أَثْناءِ الوِشاح ، ومنها أَدْهَمُ [٣] مَقْدُودٌ [٤] من الغَيَاهِب [٥] ، مَلْطُومُ الوَجْهِ ببعض الكواكب ، يَفُوتُ الرياحَ إذا جرَى ، ويَسْبق النجومَ إذا انْكَدَرتْ [٦] ، إلا أن تلك تَقْذِفُ من أَنْصَتَ لِيَسْمَعَ واسْتَرَقَ » .

---

(١) المثل السائر ١/١٥٣ .
السباسب : جمع سبسب وهو المفازة .
(٢) مجموعة نجوم صغار متقاربة .
(٣) أدهم : أسود .
(٤) مقدود : مقطوع والمراد مخلوق .
(٥) الغياهب : جمع غيهب وهو الظلام والشديد الظلمة .
(٦) انكدرت : تناثرت وسارت .

فسطاط مصور :

« فرأيتُ إلى خيمته من الحرير مُصَوَّرَةً بأنواع التصاوير ، تـكاد آسادُهـا تزأر وتَصُول ، وفُرْسانها تَنْطِقُ وتقولُ ، وأَفراسُها تَرْكُضُ وتجُول . لم تَغَنِّ الحمائِمُ على حدائق جِنانِها ، ولا حاكَتْ أيدى السَّحائب رِياضَ جُدْرانِها ، ولا عَطَتْ(١) إلى فروع الأَراكِ أعناق غِزْلانِها ، ولا خَضَعَتْ رَعِيَّتُها لملوكها ، ولا نَظَمَتْ عِقْدَ عِذارها فى سلوكها ، إذا صافَحَتْ الرياحُ جِلْبابَها ، ونازَعَتْها أَهْدَابها ، مالَتْ مَيْلَ الغَزِل ، ورقَصَتْ رَقْصَ الشَّارِب الثَّمِل(٢) ، قد تَأَلَّفَتْ الأضـداد فيها تَأَلُّفَ الأَضْراب والأشـكال ، فالـكلبُ ضَيْفُ الأَرْنَب والفَهْد ونَزِيلُ الْغزال » .

هذا محلول قوله :

وأَحْسَنُ من ماء الشَّبِيبـة كله
حَيَا بارِقٍ فى فازةٍ أنا شـائِمُهْ
عليها رياضٌ لم تَحُكْها سحابةٌ
وأغصـانُ دَوْحٍ لم تَغَنَّ حمائِمُهْ
وفوق حواشِي كل ثوبٍ مُوَجَّهٍ   من الدُّر سِمْطٌ لم يُثَقِّبْهُ ناظِمُهْ
تَرَى حيوانَ البرِّ مُصْطلِحاً بها   يحاربُ ضِدٌّ ضِدَّه ويسالمه

---

(١) عطت : مدت أعناقها ورءوسها متطاولة إلى الشجر لتتناول منه .

(٢) الثمل : النشوان الذى أثر فيه الشراب .

إذا ضَرَبَتْهُ الريح ماج كأنه
تجول مذاكيـــــه وتدآى ضراغمه(١)

فصل

« قِصارُ رُمحك أطْوَلُ من طِلالها ، وطُولُ رماح أعدائك أقْصَرُ مِنْ زِجَاجِها(٢) ونِصالها(٣) . وكم مِنْ رمح قَصُرَ فأطَلْتَه بخُطاك ، وكم من بَلَدٍ بَعُدَ فقرَّبته بسُراكَ ، وقَطْرُكَ فى النَّدَى والرَّدَى سُيولٌ وبِحارٌ ، وعزْمك فى الخصوم والعِدَا نُصولٌ وشِفار ، وأنامِلُك راجحةٌ ولـكن خُلقَتْ سُيوفُك من عَجَل ، فكلما نَهَيْتَها عن وُلوغِ الدِّماء قالت سَبَقَ السَّيْفُ العَذَل(٤) . وقد

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدول عند نزوله أنطاكية بعد ظفره بحصن برزويه وكان جالساً تحت خيمة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان مطالمها :
رفاؤ كما كالربع أشجاه طاسمه . بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه
الديوان ٢/٢٣٨ .
ماء الشبيبة : نضارتها وحسنها . حيا : مطر . بارق : سحاب ذو برق . قازة : قبة أو خيمة أو مظلة بعمودين نصبت لسيف الدولة وكانت من حرير . شائمه : ناظر إليه يرجو المطر . دوح : جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة . لم تغن حمائمه : يصف الخيمة بأنها مصورة بصور رياض وأشجار ولـكن الحمائم لا تتغنى على أغصانها لأنها صور غير ذات روح . ثوب موجه : ذو وجهين . سمط من الدر : أراد به الدوائر البيض على حاشية الأثواب التى اتخذت منها الخيمة . يحارب ضد ضده ويسالمه : نرى الوحوش مصطلحة بالخيمة مع أن من طبعها التفارس وقد نقشت على الديباج فى صور المتحابة ، لـكنها لا تتحارب لأنها جماد لا روح فيه . المذاكى : المسنة من الخيل : تدأى : تختل وتخدع . الضراغم : الأسود .

(٢) الزجاج : جمع زج وهو الحديدة التى فى أسفل الرمح .

(٣) النصال : جمع نصل وهو حديدة الرمح والسهم والسيف .

(٤) مثل قديم قاله ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، كان الحارث بن كعب قد قتل ابنا لضبة ، ثم لقيه ضبة فى الحج فقتله . فقيل له : يا ضبة أفى الشهر الحرام ؟ فقال سبق السيف العذل :
(مجمع الأمثال للميدانى ١/١٣٣ ، ٢٢١)

يَنْسُبُ الجاهلُ حِلْمَك أحيانا إلى تدبيرٍ أو خِداعٍ ، ولا يَعْلَمُ أن اللَّيْثَ لا يأكلُ الجِيفة ، ولا يَفْتَرِسُ الضِّباع » .

هذا محلول قوله :

طُولُ قَنـــا تُطَاعِنُها قِصارُ ... وقَطْرك فى نِدًى ووغًى بِحارُ

وفيك إذا جَنَى الجــانى أناةٌ ... تظنُّ كرامة وهى احتقار[١]

وقول السموأل :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها ... خُطانا إلى أعدائنا فتَطولُ[٢]

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة لمـا أوقع ببعض العرب الذين تمردوا عليه . الديوان ١/٣١٦ وصححنا الأبيات من الديوان .

(٢) لم نجد هذا البيت فى أبيات السموأل التى بديوان الحماسة وأولها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

(شرح المرزوقى ١/١١٠)

ولا فى البيان والبيتين ضمن بعض الأبيات السابقة ٣/١٨٥ .

ولى المفضليات ٢/٧ بيت للأخنس بن شهاب بن شريق التغلبى هو :

وإن قصرت أسيافنا كان وصلها ... خطانا إلى القوم الذين نضارب

وقال ثعلب : هذا البيت تتنازعه الأنصار وقريش وتغلب ، فقد زعم علماء الحجاز أنه لضرار بن الخطاب الفهرى أحد بنى محارب من قريش . وقال الأنبارى فى ترجمة الأخنس هو أول العرب وصل قصر السيوف بالخطا ، وذكر البيت ، ثم قال : ومنه استرق كعب ابن مالك الأنصارى قوله :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا ... قدما ونلحقها إذا لم تلحق

على أن قيس بن الخطيم أخذه بلفظه تقريبا فقال :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها ... خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وأما البيت الذى نسبه الأنبارى لكعب بن مالك فقد نسبه ابن قتيبة فى الشعر والشعراء لربيعة بن مقروم ، وذكر أنه من قول قيس بن الخطيم إذ أن قيساً أخذه منه .

خزانة الأدب ٣/ ١٦٤ والمفضليات ٢/٧

فصل

«الآراء الصائبة ، والشجاعة الثّاقبة، تستعبد الصوارم، وتستخدم المخاذم[١]، فالتدبير أميرٌ والشجاعة جُنْدُه ، والرأى حُسام والصَّرامة غِمْده .

ولو لم يُلْحظْ هذا المعنى ويُعْتَبَرْ ، لكانت السباع أفْضَلَ من البَشَر ، وطالما نُكِّسَتْ الأَعْلامُ بالأقلام ، ومُلِكَتِ الأَصْقاعُ بالرِّقاع ، ونَفَذَتِ المكائِدُ قبل نفوذ الحدائد . فإذا اجتمع لنفسٍ سعيدة هذان الأمران نالت أَقْصَى الإمكان ، وبلغت من العَلْيَا كلَّ مكان » .

هذا محلول قوله :

الرأىُ قَبْلَ شجاعه الشجعان ... هو أَوَّلٌ وهى المحل الثانى

فإذا هما اجْتَمَعَا لنفسٍ حرة ... بلغَتْ من العَلْياء كلَّ مكان

ولربمـا طَعَنَ الفتى أقرانَهُ ... بالرأى قبلَ تطاعُنِ الأقران

لولا العقولُ لكان أدنى ضيغم ... أدْنىَ إلى شَرفٍ من الإنسان[٢]

---

(١) المخاذم : جمع مخذم على وزن منبر وهو السيف القاطع . وكانت الكلمة بالأصل (المخازم) .

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة .

الديوان ٢/٤٢٥ .

فصل

«عزائمك لا تُفَلّ ، وآراؤك لا تَضِلّ ، ومدائحك لا تُمَلّ ، وأحكامك لا تَمِيلُ ، وسيفك شريك المنايا فى قبض النفوس ، فهذه لاختطاف الأرواح ، وهذا لاقتطاف الرءوسِ . وكل دم لم تَحْصِبْه(١) ظُباك أصبح مَطْلولا ، وكل ممات لم تشارك فيه عدٌّ خيانةً وغلولا » .

هذا محلول قوله :

شَرِيكُ المنايا والنفوسُ غنيمةٌ فـكلُّ ممات لم يُمِتْه غُلول(٢)

فصل فى حل قوله

وما الحُسْنُ فى وجـــــه الفتى شرفا له

إذا لم يَـكُنْ فى فِعْله والخلائق(٣)

قد نثرناه على وجوه منها : «شرف الفتى بأفعاله ، لا بحسنه وجماله ، كالسيف يقطع بجَوْهره ، لا بُحْسنِ منظره » .

ومنها « لو كان شَرَفُ الإنسانِ بصورته وخَلْقِهِ لا بمعناه وخُلُقِهِ ، لما قيل ما الإنسانُ إلا القلبُ واللسانُ » .

---

(١) لم تحصبه ظباك : لم تسفكه وتبسطه سيوفك .

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

ليالى بعد الظاعنين شـكول طوال وليل العاشقين طويل

الديوان ٢/٨٨ .

(٣) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

الديوان ١/٤٦٩ .

ومنها : « لا فخر فى الصُّورة المليحةِ، وأفعالُها قبيحةٌ ، كالشجرة السامية الخضراء الناضرة ، وفى أُكْلها الفاقرة(١) ».

ومنها : « لوكان الفخر بما بدا فى الصورة وظَهَرَ ، لا بما بَطَنَ من المعنى واستَتَر، لـكانت صُورة النَّمارِق(٢) ، أشرَفَ من الحيوان النَّاطِق ».

— ٥٢ —

فصل فى هيئة عسكر

« للأمير أيده الله جَيْشان: النُّسورُ فى الجوِّ والجياد فى الدَّوِّ(٣)، فـكأنَّ الفَضاء ثوبٌ مُطَيَّرٌ(٤) بالجوارح والعِقْبان ، وكأن العز فرس مُحَجَّلٌ بالسَّوابق والفُرْسان ، فعسكرُ الطير ضيفٌ يستطعم عَسْكَرَ السَّيف ، فإذا رمى بهما جيشا نفاه ، فأباد هذا أَرْوَاحَهُ ، وأباد هذا أَشْباحَهُ ».

هذا محلول قوله :

له عَسْكَرَا خيلٍ وَطير إذا رمى ... بهاعسكراً لم يَبْقَ إلا جَماجِمُهْ

سحابٌ من العِقْبان يَزْحَفُ تحتهـا

سحابٌ إذا استسقَتْ سقتها صَوارمه(٥)

---

(١) الفاقرة : الداهية :

(٢) النمارق : جمع نمرق ونمرقة وهى الوسادة أو الطنفسة .

(٣) الدو : الدوية وهى الفلاة .

(٤) ثوب مطير : منقوشة فيه صور الطيور .

(٥) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ... بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

الديوان ٢/٢٤٠ ومن الديوان صححنا الأبيات

وقد حله هذا المصنف فقال :

« فسِرنا فى غمَامةٍ من الـكتائب ، تُظَلِّلُها غَمامةٌ من الطيور الأَشائب [١] فهذه يضمها بَحرٌ من حديد ، وهذه يضمها بحر من صَعِيد [٢] » .

فصل

« حسامٌ لولا ترَقْرُقُ الماء فى جوانبه ، لتَلَمَّسَت النار الموقدةُ من مضاربه ، فقد أضَرَّ به حُبُّ الجماجم والأعناق حتى عاد نِضْواً كالهِلال ، ووَدَّتْ سباع الطير والوَحْش أَنها تَفْديه بالمخالب والأنياب إذا فُدِى غَيْرُه بالأَنْفُسِ والأَمْوال ، فأَحْسَنُ مَاخُضِّب بالدَّمِ المُمَار ، لا بالعَسْجد والنُّضار ، والحسناء حَسْناء وهى فى الأَسْمال والأَطْمار . وإذا كان الحَلْىُ لإتمام النَّقْصِ يعمل ، فتَشَفُ الأَفْضَلِ أَنبَلُ ، وعَطَلُ الأَكْملِ أَجمل » .

هذا محلول قوله :

أحسَنُ ما يُخْضَبُ الحـديدُ به   وخاضِبَيْهِ النَّجيعُ والغَضَبُ

فلا تَشِينَنَّه بالنضـار فما   يجتمع الماء فيه والذهب [٣]

---

(١) الأشائب ، الأخلاط جمع أشابة بضم الهمزة .

(٢) المثل السائر ١/١٤١ .

(٣) عرض على سيف الدولة سيوف مذهبة ، وفيها سيف غير مذهب ، فأمر بتذهيبه ، فقال المتنبي هذين البيتين :
الديوان ١/٥٢ .

فصل فى ذكر الدنيا

«هى المِرَّةُ تأكل أولادَها ، والموتورةُ تظهر أحْقادها ، أخْوَنُ من البَغايا[١] ، وأَخْدَعُ من الحَنايا[٢] ، تصيدُ الصقر بالْخَرَب[٣] ، وتَكْسِر النَّبْعَ[٤] بالغَرَب[٥] ، تَغْدِرُ بأَضْيافها ، وتقتل أزواجها ليلة زفافها ، أفْنَت العَشائر والقبائل ، ولم يحصلوا من حبها على طائل » .

هذا محلول قوله :

فلا تَنَلْكَ الليالى إن أيديها
إذا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بالغَرَبِ
ولا يُعِنَّ عدوا أنت قاهِرُهُ
فإنهن يَصِدْنَ الصَّقْرَ بالْخَرَبِ[٦]

وقوله :

فذى الدارُ أَخْوَنُ من مُومِسٍ وأَخْدَعُ من كِفَّةِ الحابل

---

(١) البغايا : الطلائع تكون قبل ورود الجيش .

(٢) الحنايا : جمع حنية وهى القوس .

(٣) الخرب : محركة ذكر الحبارى .

(٤) النبع : شجر صلب تتخذ منه القسى والسهام .

(٥) الغرب : نبت ضعيف ينبت على الأنهار .

(٦) من قصيدته فى رثاء أخت سيف الدولة . وقد صححنا البيتين من الديوان .
الديوان ١/٦٨ .

تفانَى الرجالُ على حبهـــا وما يَحْصُلون على طائِلِ[١]

فصل

« فلما أبوا إلا الاشقاقا و جِماحا ، واستنزلوا حَينا عليهم مكتوبا ولهم مباحا، نَهَد الأمير أيده الله إليهم فى كتيبة حسناء ، تهز حوله جانبيها ، كما تَنْفُض العُقابُ جَناحَيْها ، فهو رَبيبها فى السَّيْر ، وحارسها فى النزول ، وطليعها فى النَّفير، وسائقها فى القُفول »

هذا محلول قوله :

يهز الجيش حولك جانِبَيْهِ كما نَفَضتْ جَناحَيْها العُقاب[٢] .

وقول البحترى :

طليعتُهُمْ إن وجَّــهَ الجيش غازيا
وساقتهـــــــم إن وَجَّهَ الجيش قافلا[٣]

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :
الإم طماعية العاذل ولارأى فى الحب للعاقل
الديوان ٢/٣٨ .
الموس : الموسة : الفاجرة . الـكـفة: الشرك ٠ الحابل : الصائد بالشرك .

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة لما أوقع ببنى كلاب ، مطلعها :
بغيرك راعيا عبث الذئاب وغيرك صارما ثلم الضراب
الديوان ١/٥٥ .
العقاب : طائر من الجوارح يطلق على الذكر والأنثى قوى المخالب له منقار أعقف .

(٣) من قصيدته فى مدح محمد بن يوسف التى مطلعها :
أرى بين ملتف الأراك منازلا موائل لو كانت مهاها موائلا
الديوان ٢/٢٠٤ ومنه أصلحنا البيت .

فصل في صفة الخيل :

جيش قد حملتْ فيه الرِّجالُ على السَّلاهب[(١)] ، بل الأفاعى على العقارب ، وغلب فيه فأتتهم الأَبْرَدَ[(٢)] على الغِزْلان ، بل الأَجادِلَ[(٣)] على العِقْبان ، خوارقُ الأرضِ فلا تحمل إلا الأبطال والحديد ، ومتبدِّلاتُ الأَحْوالِ فكم لها من بئر معطلة وقَصْرٍ مَشيدٍ .

من كل جيَّاش[(٤)] العِنان ، مَضْمونِ السَّبْقِ يَوْمِ الرِّهَانِ ، إن قَرَعَ الطَّوْدَ فصقرٌ جارحٌ ، أو ركب البَحْرَ فنُونٌ[(٥)] سابح ، لها من النَّقْع بَراقعُ وجِلالٌ[(٦)] ، ومن الكواكب غُرَرٌ ، ومن الأَهِلَّةِ نِعالٌ . قد خالَفَتْنا صُدورُها ، وعاقَدَتْنا لَبَّاتُها ونُحورها أن تجول مع فارسها حيث جال ، وأن تَخُوضَ دونه المكارهَ والأهْوال ، وأن تجرى فى المضيق ولو أَمَّ السِّراط ، وأن تلج المَأْزِق[(٧)] وإن كان أَضْيَقَ من سُمِّ الخِياط .

هذا محلول قوله :

فأتتهم خوارقَ الأرض ما تحْـ ـمِلِ إلا الحديدَ والأبطالا

---

(١) السلاهب : جمع سلهب وسلهبة وهو الفرس الطويل العظيم .
(٢) الأبرد : النمر .
(٣) الأجادل : جمع أجدل وهو الصقر .
(٤) كانت بالأصل (جناس) .
(٥) النون : الحوت .
(٦) الجلال : جمع جل بضم الجيم وفتحها ما تلبسه الدابة لتصان به .
(٧) كانت بالأصل (المارق) .

خافيات الألوان قد نسج النقـ ـع عليها براقعا وجِلالا
حالفَتْهُ صدورها والعوالى لتَخُوضَنَّ دونه الأهوالا
ولتَمْضِينَّ حيث لا يجد الرمـ ـحُ مَداراً ولا الحصان مجالا[1]

الترصيع بالآيات القرآنية وغيرها :

أما الترصيع بالآيات القرآنية والحكم النبوية والأمثال فى الكتابة فقد ذكر هذا المصنف من إنشائه فصولا تتضمن ذلك .

ولما كنا قد ذكرنا فى حل المنظوم ما عارضنا به ما ذكره وجبَ أن نذكر من كلامنا فى ترصيع الآيات والأمثال فصولا تعارض ما ذكره أيضا .

فمن ذلك قولى فى توقيع إلى أحد النظار ببعض الصدقات الشريفة المتقبله :
«وليحرس فلان عليه هذا المشرب النمير عن رَنَق التكدير[2] ، ولا يشوه وجه هذه المَبَرَّه المتقبَّلةِ بالمَطْل والتأخير ، وليَحْذِفْ عنه أسبابَ الإرْجاء والمدافعات ، ومطا عن الاعتراض والتأويلات ، فهذه صدقة يصدق بها مالكُ الرِّق ، وإمام الحق ، وسيد الخلق ، جعل الله تعالى صدقاتِه المبرورةَ التى

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة لما نهض إلى ثغر الحدث لينقذه من الروم .
الديوان ٢/١٠٥ ومنه أصلحنا الأبيات .
ألتهم : أى الجياد .

(٢) كان الأصل (زبق التكرير) .

لا تدركها الأوهام ، ولا تَحْصُرها الأفهام ، ولو أن ما فى الأرض من شجرةٍ أقلامٌ[١] ، جنودا مجندة حول لوائه المنصور ، وكافلة لدولته الشريفة بالخلود إلى يوم النفخ فى الصُّور ، ومُعَقِّباتٌ من بين يديه ومن خلفه من أمر الله[٢] تحفظه أحقابا ، وباقياتٌ صالحات هى عند الله أَحْسَنُ عملا وخَيرٌ ثوابا[٣] » .

وهذ الفصل قد رصع بثلاث آيات من الكتاب العزيز واقعةٍ مواقعها .

ومن ذلك قولى من جملة من كتاب أصف فيه حربا : « حتى إذا زُلْزِلَتِ الأرض عليهم زِلزالها ، وأَخْرَجَتْ أَثْقالها[٤] ، وعركتهم الحرب عَرْكَ الرَّحا ثِفالها[٥] ، وعَصَبَتْهم الهَيْجاء عَصْبَ السَّلَمِ[٦] ، وغمرتهم غمر البَيْنِ ، وَهَزَّهم الرَّوْع هَزَّ الجَنوبِ ضُحىً عِيدانَ يَبْرِينَ[٧] ، لم يكن إلا كَحَسْوة طائرٍ ، أو خطوةِ سائرٍ ، حتى خالطت السيوفُ أجسامهم » . فأول هذا الكلام من الكتاب العزيز . وقولى وعركتهم من قول زهير

فتعرككم عرك الرحا بثفالها[٨]

---

(١) سورة لقمان ٢٧ (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) .

(٢) سورة الرعد ١١ (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) .

(٣) سورة الكهف ٤٦ (المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) .

(٤) سورة الزلزلة ١ ، ٢ (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها) .

(٥) الثفال : ما يوضع بين الرحى والأرض .

(٦) السلم : شجر .

(٧) يبرين : رمل شرقى حجر اليمامة .

(٨) تكملة البيت :

وتضر إذا ضريتموها فتضرم .

من معلقته .

وقولى وعصبتهم من قول الحجاج لأهل العراق: واللهِ لأعْصِبَنَّكُم عَصْبَ السَّلَمَ ، ولأَلْحُوَنَّكم لَحْوَ العَصَا ، ولأَغْمُرَنَّكم بغمار البين .

وقولى وهزهم من قول الشاعر :

يَهْزُزْنَ المشى أعطافا مُنَعَّمَةً هَزَّ الجنوبِ ضُحىً عِيدَانَ يَبْرِينا

وأَحْسَنُ ما نقل المنظوم أو غيره إلى الكتابة إذا كان هكذا ، لأن الشاعر ذكر هذا التشبيه فى الغزل فقلبته أنا إلى وصف .

وقولى حسوة طائر من قول الباخَرْزى شاعر العجم(١) :

ولو غبت عن هذين حَسْوَةَ طائرٍ لزالَ نظامٌ أو لفُضَّ خِتَامُ

ومن ذلك فى توقيع لبعض العدول،وقد رتبه مشرفا ببعض الأعمال أحذره من الخيانة ، وأنه إن واقع ذلك أُخِذَ طَيْلسانُهُ ، وأُسْقِطت عدالته ؛ وهو كناية لطيفة تنزع إلى القرآن الكريم ، سكونا إلى أمانته ونزاهته ، ووثوقا بحريته واستنابته وكفايته ، إلى تقَمُّصه بجِلْباب الدِّيانة ، وتحليه بُحلاها،وإخْلاداً

(١) هو أبو الحسن على بن الحسن الباخرزى الشاعر المشهور .
قال عنه ابن خلكان إنه كان أوحد عصره فى فضله وذهنه والسابق إلى حيازة القصب فى نظمه ونثره .
اشتغل أول أمره بالفقه على مذهب الشافعى ، ثم مال إلى الكتابة ، وبرع فى الشعر ، وصنف كتاب (دمية القصر وعصرة أهل العصر) وهو مطبوع .
ويعتبر ذيلا لكتاب يتيمة الدهر للثعالبى .
وقد وضع البيهقى كتاباً كالذيل للدمية سماه (وشاح الدمية) قتل الباخرزى فى مجلس أنس سنة ٤٦٧ ببلدة باخرز ، وهى ناحية من نواحى نيسابور بها قرى ومزارع .
(وفيات الأعيان ١/ ٣٦٠ وشذرات الذهب ٣/ ٣٢٧) .

إلى ما هو موسوم به من العدالة التى يقترن لفظها إن شاء الله بمعناها ، ثم أتممت هذا الكلام بما يناسبه إلى أن قلت : « وأهمُّ ما نَفرِضُه عليه ، والدنيا أَلْقَتْ به إليه ، لزوم الأمانةِ والعفافِ ، وصيانةِ العرضِ وحفظِ الأطراف ، فليحذر أن تُذْليه الأطماعُ بغرورها ، وجهلها ، وتلهيه بحلاوة شَهْدِها عن إبر نحلها ، وليكن من إغْواء الشيطان بإطعامه الشَّجرةَ على أتم حذر ، وأشدِّ فرق ، فإنه إن استَزَلَّهُ نزع عنه لِباس الرِّضا ، ثم لا يتمكن من خَصْفِ الوَرَق ، فليَحْرُسْ قاعدةَ العَدالةِ التى هى مَرْسُومٌ موسومٌ بشِعارها ، ومندوبٌ إلى اقتفاء آثارها ، والاهتداء بمنارها » .

فهذه الكناية من قوله تعالى : « يا بَنِى آدم لا يفْتِنَنَّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما[1] . » وقولى فى أول التوقيع التى يقترن لفظها إن شاء الله بمعناها لا يخفى ما فيه من الحلاوة فى هذا الموضع .

ومن ذلك قولى فى جملة وصايا يتضمنها توقيع لبعض النظار : « أيد الله نائب الأعمال الواسطية وحراسة الارتفاعات بالسطوة التى تُزْهِقُ النفوس ، وتَغَضُّ لها الأبصار وتُنَكِّسُ الرءوس ، وتحفظ بها الأموالُ المتمزقة فى أقصى الديار ، المشردة تحت الكواكب كتبدد الكواكب ، فهو شجاعها المِقْدامُ ، وصارمها الصَّمْصام ، وقد نَبَّهنَا عمروٌ إن كنا لاَ نَنامُ ، فليستأصل شَأْفةَ[2] المفسدين ،

(١) سورة الأعراف ٢٧ .
(٢) شأفة : أصل .

وليغلُظ عليهم ، وإما تخافَنَّ من قومٍ خيانةً فانبِذْ إليهم . فالسياسة شَموس جامح لا يُصْحِبُ(١) إلا بالسيف والنَّطْع ، وعروس فارِكٌ لا تُقْطَفُ حتى يُخَلَّقَ «ملؤها بالنَّجيع » .

وقد رصعت هذا الفصل ببعض قوله تعالى :

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبِذْ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين »(٢) وحللت فيه قول الشاعر :

إن المعالى عروس غير واصلة ... ما لم يُخَلَّقْ رداؤها بنَضْخِ دمِ

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع فى الوصاة بتخير العمال : وعمالُهُ ونوَّابُهُ بالأعمال فهم جَذْوةٌ من ناره ، وأثرٌ من آثاره ، وشعاع من شمسه ، ودَوْحَة من غَرْسه ، وفضيلتهم نتيجةُ فضله ، واختيار المرء بُضْعةٌ من عقله ، فليحسن فى ارتيادهم ، واختيارهم ، وليُجْمِلْ فى اصطناعهم واصطفائهم ، وليتخير أربابَ الأغراضِ الزكية ، والأفعالِ المرضيةِ ، والتجربةِ ، والمسألةِ ، والشبابِ ، والحيلةِ ، فإن كَبَا منهم سابقٌ — والجواد قد يَكْبُو — وَنبا منهم صارم — والحسام قَد ينْبُو — عالجه بالتقويم والإرشاد ، فإن أَصرَّ فبالتَّخْويفِ والإيعاد ، وإن فاء فبالإقْصاء والإبْعاد ، وإن أَنِسَ من أحد ما يقدح فى الأمانة ، ويشهد بوقوع الخيانة عاقبهُ معاقبة المجرمين ، وجعله نَكالاً لما بين يديه وما خلفَهُ وموعظة للمتقين(٣) » .

---

(١) يصحب : ينقاد .
(٢) سورة الأنفال ٥٨ .
(٣) سورة البقرة ٦٦ (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين)

آخر هذا الفصل من القرآن العزيز . وقد تضمن أيضا أمثالا غير خافية .

ومن ذلك قولي في هذا التوقيع : « وليواصلْ بالحمول الدَّارَّة في أوقاتها مواصلةً تُوجِبُ له الزيادة ، وتَسْتَدِرُّ له أخْلاف السَّعادة ، وتجعله ممن وَضَحَتْ براهينه ، وثقلَتْ موازينه ، وأنار صَباحُهُ ، وفازت قداحُه ، ويُطلق عَقْلَهُ لِسانَهُ إذا خَرِسَ العاجزُ فلاَ يفُوه ، ويَبْيَضُّ وجهه يَوْمَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوه[1] » . موضع الترصيع من هذا الكلام بالألفاظ القرآنية الشريفة واضح .

ومن ذلك قولي في آخر هذا التوقيع : « وليطالِعْ الديوانَ العزيزَ بصالح الأعمال ، ومتجددات الأحوالِ ، في أوقاتها وأزمانها من غير إرْجاء يُفْضِي إلى فَواتِها وبُطْلانها ، ليُدَبِّرَ من تقدماته العالية ، وآرائه السامية بما يجعله من الأرشَدِين دليلا ، والأوضحين سبيلا ، ويَنْتظم باقتفائه واحتذائه في سلك الذين التحق سِرُّهم في الإخلاص بإعْلانهم ، ويُعَد باتِّباعه وامْتِثاله من الذين يَسْعَى نُورهم بَيْنَ أيديهم وبأَيْمانهم[2] » .

وموضع الترصيع من هذا الفصل بالآية أيضا ظاهر .

ومن ذلك ماكتبته في بعض التوقيعات لناظر من نظار السواد والضياع : « فهي الأُمهاتُ الحواملُ ، والمرضعات الكوافل ، فليتخَيَّر بها طيِّبة البِقاع ، ضامنة بنمو الارتفاع فَتَخَيُّر الضِّياع كتخير المناكح ، مَنْ أحْسَنَ فيها الاختيارَ اليومَ أَنْجَبَتْ عِرْسُه غَداً ،

(١) سورة آل عمران ١٠٦ (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) .

(٢) سورة الحديد ١٢ (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) .

والبَلَدُ الطيبُ يَخرُجُ نباتُهُ بإذن ربِّه ، والذى خبُثَ لا يَخرُجُ إلا نَـكَداً(١) ، والفَدادِين(٢) فهى حاملةُ الأثقال ، وعامِرةُ الأعمال ، ومراكب البِضاعة ورأسُ المال ، فليجتهد فى إراحةِ عاملها(٣) والسلامة من دَرَكِ نقْصها وخَلَلها» وماعساه يعْوِزها يُتِمُّهُ ، وما تَسَرَّبَ منها يَجْمعه وَيلُمُّه ، فقد مَنَّ الله على عباده بأن خلقها كثيرةَ الحَرْثِ ، وسقاهم مما فى بطونها مِنْ بَيْنِ دَمٍ وفَرْثٍ(٤) ».
والآيات المدرجة فى غضون هذا الـكلام ظاهرة .

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع : « فإذا تَمَّ ارتفاعُه ، وتـكامل صَلاحُه وإيناعُه ، وبلغ الـكتابُ أجلَهُ لميعاده ، ودنا الوقتُ الذى قيل فيه وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ ، فليُوَاصِلْ بالحمول إدرارا ، وليندُبْ نفسه فى جمع المال ليلا ونهارا ، وليُرْهِفْ للاستيفاء والاستخراج شَبا العَزْم ، ولْيَنْصَبْ لذلك انتصابَ أمثاله من ذوى البصيرة والحزم ، فاستيفاء الأموال والحقوق هو النتيجة المرادة ، والثمرة المستفادة ، وذلك المَخْضُ عن هذه الزُّبْدَةِ أسْفَرَ ، وذلك السِّرار(٥) عن هذا الهلال أبْدَرَ(٦) ، وذلك الغَرْسُ لهذه الفائدة أثمر ، وذلك البَدَلُ لهذه النفس النفيسة صَوَّرَ ، وعلى قالبها تَصَوَّر ، والمَضْجَعُ فى الاستيفاء بعد

---

(١) سورة الأعراف ٥٨ (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نـكدا) .

(٢) الفداق : على وزن سحاب وشداد : الثور أو الثوران يقرن بينهما للحرث جمع فدادين . وفى الأصل (الفدن) وقد أراد بالفدادين البقر كما يتبين من السياق .

(٣) فى الأصل (عاملها) .

(٤) سورة النحل ٦٦ (وإن لـكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) .

(٥) السرار : آخر ليلة من الشهر .

(٦) أبدرنا : طلع لنا البدر أوسرنا فى ليلته .

ارْتِكاضِهِ السَّابِقِ وتعبه مُسْتَحِقٌ المثل الإلهى : كالتى نَقَضَتْ غَزْلها من بَعْدِ قوة أَنْكاثاً[1] ، وناهيك به » .

فأول هذا الفصل آية وآخره آية أخرى[2] .

وفى وصايا التوقيعات التى تتضمن الكلام النبوى قولى فى توقيع بعض النظار : « وليُعْنَ بأمر الأكارة ، فإنهم عُمَّارُ الأراضى والضِّياع ، وقِوامُ المال والارتفاع ، وجُنْدُ السَّواد ، وأوتاد البلاد ، وليشملهم بالعدل والإنصاف ، وليؤمنهم بَوائقِ الْجور والإجْحاف ، وليَسْهُلْ إذْنُهُ عليهم ، وليواصل إحْسَانَه إليهم ، فالكثير منهم يَثْبُتُ ويُقيمُ بالبِشْر والطَّلاقة ، ويَنْفِرُ ويَفِرُّ بالعُنْف والفَظاظة ، والاستقصاء على الرَّعِيَّة فِراقٌ ، وفى الحكمة النبوية : إذا لم تَسَعُوا الناسَ بأموالكم فسَعُوهم بأخلاقكم . ويقال إنه ليس كلمة أجمع لمكارم الأخلاق منهما » .

وأما الكتابة التى تَتَضَمَّنُ الأمثالَ وهى مُرَصَّعة بالوقائع والأيام والنكت ، فمن ذلك قولى فى جملة توقيع : « وأَهَمُّ ما يُؤْمَرُ به وإن كان شيمَتَه ، وآكَدُ ما يُوصَى به ، وإن كان خُلُقَه وسَجِيَّته ، الاستمرارُ على ما اشتهر به من الأمانة

(١) الأنكاث : جمع نكث على وزن بئر وهو الغزل من الصوف أو الشعر يبرم وينسج فإذا خلقت النسيجة قطعت قطعا صغارا ونكثت خيوطها المبرومة وخلطت بالصوف الجديد ونفشت به ثم ضربت بالمطارق وغزلت ثانية واستعملت . ومن هذا نكث العهد وهو نقضه بعد إحكامه كما تنكث خيوط الصوف المغزول بعد إبرامه .

(٢) الآية الأولى (وآتوا حقه يوم حصاده) سورة الأنعام ١٤١ .
والآية الثانية (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) سورة النحل ٩٢ .

التى فاز من تَدَرَّعَ بأثوابها ، وتعلق بأسبابها ، وتحلى بِسِمْطِها ووشاحها ، وتَجَلَّى فى لألاء إصْباحِها ، وارتقى أعلى مراتبها ، واقتنى أَسْنَى مناقبها ، وارتدى بأرديتها ، واجْتَبَى بأنديتها . وضِيرَ مَنْ نَضَا وأَنْضَى رِكابها ، وعَنَدَ عن طريقها ، والقيام بحقوقها ، وباعها بالثَّمَن البَخْسِ ، وَوَكس فيها شَرَّوكْس ، ورجَعَ بالجَدِّ المنعوس[١] ، والحظ المنحوس ، والرأس المنكوس ، مُتَلَفِّفًا فى العاجل بثوب الخِزْى والصَّغار ، متعرضا فى الآجل للنَّكال والبَوار ، فالحرة لا تَأْكل بثَدْيِها وإن جاعت ، ولو اضْطَرَّتْ إلى الدنية لما أطاعت ، ورُبَّ أكلةٍ هاضَتْ ، وزيادةٍ زِيدَ عليها ففاضَتْ ، وطالما تَئوبُ البِطنةُ بصاحبها ، ثم يندم على سوء عاقبتها ، ومن أكل قليلا نام قريرا ، والثَّرِىُّ من القناعة غنىٌّ وإن كان فقيرا ».

فهذا الفصل يشتمل على أمثال عدة[٢] مع ما فيه[٣] من شرف الصنعة .

ومن ذلك ما قلته فى توقيع بعض النظار بأعمال السواد : « وليجتهد فى تربية المزروعات ، و... كرتبة الأولاد ، وليحرسها من بوائق العَيْبِ والفساد ،

---

(١) النعس لين الرأى والجسم وضعفهما وكساد السوق .

(٢) تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ، أى لا تكون ظئرا وإن آذاها الجوع . وأول من قال ذلك الحارث بن سليل الأسدى ، وكان حليفا لعلقمة بن خصفة الطائى ، فزاره فنظر إلى ابنته الزباء وكانت من أجمل أهل دهرها ، فأعجب بها ، فخطبها ، فاستمهله علقمة ، واستشار امرأته ، فاستشارت ابنتها ، ثم لم تزل بها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحارث ، ورحل بها إلى قومه ، وبينما هو يوما جالس بفناء داره وهى إلى جانبه أقبل شباب من بنى أسد ، فبكت ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالى وللشيوخ الناهضين كالفروخ . فقال لها : ثكلتك أمك ، تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها (مجمع الأمثال للميدانى ١/٨٢) .

(٣) بالأصل (معمافيه) .

وليستكثر من نواطيرِها[1] وسُقاتِها ، فى تَطْوافِه عليها بنفسه فى معظم أوقاتها ؛ ففضيلة العمل فى استِتْمامِهِ ، والهلال حَسَنٌ وليس كحسنه لتَمامه ، وليهْتمَّ بإصلاح (السكور) و (البريدات) و (الرؤف) و (المرادات) ليأمن عليها من الانفتاح والانفجار ، وتأسيس أساسها على شَفَا جُرُفٍ هار . وليكن من الاعتناء بها والاهتمام بحيث يَحْلُمُ بها فى المنام ، ويتخَيلها فى الأحلام ، فإن الزلل فيها مُذْهِبُ الأموال ومُجْتاح الرعية ، وهى من المصالح الكلية ، لا من المحَقَّرات الجزئية ، فإياه أن يستصغر منها الصغير ، أو يستحقر الحقير ، فرب أمرٍ قَلَّ ثم جَلَّ ، وفى المثل أولُ الغَيْثِ طَلٌّ[2] .

فهذا الفصل يشتمل على أمثال مأخوذة من الشعر ، فمنها من قول أبى تمام

هذا الهلالُ يَرُوقُ أَبْصَارَ الورى   حُسْنًا وليس كَحُسْنه لتَمامِه[3]

ومنها من قوله أيضا :

وأزرقُ الفجر يبدو قبل أَبْيَضِهِ   وأَوَّلُ الغيث طَلٌّ ثم يَنْسكِبُ

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع : «وإياه أن يَسْلُكَ فى حِراسة الأموال مَسْلَكَ المداهنة ، أو يذهب فى السياسة مذهب الإغضاء والملاينة ، فتَضِيعُ حركاتُهُ ،

---

(١) النواطير : جمع ناطور وهو حارس الكرم والنخل .

(٢) الطل : المطر الضعيف .

(٣) من أبيات فى مدح إسحاق بن أبى ربعى أولها :

لولا أبو يعقوب فى إبرامه   سبب العلا لانحل ثنى زمامه

الديوان ٣/٢٦٩ .

وتَذْهَبُ حَسَنانه ، و يصبح كالتى أراقت سَجْلَها[١] أو يصبح كالتى نقضت غزْلها ، و يَــكْثُرُ العَبَثُ والفَساد ، ويستحكم الطبع و يزداد ، فأَدْعَى الأشــياء إلى انحلال النظام وَضْعُ الصفْح مَوْضِــعَ الانتقام .

وليَنْتَصِبْ لاستيفاءِ الأموالِ وحَمْلها ، فقد عَلِمَ أنها الثمرةُ المنتظرةُ ،والغاية المرتَقَبَةُ ، والزُّبْدَةَ التى تمخضت عنها هذه الحركات ، والنتيجة التى تقدمت لها هذه المقدمات ، فليواصل بها مواصلةً تجْنِي جَناها ، ويَحْمُدُ عند الصَّباح سُراها ، وليطالع الديوان العزيز بجارى أحواله ، ومصالح أعماله ، ليدَبِّرَ من آرائه العالية ، و تَقَدُّماته السَّامية ، بما يُبَصِّره ويُرْشِدُه ، ويُوَفِّقُهُ و يُسَدِّده ، ويحميه من موارد الرَّدَى ، ويجعله من الذين اهتدوا وزادهم هُدًى » .

فهذا الفصل يتضمن آيتين من الــكتاب العزيز وهما « كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنــكاثا[٢] » و « الذين اهتدوا زادهم هدى[٣] »

و يشتمل على أمثال شعرية وهى قول المتنبي :

ووَضْعُ النَّدَى فى موضع السيف بالعلا
مضِرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى[٤]

---

(١) السجل : الدلو.
(٢) سورة النحل ٩٢ .
(٣) سورة محمد ١٧ .
(٤) من قصيدته فى مدح سيف الدولة وتهنئته بالعيد ، مطلعها :
لــكل امرىء من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا
الديوان ١٩١/١ .

وقول الآخر : عند الصباح يحمد القوم السُّرَى (١) .

ومن ذلك ما قلناه فى توقيع بعض كتاب الأعمال : « وليُرتِّب بديوان المعاملات نائبا جَلْداً يثق بأمانته ، ويطمئن إلى كِفايته ، يقوم مقامه ، ويَسُدُّ مَسَدَّه ، فإنه لاغِنًى له عن المساعد على أثْقاله ، والمعاضد له فى جميع أحواله ، فالوادى لا يَزْخَرُ بغير شِعابه (٢) ، والبيت لا يقوم إلا بعَمَده وأطْنابه (٣) ، والسيف يحتاج إلى القائم (٤) ، والخوافِى عُدَّةٌ للقوادم » .

فهذا الفصل يتضمن أمثالا شعرية منها قول أبى تمام :

فاضمُمْ قواصِيَهُمْ إليك فإنه — لا يَزْخَرُ الوادى بغير شِعاب
والسَّهْمُ بالريش اللُّؤام ولن ترَى — بيتا بلا عَمَد ولا أطناب (٥)

ومنها قول بشار :

---

(١) قال المفضل : أول من قال ذلك خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر وهو باليمامة أن سر إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائى قد سلكتها فى الجاهلية ، ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل الماء ، فاشترى خالد مائة شارف ، فعطشها ثم سقاها الماء ثم كتبها وكم أفواهها وسلك المفازة بها ، فلما مضى يومان نحر الإبل واستخرج ما فى بطونها من الماء ، فسقى الناس والخيل ومضى ، وبعد أربعة أيام بدا لهم السدر ، فقال خالد : عند الصباح يحمد القوم السرى (مجمع الأمثال ١/٣٠٣) .

(٢) شعاب الوادى : جمع شعب بكسر السين وهو الطريق فى الجبل ومسيل الماء فى بطن أرض .

(٣) الأطناب : جمع طنب بضم الطاء والنون وهو حبل طويل يشد به سرادق البيت وهو أيضا الوتد .

(٤) قائم السيف : مقبضه .

(٥) من قصيدته فى مدح مالك بن طوق التغلبى ، مطلعها :

لو أن دهرا رد رجع جواب — أو كف من شأوبه طول عتاب

الديوان ١/٩٤ .

اللؤام : الذى يلائم بعضه بعضا ، وذلك أجود الريش عندهم .

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة　　فإن الخوافى عدة للقوادم

وماخَيْرُ كف أمسكَ الغُلُّ أختها　　وما خير سيف لم يؤيد بقائِم (١)

ومن ذلك ما قلناه فى هذا التوقيع أيضا وهو :

«وليباشر بنفسه ، أو من يقوم مقامه كلّما يَسْتَوْفِى ويُحَرِّر ويُقَرِّرُ ويُحَلُّ ويَعْقِد ، ويَسْتَظْهِر على الأموال المستوفاة بختْمه ، ويضبط الحقوق بعمله وعلمه ، فهو الشاهد المصَدَّقُ فى النَّقض والإبرام ، وحذامِ فى صِناعته ، والقول ما قالَتْ حَذَام (٢) » وموضع المثل من هذا الفصل والبيت الذى فيه معلومان .

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع أيضا عند وصية الكاتب بقوانين وقواعد يعتمدها فى هذا الحساب ورَفْعِه :« ولا حاجةَ له إلى أن يُجْرَى له فى هذا الباب ما يَتَّبعه ويَقْفُوه ، ولا يُمَثّل له ما يَطأُ عَقِبه ويَتْلُوه ، فغيره تُقْرَعُ

(١) من قصيدة له أنشدها إبراهيم بن عبد الله بن حسن .

الأغانى ٣/٢٩ .

(٢) أى القول السديد المعتد به ما قالته ، وإلا فالصدق والكذب يستويان فى أن كلا منهما قول .

يضرب هذا المثل فى التصديق : قال ابن الكلبى : إن المثل للجيم بن صعب والد حنيفة وعجل ، وكانت حذام امرأته فقال فيها زوجها لجيم :

إذا قالت حذام فصدقوها　　فإن القول ما قالت حذام

مجمع الأمثال ٢/٣٥ .

له العَصَا[١] ، وسواه يُقَعقَعُ له بالَحصا ، والعَوانُ لا تُعَلَّمُ الِخمْرة[٢] ، والفَطِن[٣] لا يُوصَى إلا مَرَّه . و إذا احتاج الُحسامُ إلى الغِمْدِ والجوادُ إلى الهَمْز ، فهو[٤] الغنُّى بُرشْده عن الإرشاد ، وابن جَلا وطَلاَّعُ النِّجاد[٥] ».

هذا الفصل يتضمن أمثالا عدة منها : فغيره يقرع له بالعصا ، من قول الشاعر :

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العَصا　　　وما عُلِّمَ الإنسان إلا ليعلما

---

(١) قال ابن الأعرابى : أول من قرعت له العصا عامر بن الظرب العدوانى — وقيل غيره — وكان من حكماء العرب لا تعدل بفهمه فهما ولا بحكمه حكما . فلما طعن فى السن أنكر من عقله شيئا ، فقال لبنيه إنى قد كبرت سنى وعرض لى سهو ، فإذا رأيتمونى خرجت من كلامى فاقرعوا لى المجن بالعصا . وهو الذى يريده المتلمس بقوله :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا　　　وما علم الإنسان إلا ليعلما

والمثل يضرب لمن إذا نبه انتبه (مجمع الأمثال ١/٢٥) .

(٢) بالأصل (القران) . والعوان هى المرأة المتزوجة . والخمرة الاختمار أى أنها لا تحتاج إلى من يعلمها وضع الخمار . يضرب المثل للرجل المجرب (مجمع الأمثال ١/١٣) :

(٣) فى الأصل (الكفن) .

(٤) فى الأصل (فهى) .

(٥) يضرب للمشهور المتعالم ، وهو من قول سحيم بن وثيل الرياحى :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا　　　متى أضع العمامة تعرفونى

وتمثل به الحجاج فى خطبته بالكوفة . قال بعضهم ابن جلا النهار ، وحكى عن عيسى ابن عمر أنه كان لا يصرف رجلا يسمى بضرب (فعل ماض) ، ويحتج بهذا البيت ، ويقول :لم ينون جلا لأنه على وزن فعل . قالوا : لا حجة له فى البيت لأن الشاعر أراد الحكاية لحكى الاسم على ما كان عليه قبل التسمية . وتقديره أنا ابن الذى يقال له جلا الأمور وكشفها .

وذو الحلم هو عامر بن الظرب العَدْوانى حكيم العرب ، وقصته مشهورة ، وكذلك الفطن لا يُوصى إلا مرة .

وأما ابن جلا وطلاع النجاد فمثل شعرى أصله قول القائل :

أنا ابن جَلاَ وطَلاَّعُ الثَّنايا ... متى أضَعِ العمامةَ تعرفونى

ومن ذلك ما كتبته فى توقيع كاتب آخر وهو « حيث تَوَقَّلَ (من)[١] هذه الصناعةِ قُلَلَها ، واجْتاب[٢] ملابسها وحُلَلَها ، وكشفت التجربة أنه ابنُ بَجْدَتِها ، ورضيع دِرَّتِها وجُهَيْنَةُ أَخْبارها ، وجَواد مِضْمارها ، ونَسْجُ وَحْدِها ، وصَمْصامة غِمْدِها ، واشْتهرَتْ عنه الأمانةُ التى تَقَمَّص بُرْدَيْها ، واستلان سُبُلَها[٣] ، ونهج طريقها ، وحَمَى حقيقتها » .

وفى هذا الكلام أمثال كثيرة ، وألفاظ تجرى مجرى الأمثال[٤] .

ومن ذلك ما كتبته فى وصايا توقيع بعض النظار وهو : « الحركة الدائمة التى

---

(١) كان بالأصل تحريف فى كلمة (توقل) وأضفنا (من) ليستقيم المعنى .
(٢) كانت الكلمة فى الأصل (وأحباب) فرجحنا أنها اجتاب بمعنى قطع وفصل .
(٣) فى الأصل (واستلام شبلها) فرجحنا هذا التصويب .
(٤) عند جهنية الخبر اليقين . مثل له قصة طويلة من هشام بن الكلبى .
وقال الأصمعى وابن الأعرابى هو جفنية بالفاء ، وكان عنده خبر رجل مقتول ، وفيه يقول الشاعر :

تسائل عن أبيها كل ركب ... وعند جفنية الخبر اليقين

فسألوا جفنية فأخبرهم خبر القتيل ، وقال بعضهم هو حفينة بالحاء .
يضرب فى معرفة الشيء حقيقة .
مجمع الأمثال ١/٣٠٤ .
ابن بجدتها : البجدة الأصل ودخلة الشيء وباطنه ، وعنده بجدة ذلك أى علمه .
يقال للعالم بالشيء والدليل الهادى .

تذهب الكَلالَ ، وتُرْهِفُ الكلِيلَ ، وتنزع الْغُلَّ وتَشْفِى الغَليل ، وتُعْقِبُ الراحة ، وإن عَجَّلَت النَّصَبَ ، وتُقَوِّم الأعمال مقام الدواء للوَصَب . فليكن لها ملازما ، وعليها مواظبا ، ولمهاد الدَّعة وجانب الكسل مجانبا ، فمن لم تُسَوِّده البَيْداء لم تُسَوِّده العَلْياء ، ومن لم تَلْفَحْ جِسْمَهُ السَّمائِمُ لم تُبَيِّضْ وجهه المكارم » .

وهذا مأخوذ من قوله :

ما ابيضَّ وجه المرء فى طلب العلا حتى يسود وجهه فى البيد

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع لناظر قد رتب على زراعة غيره ، وأمر بتربية ذلك المزروع وهو : « و بتَرْبِيةِ المزروعات لسنة كذا الخراجية ، وتَرْتيب النَّواطيرِ والحَفَظةِ لها ، وتَعاهُدِها بالسَّقْى عند حاجتها . فليكُنْ معظمُ زمانه مصروفاً إليه ، وموقوفا عليه ، فهذا الارتفاعُ إن لم يكن غارسَهُ فهو حارسُهُ ، وإن كان قد سبقه إنشاؤه وابتداؤه فعليه تربيتُهُ وإنماؤه ، فالأعمالُ بختامها ، والمبادىء بإتمامها ، وليس البناء لمَنْ وَضَعَ أُسَّه ، بل لمن كمَّلَهُ ، ولا الصَّيْدُ لمن أثاره ، بل لمن حَصَّله » .

فى هذا الكلام من الأمثال المشهورة قولهم: « الأعمالُ بخواتيمها » ، ومن الأمثال النبوية قوله : ليس الصيد لمن أثاره ، بل لمن حصله .

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع توصيةً بالمعاملات لسنة كذا الخراجية :

« فليضاعفْ رِجالها ، وليَعْمُرْ أعمالها ، فهو مُفْتَتَحُ ارتفاعه ، وبِكْر خِدْمته ،

والشاهد على وُفور اجتهاده ، وعلو همته ، وعليه الاعتماد والمعوَّل ، فليحذر أن يقال إذا ما أوَّل » .

هذه إشارة إلى البيت المشهور الذى قد صار مثلا وهو :

إذا ما أول الخطِّى أخطا فلن يُرْجَى لآخره انتصار

ومن ذلك قولى : « فليحكمْ بُنْيانَها ، وليشيِّدْ أركانها ،ليَسْتُرَ عَوارها ، ويأْمَنَ انفجارها ، وتَثْبُتَ تحت المياه عند طُغْيانها ، وتقْوَى على تمَرُّدِها وعِصْيانها . ولْيَحْذَرْ عاقبةَ الهُوَيْنا فيها ، ومَغَبَّةَ الإهمال لأمرها ، فالدخان تلتهبُ ناره ، والشر تبْدُو صغاره » .

هذان مثلان مشهوران قد وقعا فى هذا الكلام موقعهما .

ومن ذلك ما قلته فى الوصاة بالأَكَرة[1] : « والأكَرَةُ فهم جنده الذى به يُحارِب ، وسيفه الذى به يُضارِب ، فلْيُسْجِحْ فى مَلَكته[2] ، ولْيُنْصِفْ ضعيفَهم فى معاملته ، وليُوَفِّرْ عليهم حِصصهم وحُقوقهم ، وليخفف ما استطاع رسومهم وطُسوُقهم[3] ، فهم جندالرَّغْبة ، لاجُنْدُ الرَّهْبة ، وعبيد البروالإحسان، لا عبيد الظلم والطغيان . ومنَ طَوقَ الأَجْياد ، فقد أَوْثَقَ الأَقْياد ، ومن لم يَمْلِكِ القلوبَ لم يملك الأجساد . والأَكَرَةُ جندٌ لا تزال البلاد ساكنة

---

(١) الأكرة : جمع أكار وهو الحراث .

(٢) الملكة محركة الامتلاك مع القدرة على الاستبداد .

(٣) الطسق بالفتح ما يوضع من الخراج على الأفدنة أو شبه ضريبة معلومة .

آمنةً ، ما سكتوا وأَمِنُوا ، وفى الحكمة القديمة : استوصوا بأهل الخراج ، فلا تزالون سِماناً ما سَمِنُوا ».

فى هذا الكلام من الأمثال قولهم : ملكت فأَسْجِح[١] ، وقول أردشير بن بابك : استوصوا بأهل الخراج فإنكم ماتزالون سِمانا ما سَمِنُوا . وفيه نظر إلى قول المتنبى :

وقيدتُ نفسى فى هَواك محبةً ومن وجدَ الإحسان َقيْداً تقَيَّدا[٢]

ومن ذلك ماصدرت به توقيعا فى تقريظ بعض النظار وهو : « لما كان فلان من الرجال الأَفْراد الذين عليهم الخناصِرُ تُعْقَدُ ، وإذا طلبت النظائرُ مِثْلَهُمْ تَعِزُّ وتُفْقَد ، وكانت شمائله وشواهده تَنْطِقُ عنه بالكفاية ولو لم يُخْبَرْ ويُشْهَدْ ، له مخايل الفراسة بخصائص النجابة ، وقد دلت سَوابقُ الاختبارِ له على حُسْنِ الاختيار ، وإثباتُ سَوالفِ مآثر خِدَماتِه على حَميدِ الآثار ، واستحقاق الإيثار . وكان الديوان العزيز قد بَلاه فى حالَتَىْ عَمَلِهِ وعُطْلته ، وعرف ما تنطوى عليه أنباء بُرْدَيْهِ فى يوم فَقْره وثَرْوته ، وكان فى أيام خِدماته

(١) الإسجاح : حسن العفو ، أى ملكت الأمر فأحسن العفو . وأصله السهولة والرفق . قال أبو عبيدة : يروى عن عائشة أنها قالت لعلى يوم الجمل حين ظهر على الناس فدنا من هودجها ثم كلمها بكلام : ملكت فأسجح . فجهزها عند ذلك بأحسن جهاز ، وبعث معها أربعين امرأة ، وقيل سبعين حتى قدمت المدينة .
(مجمع الأمثال ٢/١٥٨) .

(٢) من قصيدته فى مدح سيف الدولة وتهنئته بعيد الأضحى ، مطلعها :
لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا
الديوان ١/١٩٤ .
وكان فى الأصل (ومن قصد الإحسان) فأصلحناه من الديوان .

الرجَل الشَّهمَ الذى يَنفُذُ نفوذَ السَّهْم ، ويدرك بحسِّهِ الثاقب خَفِيَّ الوهم إذا سَقَى به أرضا صابها[١] ، وإن رَمَى به رَمْيةً أصابها ، وإن عالج تدبيرُه معاملةً سقيمةً أبرأ أوْصابها .

هذا إلى ما خُصَّ به من سياسةٍ تمنع خِطابَ الضَّمير ، فضلا عن خَطوات التَّدْبير ، وأمانةٍ ضَمَّ عليه إهابُها ، وسُمِعَ قَرْقَعَةُ جِلْبابها ، وضَفَا عليه سِرْبالُها ، وتَخِبُّ وراءهُ أذيالُها . ومن أيام عُطْلته رَبُّ الصِّيانَةِ التى لا تُجْحَدُ ، ومُدَّخِرُ القناعةِ التى هى كنزٌ لا يَنْفَدُ ، والصَّابر على البُؤْسِ بل على العَطَب ، بل لا يَصْبِرُ على النار إلا خالِصُ الذهب . فرأى الديوانُ العزيزُ إعادةَ النظر بالمعاملات الفلانية إليه ، والتَّعوِيلَ فى إصلاح فاسدها وتقويم مائدِها عليه عِلْماً أنه قد سَلَّمَ القَوْسَ إلى بارِيها ، وأضاف العَقِيلة إلى كفْئها وكافيها » .

فى هذا الكلام من الأمثال والنكت الرائقة ما لا خَفاء به .

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع من الوصايا : « وليهتمّ أولا بحفظ البذور التى هى رأس المال ، وذَخِيرةُ الأعمال ، والعروس التى تُجْتَنَى ثِمارها ، والبضاعة التى إذا حُرِسَتْ أمِنَ بَوارُها ، والتفريط فى القليل عنها ليس بقليل ولا قريب . وفى المثَل : كم بذِى الأَثْل دوحةً من قَضِيب[٢] ، وليتخيرها خاليةً من الغش

(١) صابت السماء : أمطرت ، وجادت الأرض ، فهو لازم ومتعد كما فى تاج العروس مادة صوب .

(٢) الأثل : شجر واحدته أثلة وهى السمرة أو شجرة من العضاه طويلة مستقيمة تعمل منها القصاع والأقداح . الدوحة : الشجرة الضخمة . القضيب : الغصن . والمعنى كم من شجرة ضخمة أصلها فرع صغير .

والدَّغَل ، فالغشُّ فى المتاجر الدنيوية ، والغش فى المتاجر الدينية ، كلاهما يُبْطِل العَمَل ، ومن هَوَّنَ فى البِذْرِ فيوْمَ الحصادِ يَنْدَمُ ، وكل امرىء على ما قدم يُقَدَّمُ ، ولا يتولد عن المعدوم إلا العَدَمُ ، ومن أشبه أباه فما ظلم »[١] .

هذا الفصل يتشعب شعبا ، فمنه ما يَنْزِعُ إلى الخبر النَّبَوِيِّ وهو قوله « وإنكم لتقدمون على ما قدمتم » ، ومنه ماهو مأخوذ من قول القائل :

إذا أنت لم تَزْرَعْ وأدركْتَ حاصدا

نَدِمْتَ على التَّقْصير فى زَمَنِ البَذْرِ

ومنه ما يَرْجِعُ إلى قوله أبى تمام :

لا تَذِيلَنْ صَغيرَ همِّك وانظرْ

كم بذى الأَثْل دوحةً من قضيب[٢]

---

(١) مثل معناه أن من أشبه أباه لم يضع الشبه فى غير موضعه ، لأنه ليس أحد أولى به منه بأن يشبهه . ويجوز أن يراد فما ظلم الأب أى لم يظلم حين وضع زرعه حيث أدى إليه الشبه . وكلا القولين حسن .
(مجمع الأمثال ٢/١٧٠) .

(٢) لا تذيلن : لا تهملن . الهم : الحزن أو الهمة . الأثل : شجر معروف يعظم ويكبر . أى لا تهمل نظرك فى صغير همك ؛ فإن كان خيرا فإنه يثمر وتعظم المنفعة به ، وإن كان مما يحذر فإنه لا يؤمن أن يتفاقم .

وهذا المعنى قصده نهشل بن حرى فى قوله :

قال الأقارب لا يغررك كثرتنا وأغن شأنك عنا أيها الرجل

على بنى يشد الله أزرهم والنبع ينبت قضبانا ويكتهل

وبيت أبى تمام من قصيدته فى مدح سليمان بن وهب التى مطلعها :

أى مرعى عين ووادى نسيب لحبته الأيام فى ملحوب

الديوان ١/١٢٧ .

ونصبت كلمة (دوحة) مع أنها تمييز لكم الخبرية ، لأن من شروط جر تمييز كم الخبرية الاتصال ، فإن فصل نصب تمييزها حملا على الاستفهامية ، وذلك جائز فى السعة ، والصحيح اختصاصه بالشعر (حاشية الصبان على الأشمونى) .

وقد دخل فيه أيضا المثلُ السائرُ : من أَشْبَهَ أباه فما ظَلَمَ .

وقولى « ولا يَتَوَلَّدُ عن المعدوم إلا الْعَدَمُ » نكتة كلامية(١) .

وقولى « إن الغش الدنيوى كالغشِّ الدينى كلاهما يُبْطِلُ العمل » ، لا يخفى ما فيه من الحلاوة مع لطف الصنعة .

ومن ذلك قولى فى الوصاة بحراسة الارتفاع وهو : « وحراسةُ الغَلَّات عند الإدْراك والحصادِ ، وإظهارُ الوَزَعَةِ التى تُشَرِّد بالرُّقادِ ، وتُغْنِى عن تجريد السيوف من الأغماد . فأنت رضيعُ لِبانها ، لا شريك عِنانها(٢) ، والمضروبةُ بين أمثاله الأمثال ، والمنقوضَةَ لديه الأحْلاسُ ، والمحطُوطَةُ إليه الرِّحال . وسبيلُك الأخْذُ على الفَتيل والنَقِير ، وألَّا يُحتقر فى هذا الباب مَّا هو أحْقَرُ من الحقير ، فقليلُ الجناية يدعو إلى كثيرها ، وربما تَهاجُ كبيراتُ الأمور بصغيرها ، والشِّراكُ بانشِّراكِ(٣) يتصل ، ومن الذَّوْدِ إلى الذَّوْدِ إبلٌ » .

فى هذا الفصل من الأمثال والنكت قولهم : هما رضيعا لِبانٍ(٤) ، وقولهم : هما شريكا عِنان . ومن بيت الحماسة :

« يهيج كبيرات الأمور صغارها »(٥) .

---

(١) من اصطلاح علماء الكلام .

(٢) العنان فى الشركة أن تكون فى شىء خاص دون سائر ما للشريكين ، أو هو التساوى فى الشركة ، لأن عنان الدابة له طاقتان متساويتان .

(٣) الشراك : سير النعل .

(٤) يقال هو أخوه بلبان أمه ، لأن اللبان بالكسر الرضاع ، قال يعقوب وابن السكيت لا يقال بلبن أمه ، لأن اللبن الذى يشرب . وفى الأمثال هما فرسا رهان ورضيعا لبان .

(٥) لشبيب بن البرصاء :

=

وبيت البحترى :

من لَفَا هذا إلى مخسوس ذا ومن الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل[١]

ومن ذلك ما قالته من الوصاة بتخير النواب والعمال وهو : « والمستنابون بالأعمال فهم اليدُ الباطشةُ ، والرِّجْلُ السَّاعية ، والعَينُ الباصِرة ، والأُذُنُ الوَاعية ، وأنتَ لهم بمنزلة الجسدِ ذى الأدَواتِ ، والقلبِ المستعمِلِ للأعضاء والآلات ، فإذا صَحُّوا كنتَ الصحيح السليم ، وإذا سَقِمُوا كنت المريض السقيم ، لأنهم أجزاؤك وأَبْعاضُك ، فصحتهم صِحَّتُك ، وأمراضُهم أمراضُك . فأَذْكِ عليهم عُيونَ التَّطَلُّعِ ، ولا تُخْلِهِم من التَّصَفُّح والتَّتَبُّع ، واجعلهم نُصْبَ عينيك ، وتجاهَ ناظرك ، وتلقْاء وجهك ، وإزاء خاطرك ، فمن كان أمينا أَقْرَرْتَهُ وأَدْنَيْتَهُ ، ومن شككت فيه طَرَدْتَهُ وأَقْصَيْتَهُ ، ومن ثبت عليه هَفْوةٌ ، أو صَحَّتْ عليه عثْرةٌ أو كَبْوةٌ ، فسبيلك أن تنَكِّل به ، وتبالغ فى حُسْنِ أدبه . ولا تَسْلُكْ فى ذلك مَسْلَكَ المجاملة والمُداهنةِ ، فما كلُّ وقتٍ تصلح

= وإنى لترّاك الضغينة قد بدا ثراها من المولى فما أستثيرها
مخافة أن تجنى على وإنما يهيج كبيرات الأمور صغيرها
(شرح المرزوقى ٣/١١٢٣) .

(١) فى الأصل (من لفا هذا إلى محبوس ذا) . والتصويب من الديوان .
وقبل البيت قول البحترى :
أصل النزر إلى النزر وقد يبلغ الحبل إذا الحبل وصل
ديوان البحترى ١/٢١٥ .
اللفاء : على وزن سماء التراب وكل خسيس حقير يسير . مخسوس : من خس فلان نصيب فلان إذا جعله خسيسا دنيئا حقيرا .
الذود : من ثلاثة أبعرة إلى عشرة أو خمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين أو ما بين الثنتين والتسع . وقولهم (الذود إلى الذود إبل) يدل على أنها فى موضع اثنتين لأن الثنتين إلى الثنتين جمع (القاموس المحيط مادة ذود) .

الملاَينةُ ، وليس كلُّ ذنبٍ يَحْتمِل الإغْضاءَ والطَّيَّ ، ومن الأمراض مالا يُحْسَمُ إلا بالكَيِّ وأفْسَدُ الأشْياءِ لقانون الرِّياسةِ وَضْعُ الصفْحِ مَوْضِعَ السِّياسة ، وأدْعَى الأشْياء إلى انحلال النِّظامِ ، الصفْحُ عن ذوى الذنوب والأجْرام » .

وهذه الأخيرةَ ، قد تقدم نظيرُها ، وهو قولنا : فأدْعَى الأشياء إلى انحلال النظام ، وَضْعُ العفْوِ مَوْضِعَ الانتقام ، وقد ذكرنا بيت أبى الطيب الذى آخذناها منه(١) .

ومن ذلك قولى فى خاتمة الوَصايا فى هذا التوقيع : « ولا حاجةَ لنا مع كمالِهِ وسَدادِه ، وهَدْيِه المُجْمَعِ عليه وَرشادِه ، إلى استِقْصاء مافى الوصايا والأوامِرِ ، ولوتَيَقّنَ الكتابةَ لقال فيها كم تَرَكَ الأوَّلُ للآخِرِ ، فهو يخترع من محاسن التَّصرُّف من الخِدْمةِ مايَعْجزُ عنه الكبيرُ من أرباب السياسة والتدبير ، ويستنبط بِخبرتِهِ ما يستغنى به عَمَّنْ يُرْشده ، ولايُنَبِّئُك مِثْلُ خَبيرٍ »(٢) .

فآخر هذا الفصل من الكتاب العزيز ، وصدرهَ مَثَلٌ شعرى نظمه أبو تمام فقال :

لازلتَ من شُكْرِىَ فى حُلةٍ ... لابُسُها ذو سَلَبٍ فاخرِ
يقول من تقرعُ أسْماعَهُ ... كم ترك الأول للآخر

ومن ذلكَ قولِى فى هذا التوقيع : « ولُيطالِعْ الديوانَ العزيزَ بأحْوال عَمَلِه

---

(١) البيت الذى يريده هو :
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف فى موضع الندى
(٢) سورة فاطر ١٤ .
(٣) من قصيدته فى مدح أبى سعيد التى مطلعها :
قل للأمير الأريحى الذى ... كفاه للبادى وللحاضر
الديوان ٢/١٦١ .

فى أوقاتها ، من غير إرجاء يُفضى إلى فواتها ، مستمدا من تدبيره الصائب ورُشده ، مايُبْصِرُ به سَبيلَ قَصْده ، ومُستنجِداً من رأيه الثاقب ما إذا شدَّ بزَنْده ضَرَبَ بنصلٍ يقطعُ الهامَ من غِمْده » .

هذا يتضمن من الأمثال الشعرية قول أبى الطيب المتنبى :

إذا شدَّ زَنْدى حُسْنُ رأيك فى يدى ضَرَبْتُ بنَصْلٍ يقطعُ الهامَ مُغمَدا[١]

ومن ذلك قولى فى توقيع بعض مُشْرِفى الأعمال فى ذكر الأمانة : « فإنها الدرع التى تَسْخَرُ بالنِّبال ، وتهزأ بالنِّصال ، وتضمن سلامةَ دَارِعها يوم النِّزال . وقلَّ مَنْ أصبح منها حاسرا ، إلا وأمْسَى فى صَفْقته خاسرا ، أو كان لها مُجانِباً ، إلا ونزَلَ عن السعادة جانبا ، فالأمانةُ سِرُّ المرء وَجوهَرُه ، وباطنُ الإنسان وَمَخْبَرُه ، وبها يُستَدَلُّ على شرف نفسه وديانتها ، ومنها يُعْلَمُ ثمنُها ومقدار قيمتها ، فإن كَمُلَتْ وتمَّتْ دلَّتْ على عزة النفس وعُلُوِّها ، واحتقارها لدنايا الحُطام وسُمُوِّها ، وإن نقَصَتْ أبانَتْ عن لؤم المرء ونَقْصِه ، وكشفَتْ عن شَرَهِه وحِرْصِه ، فَيَسْتَسْلِفُ عاجلا أقْبَحَ الذِّكْرِ ، ويتحمل آجلا أثْقَلَ الوِزْر ، وقَلَّ أن يَعْدَمَ بينهما تقديم العقوبة وتعجيلها ، وطروق الحادثةِ وحلولها ، فلتكُنْ عصمةَ اللهِ ممن يَسْتَشْعِر الحذَرَ ، ويشاهد الأشياء بالبصيرة قبل مشاهدتها بالبَصَر » .

وفى أول هذا الفصل معنى قول الراجز ، وقد صار مثلاً :

---

(١) من قصيدته فى مدح سيف الدولة التى مطلعها :

لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا

الديوان ١/١٩٣ .

ونَثْرة(١) تهزأ بالنصال كأنها من خِلع الهلال

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع : « غير مستهين بالنَّزْر اليسير ، ولامُغض عن الأمر الحقير ، ولامسامحٍ فى الفتيل ولا النَّقِير ، فقد يهدى الأبْؤُسُ الغُوَيْر ، وكم مطرٍ بدؤه مُطَيْر » .

فى هذا الكلام ثلاثة أمثال : أحدها الفَتِيل(٢) والنَّقير(٣) ، والثانى قولهم عَسَى الغُوَيْرُ أَبْؤُساً(٤) . وقد نظمه أبو تمام فقال :

أَهْدَى لها الأبؤسَ الغُوَيْرُ كم مطرٍ بدؤه مُطَيْرُ(٥)

ومن ذلك قولى فى توقيع لبعض المشرفين أيضا : « سكونًا إلى تَدَرُّعه من العِفَّة والنزاهة بأَوْفَى جُنَّةٍ ، والاعتصامِ من حولها وقوتهما بأَتَمِّ حَوْل ، وأَعْظَمِ مُنَّة ، واتحادهما أَلْزَمُ فَرْضٍ وآكَدُ سُنَّة ، فليواظب على حَجِّ كَعْبتهما ، والتوجه إلى قِبلتهما ، والتَّدَيُّن بِشَرْعِهما ، والسلوك فى شِرْعتهما ، وليستمر

(١) النثرة : الدرع الملساء أو الواسعة .
(٢) الفتيل : السحاة التى فى شق النواة .
(٣) النقير : النكتة فى ظهر النواة .
(٤) الغوير : تصغير غار . الأبؤس : جمع بؤس وهو الشدة . وأصل المثل فيما يقال من قول الزباء حين قالت لقومها عند رجوع قصير من العراق ومعه الرجال وبات بالغوير على طريقه : عسى الغوير أبؤسا . أى لعل الشر يأتيكم من قبل الغار . وجاء رجل إلى عمر ابن الخطاب يحمل لقيطا فقال عمر : عسى الغوير أبؤسا . قال ابن الأعرابى إنما عرض بهذا الرجل ، أى لعلك صاحب اللقيط . ونصب أبؤسا على معنى عسى الغوير يصير أبؤسا . وقال أبو على جعل عسى بمعنى كان ونزل منزلته . يضرب للرجل يقال له لعل الشر جاء من جهتك .
مجمع الأمثال ١/٣١٢ .
(٥) لم نعثر على النص بديوانه .

على التَّغَشّى بِبُرْدِها السَّنِىّ، والتَّعَرِّى عن ثوب الإسْفافِ الدَّنِىّ ، وليكن فى إحْراز الذكر الجميل إذا عَرَضَ ماهرا ، ولنفسه عن مَطْعَم السوء إن اعترض قاهِراً ، وفيما يثبت ندمه جاهدا ، وللشيطان المسئول له مُجاهدا ، ليكون بأفعاله الحسنة مكافيا للإنعام ، ومستحقا لزيادة الموهبة والدوام ، فقديما قيل فى المثل الْزَمْ الصِّحةَ يلزمك العمل » .

وقد ذكره عبد الحميد بن يحيى الكاتب فى رسالته إلى الكتاب .

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع »: فإذا كان وقتُ الحصاد ، وتَفَتَّقت الأكمام عن ثِمار الاجتهاد ، رَتَّبَ من الأعوان مَنْ يَثِقُ بمُناصَحته ، ويَسْكُنُ إلى حراسته ، وأذْكَى عليهم عُيونَ التَّطَلُّع ، وأَصْغَى إليهم بمسامع التَّصَفُّح والتَّتَبُّع ، فمن وجده للمَحجَّةِ سالكا ، وللدناءة تاركا ، أَقَرَّه واستخدمه ، وأدْناه وَأَكْرَمه ، ومن أَلْفاه عن الجَدَدِ[1] ناكبا ، ولاتِّباع الطمع راكبا ، أَحْسَنَ تَأْدِيبَه وتَقْويمه ، وفَرَى بضَرْب السياسة أَدِيمه ، وجعل ما يعتمده من نَكالِه رادعاً لأمثاله ، ونافعا له فى مستقبل أَمْره ومآله ، فليس الكَهْلُ كالحَدَثِ الصَّبِىّ ، ولا القَارِحُ[2] كالجَذَعِ[3] الفَتِىّ . والحوادثُ ذَخيرَةُ العواقب ، والمصائبُ أثمانُ التَّجارب » .

هذا معنى قولهم فى المثل المشهور : إن المصائب أثمان التجارب .

---

(١) الجدد : المراد الطريق الواضح .

(٢) القارح : البازل وهو البعير فى سنته الخامسة .

(٣) الجذع : البعير فى سنته الثالثة .

ومن ذلك قولى فى آخر هذا التوقيع : « فحقيقٌ عليه بعدَ تعيينه واختباره ، وإفرادِه بالتقديم والتأهيل وإيثارِه ، أن يهجُرَ لذّةَ الرُّقادِ فى بلوغ المراد ، وأن يكون لينُ المِهادِ عنده أخشنَ من شوْكِ القَتَاد[١] ، إلى أن يقال له قد رَقيتَ ولَقيتَ ، وعولج بك فشُفيتَ » .

هذا ينظر إلى قول ديك الجن[٢] :

فإذا شُوفى بى كنت حِماما وإذا عولج بى كنت شفاء

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع أيضاً : « وليواصل مُتجدِّداتِ العملِ فى أوقاتها ، على اختلاف أنواعها وجِهاتها ، ولا يَستحقِرُ منها حقيرا ، ولا يستصغر صغيرا ، فالكتاب سَطْرٌ إلى سَطْرٍ ، وأول الغيْثِ قَطْرٌ إلى قَطْر » .

هذا هو البيت المشهور للطائى :

وأزرقُ الفجر يبْدُو قبل أَبْيضهِ وأَوَّلُ الغَيْثِ طَلٌّ ثم ينسكب[٣]

ومن البديع النادر اللفظة التى ضممتها إليه وهى قولى : فالكتاب سطر إلى سطر .

ومن ذلك قولى فى توقيع لبعض النظار : « وليَشْرَعْ فى تَطْوافِ المعاملات

---

(١) القتاد : شجر له شوك .

(٢) اسمه عبد السلام بن رغبان وديك الجن لقب غلب عليه .
وهو شاعر مجيد يذهب مذهب أبى تمام والشاميين فى شعره ، وكان من ساكن ولم يبرح نواحى الشام ولا وفد إلى العراق أو غيره منتجعا بشعره ، وكان يتشيع تشيعاً (الأغانى ١٢/١٣٦) .

(٣) سبق هذا البيت فى توقيع لابن أبى الحديد .

واستقرائها ، وتَصَفُّحِها واستِبْرائها ، ومشاهدة مزروعها وضِياعها ورساتيقها[١] وبقاعها ومحاويلها وأَعْمدتها ونَواحِيها وأَكَرَتِها[٢] ، ليحصل عنده صُوَرُها وأَشْكالها ، ويثبت فى ذهنه هيئتها وخَيالها ، ولا يقنع بالأَخْبار والسَّماع ، والتعويل على ما فى المطالعات والرِّقاع .

فليس الخبَرُ كالعِيان ، ولا التقْليد كالبُرْهان ، ومَنْ عوَّل على سماع الأقوال ، واكتفى بها عن مشاهدة الأحوال ، قَصُرَتْ بَنانُهُ عند المطاولة ، وأُفْحِم لسانُهُ عند المجادلة ، وكان مُنْقَطِعَ المادة ، محتاجا لنَقْصه إلى التَّمام والزِّيادة .

ولْيُوَاصِلْ الحركة التى يُدْرِكُ بها ما بَعُدَ من أَعْمالِه ونأى ، كإدْراكه ما قَرُبَ إليه ودنا ، بحيث يكون كلُّ عامل من عُمَّاله ، ومُتَقَدِّمٍ من أَكَرَتِه ورجاله ، لا يأمن هُجُومَهُ على غِرَّة ، وقدومَهُ على فَتْرة ، فتكون عُمَّاله كلُّها آخذةً أُهْبَتها ، لابسةً زينتها ، منتظرةً طلوعه عليها ، مرتقبةً وصوله إليها ، فلا يزال الاجتهاد فيها بَيِّنَ المنار ، ظاهر الآثار » .

هذا المعنى ينظر إلى قول (بنت) المنتشر بن (وهب) الباهلى[٣] فى قصيدتها المشهورة :

---

(١) الرساتيق : جمع رستاق فارسى معرب والمراد المزرعة .
(٢) الأكرة : جمع أكار وهو الحراث :
(٣) كان الأصل (أخت المنتشر بن الباهلى) .
وهى الدعجاء بنت المنتشر بن وهب بن سلمة . قال السيد المرتضى فى أماليه : إن هذه القصيدة من المراثى المفضلة المشهورة بالبلاغة والبراعة ، وقيل إنها للدعجاء أخت المنتشر والصواب بنته .

لا يأمَن القومُ مُمساهُ ومُصْبحهُ

من كل أوْبٍ وإن لم يَغْزُ يُنْتَظَرُ

ومن ذلك قولى فى صدر توقيع لـكاتب : « لما كانت الـكتابة الفلانية محتاجةً إلى ناهض بأعبائها ، فارجٍ لغمَّائها ، كاشف لمُبْهَمِها ومجهولها ، ضابطٍ لمجْمَلها وتفاصيلها ، نُثِلَتْ(١) كِنانةُ الرجال ، وعُجِمَتْ عِيدانُ النِّصال ، وانتَصَبَتْ صوارمُ الـكُتَّاب الأجْلاد ليوم الجِلاد ، وأُجْرِيَتْ سوابقُ الـكتابة فى مِضْمار السِّباق والطِّراد ، كان فلان أوْراها زَنْداً ، وأرْواها عَدًّا ، وأصفاها وِرْداً ، وأضفاها بُرْداً ، وأتقنها صِناعة ، وأوسعها بِضاعة ، وأطْهَرها جَيْبا ، وآمنها غَيْبا ، وأبعدها عَيْبا ، فمُوِّلَ عليه فى الـكتابة بالأعمال المذكورة ، علما أن قلمه يتمِّم نَقْصَها ، ويرْقَع خَرْقَها ، ويَرْأَبُ صَدْعَها ، ويَجْمَعُ شَمْلها ، ويَجْبُرُ وَهَنها ، ويلُمُّ شَعَثَها ، ويَسُدُّ خَلَلَها ، ويَمْحُو زَللها ، ويُحْيِي رُسُومها الدَّاثِرة ، ويَعْمُرُ ربوعها العافية » .

أول هذا الفصل مأخوذ من قول الحجاج فى خطبته بالـكوفة : إن أمير المؤمنين نَثَلَ كنانته فَعَجمها عُوداً عودا ، فوجدنى أشدَّها عودا ، وأصْلَبها مَـكْسِرا(٢) .

= وكثير من الأدباء ينسب المرثية إلى أعشى باهلة واسمه عامر بن الحارث بن رباح ، وهو أخو المنتشر لأمه ، ومرثيته فى جمهرة أشعار العرب بين المراثى السبع .
(خزانة الأدب والـكامل للمبرد وجمهرة أشعار العرب والأصمعيات وتاج العروس ٥٦٧/٢) .

(١) نثلت الـكنانة : استخرج الرجل نبلها فنثرها .
وفى الأصل (نـكبت) .

(٢) عجم الرجل العود إذا عضه ليعرف صلب هو أم رخو . هذا هو الأصل فيه .
والخطبة بتاريخ الطبرى ٢١٠/٧ وتهذيب الـكامل للمبرد ١٧٠/١ .

وَباقى ألفاظ هذا الفصل ثلاث تجرى مجرى الأمثال .

ومن ذلك قولى فى صدر توقيع يصلح أن يوقع به لعارض الجيش وهو :

« عوائدُ الديوان العزيز إهداء عقائل النِّعم إلى الأكفاء ، وإسداء صنائع الكرام إلى الأولياء ، وإيداع المعروف حيث يُنْشَرُ ويُشْكَرُ ، لا حيث يُجْحَدُ ويُكْفَرُ ، وعند من يعرف مواقعه ، لا عند من يُنَفِّرُ واقعه ، وأن يتخير لعروسِ إحسانه أطيبَ المغارسِ وأزكاها ، وأخلقَها أن يَجْلُوَ لى حُسْنَاها ، لتكون نعمه مستقرَّةً فى نِصابها ، رافلة فى قشيب جِلْبابها ، مُودَعةً حيث تُصانُ الودائع وتزكو الصنائع .

ولما كان فلان الرجلَ الذى تُضْرَبُ به الأمثال ، ولا تَعْدِله الأمثال ، والمهذَّبَ الذى لا يُسْأَلُ له أىٌّ الرجال ، والفائزَ بشرف الاستعلاء على الأوَّلين والحائزَ لقَصَب السَّبْق يَوْمَ الرِّهان ، والمتوحِّدَ بخصائصه عن مُزَاحمة المثالِب ، والمُنْفَرِدَ عن الأضراب بجميل الضَّرائب ، رأى الديوانُ العزيزُ الإنعامَ عليه بِرَدِّ النظر فى ديوان العرض المعمور إليه ، علما باستقلاله واضطِلاعه ، وثقةً بسعة صَدْره وامتداد باعه ، وسكونا إلى إغنائه وغَنائه ، وإيفائِه ووفائِه ، وعامه وتيقظه ، وحَزْمِهِ وتحَفُّظه ، وطمأنينةً إلى قيامه بالمهم ، ودفاعه للمُلِمّ ، وثباته حين تَطِيشُ الحلومُ ، وانتصاره حين يَجِيشُ الخصُوم · فليقابِلْ هذه النعمةَ بالشكر الذى يكون لزيادتها مُقْتَضِياً ، ولمضاعفتها مُمْتَرِيا[1] ، ولأمثالها

(١) ممتريا : المراد جالبا وجاذبا من مرى الضرع إذا مسحه ليدر .

مُسْتَمِدا ، ولما أَخْلَقَ منها مُسْتَجِدًّا ، فالنعمة ضيف قِراهُ الشكر إن وَجدَته لم تَرِم[١] ، وإن فقَدَته لم تقِمْ » .

فى هذا الكلام إشارة إلى قول النابغة :

ولستَ بمستَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ ‏ ‏ على شَعَثٍ أىُّ الرجالِ المهذَّبُ[٢]

ومن ذلك قولى فى هذا التوقيع : « ولينتَصِبْ لاستيفاء أموال الإقطاعات انتصابا يَظْهَرُ أثَرُه ، ويُجتَنَى ثَمَرُه ، فى ضِمْنِ قوةٍ خالية من العُنف ، ولينٍ لا يُنْسَبُ معه إلى ضعف ، فالزعماء كَثَّرهم الله أولو الحَمِيَةِ ، والنفوس الأَبِيَّة ، وعلى الحقيقة فهم السِّباعُ الوَحْشِية فى الصُّور الإِنْسية . فليحسِنْ التوصل فى مُداراتهم ، والاستيفاء منهم ، والاستعانة بهَيْبَةِ الدِّيوان العزيز عليهم ، غير مراقِب من ذلك لعظيمٍ منهم ولا جَليلٍ ، ولا مُغْضٍ عن كثير مما عليهم ولا قِليل . فبا لمال تُستمال الرجال ، وتُبْلَغُ الآمال ، وتُفْتَحُ الصَّياصِى[٣] وتملكُ النَّواصِى ، ويستدنى القاصِى . والجُنْدُ بالمال يُجْمَعُ ، والمُلْكُ بالجند يُمْنَعُ » .

فى هذ الفصل إشارةٌ إلى الغزّى[٤] فى صفة الأتراك :

من رأى قبلهمُ مجتمعا ‏ ‏ خِلقَةَ الناس وأخلاق الأسودِ

---

(١) لم ترم : لم تزل .

(٢) من قصيدته فى الاعتذار للنعمان بن المنذر .

(٣) الصياصى : الحصون جمع صيصية .

(٤) هو أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان بن محمد الكلبى الأشهبى ، كان شاعرا محسنا ، ولد بغزة سنة ٤٤١ وتوفى سنة ٥٢٤ هـ بين مرو وبلخ ودفن بها .

ومن ذلك ما قلت فى صدر توقيع الناظر بالسواد : «لما كان فلان ممن خُبِرَ رشادُه فِعْلا ، وسداده قَوْلاً ، وتكاملَتْ محاسنهُ وخصائصُه ، فلا يقال فيها لَوْلاَ ، وسبقت له سوابقُ الكتابة التى تَقَلَّد نِطاقَها ، وأقام أسْواقها ، وأحْكَمَ مِيثاقَها ، واجْتَلى بها عقائلَ المحامدِ بعد أن أغْلى صَدَاقها ، وحُمِدَتْ مذاهبهُ فى حال إصْدارِه وإيراده ، وشَهِدَتْ بعفافه وأمانته ألسِنَةُ أوليائِه وحُسَّاده ، رأى الديوانُ العزيزُ الإنعامَ عليه بنظر كذا ، فليسْألِ اللهَ التوفيق والخيرةَ ، وليُقدِّمْ تَقْواه فهى أنْفَعُ عُدَّةٍ ، وأنفَسُ ذَخيرةٍ ، ولْيَتَوجَّهْ إلى الأعمال المذكورة بصَدْرٍ رَحْبِ الفِناء ، وعَزْمٍ نافذ المَضاء ، وأمَلٍ واثقٍ بشمول الآلاء ، ولْيَسْلُكْ فى جميع أنحائه مَسْلَكَ أمثاله من ذوى الرَّشاد والتحصيل ، ولا يَتَّبع الهوى فَيضلَّ عن سواء السبيل»[(١)] .

آخر هذا الكلام من القرآن العزيز ، وفى أوله إشارةٌ إلى قول القائل :

كملت لَو انَّ ذابكَ لا أقولُ ليس فيهــــــا ما يقال له

وأنا أختم هذا الفصل بتوقيع كتبته لبعض الزعماء ، وقد رتب شحينة واسط وهو : «أوْلَى الأَوْلياءِ باجْتلاءِ عقائل النِّعم الجزيلة ، وامتطاء كواهلِ الرُّتب الجليلة ، واعتلاء صَهَوات المنازل السَّنِيَّة ، وارتقاء دَرَجاتِ المناصب العَلِيَّة من مَحُضَتْ طاعته وعُبودِيَّتُه ، واستوى سِرُّه فى الإخلاص وعلانيته ،

(١) سورة ص ٢٦ (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

وحَسنتْ أفعاله وآثاره ، وطابت أنباؤه وأخْباره ، وكَرُمَ مَغيبُهُ ، وعَظُمَ مَشْهَدُه ، وأبَرَّ يومُهُ على أمْسِه ، وأرْبَى على يومه غدُه .

ولما كنت أيها الأميرُ الأجَلُّ فلانَ الدِّين الجامعَ هذه الأوصاف والخصائص ، والمتحلى من جواهر المناقب بما لم تَظْفَرْ بمثله يَدُ غائصٍ [١] ، واقترنَتْ بمسألتك التى سَالَتْ منها السيوفُ نُفوسا ومهجا ، وبرمايتك التى لم يجعل الله تعالى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً [٢] .

هذا مع ما خُصِصْتَ به من وُفورِ آياتك ، ورُجْحان حَصافَتِك ، وعُلوِّ همتك ، وطهارة شيمتك ، وأنك بذَذْتَ الأشكال والأضْراب ، وأوتِيتَ حزْمَ الشَّيخوخةِ فى عُنفُوان الشَّباب ، رُبِّى الإنعامُ عليك بردٍّ شحينة الأعمال الواسِطية إليك ، لاستقبال كذا .

فتلَقَّ هذه النعمةَ التى تُرْضِيك بشكرٍ يُرْضيها ، وهذه المنزلة التى تضاهيك بجَمْدٍ يُضاهيها ، وتَوَجَّهْ إلى الأعمال المذكورة بصَدْرٍ رَحْبٍ ، ورَأْىٍ مُصيبٍ ، وسيف من دَمِ أهل الكيد خَضِيب ، واسْتَشْعِرْ تقوى الله فالعاقبةُ لأهلها وقِفْ عند حُدودِها ، ولْتَسْتَظِلَّ بظلِّها ، وتَذَكَّرْ لها كلمةً قصيرة غير طويلة : « إن الله مع الذين اتقوا » [٣] ونَاهِيك بها فضيلةً .

---

(١) بالأصل (بما لم يظفر مثله بدعائص) .

(٢) الأمت : العوج والاختلاف فى الشىء والعيب .

(٣) سورة النحل ١٢٨ .

وابدأْ بالرِّفق الذى ما دَخَلَ فى شىء إلا زانه ، ولا استعان به أحدٌ فى مُشْكِلٍ إلا أعانه .

والْقَ الناسَ ببِشْرِك ولُطْفِك وطَوْلِك(١) ، ولا تبدأهم بالفَظاظةِ ، فلو كنت فَظًّا غليظ القلبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِك(٢) .

والرَّعايا فهم الودائعُ عندك الموثوق لهم أن تُلْحِقهم أمانَك ورِفقَك ، وتفرِشهم(٣) سَدادك ورُشْدك ، واكْفُفْ عنهم الأَذَى ، وأَزِحْ عنهم القَذَى ، وقل لهم كما أدَّبَك الله حُسْنا ، وبَدِّلْهم مِنْ بَعْدِ خَوْفهم أمْناً ، ولا تمدن عينيك إلى ما متَّعْنا(٤) ، وكُنْ لهم حِسْبةً(٥) من الجَوْر وحِصْنا ، واحْمِهِمْ ممَّنْ يتعرضُ بهم فى عرض هذا(٦) الأَنْى ، واسلك بالمَعْدَلةِ فيهم صِراطا سويًّا ، واجل قَوِيَّهم فى الباطل ضعيفا ، وضعيفهم فى الحق قَوِيًّا .

وحراسةَ الارتفاقات الدِّيوانية بالسَّطَوات المرهوبة ، والنِّقَمات المصْبوبةِ ، والهَيْبةِ التى تملأ القلوب ارْتياعا ، وتطير الأَنفُس منها شَعاعا ، فأَنْتَ فارسها

---

(١) الطول والطائل والطائلة : الفضل .

(٢) سورة آل عمران ١٥٩ (ولو كنت فظا ...) .

(٣) تفرشهم سدادك : توسع لهم فيه أى تشملهم به .

(٤) سورة طه ١٣١ (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) .

(٥) الحسبة : من قولهم حسن الحسبة أى حسن التدبير.

(٦) الأنى بفتح الهمزة أو كسرها وسكون النون فيهما والأناء بالمد الوهن والساعة من الليل.

المُعْلِم[١]، وشُجاعها المقدَّم، ولَيثها الذى تُحْجِم الليوثُ ولا يُحْجِم، فامْدُدْ وطأتك على أهل الرِّيَبِ والفَساد، وَشرِّدْ بهم عَنْ جميع الأعمال والبلاد، وانتدِبْ للقيام بسياستهم كانتدابك للقيام بالفَرْض، فما كان لزعيم أن تكون له سياسةٌ حتى يُثْخِنَ[٢] فى الأرض.

والأموالُ المتمزقة فى أقصى الأعمال ونائيها[٣] لا تُحْرسُ إلا بإراقة الدماء على جوانبها، ومن الجَوْرِ البيِّن والحَيْفِ وَضْعُ الصَّفْحِ مَوْضِعَ السَّيْف.

ونوابَك الذين تُرَتِّبهم فى الأعمال، وتستعينُ بهم على حِراسة الأموال، فاْصلحهم أولاً وطَهِّرْهم، ليَحْصُلَ بهم الصلاحُ والطَّهارة، ولا تَرْضَ لهم أن يكونوا ممن يأمر الناسَ وَينْسَى نفسه الأمَّارةَ.

وألْزِمْهم بمداومةِ فعلِ الخير يكونوا (أهله)، ولا تجعلهم ممن يَنْهَى عن خُلُقٍ ويَأْتِيَ مثله.

وأقِمْ عليهم الأرْصادَ، واقْعُدْ لهم بالمِرْصادِ، ورُضْهم على اتِّباع منهاجك القويمِ، واهتداء صِراطك المستقيم، وعلمهم من سجاياك المحمودةِ مالم يَعْلَمُوا «وفوق كل ذى علم عليم»؟

وحراسةَ الطرق والمذاهبِ، وحماية المسالك والمشاربِ، وقمْعَ كلِّ ناجمٍ

---

(١) الفارس المعلم: بكسر اللام هو الذى يجعل لنفسه علامة الشجعان فى الحرب.
(٢) يثخن: من أثخن فى العدو أى بالغ الجراحة فيهم، وأثخن فلانا إذا أوهنه، وقوله تعالى (حتى إذا أثخنتموهم) أى غلبتموهم وكثرت فيهم الجراح.
(٣) بالأصل (ودانيها)

بفساد ، أو قادح للشَّر بزِناد ، أو مُخيف سبيلٍ ، أو قائدِ رَعيل[١]

فكن فى ذلك كالليث السَّغِب[٢] ينهض إلى فريسته ، والصقْرِ القَطِمِ[٣] يَنْقَضُّ على طَرِيدته ، حتى تُوسِعَ كلَّ ساعٍ بالفساد قتلاً وأسْراً ، وتُوثِقَ كلَّ عادلٍ عن السَّدادِ حَبْساً وحَصْراً ، وتأْمَنَ السُّبلُ والأَطْرافُ ، وتصبح الناسُ فيها كحمام الحَرَمِ لا يُخاف .

فهذه الأعمالُ مُظْلمةٌ ، فكُنْ أضوأ من السِّراج ، وهذه المَدَرةُ[٤] حَجَّاجِيَّةٌ[٥] فكن أهْيَبَ من الحَجَّاجِ .

وقد تَلَخَّصَ من مجموع وصايا المالك أن يكونَ الملكُ ذالونين : أزْهَرَ وأقتم ، وذا طَعْمين : أحْلَى من العَسَلِ ، وأمَرَّ من العَلْقَم ، وذا وجهين : طَلْقٍ وشَتِيم[٦] ، وذا يومين : يوم بُؤْسٍ ونَعيم .

والدعامةُ التى تَقُومُ بها السِّياسةُ ، وَيَنْصَبُّ عليها عَمَلُ الرياسة هى القوة من غير عُنفٍ ، واللِّينُ من غير ضَعفٍ ، فالرعيةُ كمريضٍ هذه زُبْدةُ عِلاجِه ، والسياسة كبَدَنٍ هذا تعديل مِزاجِه .

واجعلْ أعظمَ كَدِّك ، وغايةَ قَصْدك ، استجلابَ الأدْعيةِ الصالحةِ

---

(١) الرعيل : الجماعة من الخيل ، والمراد هنا الثوار الخيالة .

(٢) السغب : الجائع ، وكذلك ساغب وسغبان .

(٣) القطم : الذى يشتهى اللحم . والقطامى بفتح القاف وضمها الصقر .

(٤) المدرة : المدينة .

(٥) حجاجية : حجاج بلدة فى بيهق .

(٦) شتيم : كريه الوجه عابس . كانت بالأصل (سئيم) .

لهذه الأيام الشريفة الزاهرة ، التى يَحْسُدها سائِرُ الأيام ، ويتنافسُ الناسُ عليها فلا يبيعون ساعاتها بالأعوام ، أن تدوم لأهلها فهم من الحوادث فى أمان ، وتُظَنّ لرَوْنقِها ونَضارتها أنها أيام الجِنان ، أَيَّدها الله بدوامٍ لا تماسُكَ لسحابه ، و بقاء لا نفادَ لحسابه » .

فهذه معظم وصايا التوقيع المذكور ، وقد تضمنت من ترصيع الآيات الشريفة والأبيات الشعرية والنكت والأمثال جملة صالحة .

أما الآيات الشريفة فقوله تعالى « لا ترى فيها عِوجاً ولا أمْتا[1] » وقوله تعالى « والعاقبة للمتقين[2] » وقوله تعالى « مع الذين اتقوا[3] » وقوله تعالى « ولو كنت فَظًّا غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا من حَوْلِك[4] » وقوله « وقولوا للناس حسنا[5] » وقوله « وليُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفهم أمنا »[6] وقوله « ولا تَمُدَّنَّ عينيك إلى ما مَتَّعْنا به أزواجا منهم[7] » وقوله : « يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى[8] » وقوله « أَهْدِك صِراطا سَوِيًّا[9] » وقوله « شَرِّدْ بهم مَنْ

(١) سورة طه ١٠٧
(٢) سورة الأعراف ١٢٨ (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وسورة القصص ٨٣ (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) .
(٣) سورة النحل ١٢٨ (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) .
(٤) سورة آل عمران ١٥٩ .
(٥) سورة البقرة ٨٣.
(٦) سورة النور ٥٥ .
(٧) سورة طه ١٣١ .
(٨) سورة الأعراف ١٦٩ .
(٩) سورة مريم ٤٣ (فاتبعنى أهدك صراطا سويا) .

خَلفَهم[١] » وقوله « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض[٢] » .

نقلته أنا إلى السياسة فقلت ما كان لزعيم أن تكون له سياسة حتى يثخن في الأرض[٣]

ولا يخفى ما فى النقل من اللطافتين . وقوله تعالى : « أتأمرون الناسَ بالبر وتَنْسَوْنَ أنفسكم[٤] » وقوله : « واقعُدوا لهم كلَّ مَرْصَدٍ[٥] » وقوله : « صراطك المستقيم[٦] » وقوله : « وفوق كل ذى علم عليم[٧] » .

وأما حَلُّ الأبيات الشعرية فقول الشاعر :

حالك اليومَ فوقَ حالك بالأمْـــسِ وأرجو لك المزيد غدا[٨]

قد نثرناه نحن فقلنا : وأبرَّ يومه على أمسه ، وأربى على يومه غده .

وقول السموأل :

تَسِيلُ على حَدِّ السُّيوفِ نفوسُنا وليْسَ على غير السُّيوف تَسِيل[٩]

(١) سورة الأنفال ٥٧ (فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون).
(٢) سورة الأنفال ٦٧ .
(٣) جملة مكررة فى الأصل حذفناها .
(٤) سورة البقرة ٤٤ .
(٥) سورة التوبة ٥ .
(٦) سورة الأعراف ١٦ (قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم) .
(٧) سورة يوسف ٧٦ .
(٨) حذفنا فى من (فى الأمس) ليستقيم الوزن .
(٩) فى شرح الحماسة للمرزوقى ١ / ١١٠ روايتان : (حد الظبات) و (حد السيوف) ونسبة القصيدة إلى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى أو للسموأل بن عادياء .
وأول الأبيات قوله :
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميـل

أخذناه فقلنا : بمسألتك التي سالت منها السيوف نفوسا ومهجا .

وقول المتنبي :

وشيخٌ فى الشباب وليس شيخاً   يُسَمَّى كلُّ مَنْ بَلغَ المَشيبا[1]

حللناه نحن فقلنا : وأُوتيتَ حَزْمَ الشَّيخوخة فى عُنفُوان الشَّباب .

وقول قطرى بن الفجاءة[2] من شعراء الحماسة :

أقول لها وقد طارَتْ شَعاعاً   مَن الأبطال وَيْحك لاتُراعِى

أخذناه فقلنا : تملأ القلوب ارتياعا ، وتطير النفوس منها شعاعا .

وقول المتنبي :

لا يَسْلَمُ الشرف الرفيعُ من الأذى   حتى يُراقَ على جوانبه الدَّمُ[3]

---

(١) من قصيدته فى مدح على بن محمد بن سيار بن مكرم التميمى التى مطلعها :
ضروب الناس عشاق ضروبا   فأعذرهم أشفهم حبيبا
الديوان ١/١٠١

(٢) فى الأصل (عمرو بن الإطنابة) والصواب أن البيت من أبيات لقطرى بن الفجاءة كما فى شرح التبريزى للحماسة ١/٥٠

(٣) من قصيدته فى هجاء إسحاق بن إبراهيم بن كيغلغ مطلعها :
لهوى النفوس سريرة لاتعلم   عرضا نظرت وخلت أنى أسلم
وكان أبو الطيب قد سار من الرملة يريد أنطاكية فنزل بطرابلس وبها إسحاق هذا ، وكان يجالسه ثلاثة من بنى حيدرة ، فقالوا لإسحاق : أتحب أن يتجاوزك ولايمدحك ؟ وجعلوا يغرونه ، فراسله أن يمدحه ، فاحتج بيمين لحقته ألا يمدح أحدا إلى مدة . فسأله عن طريقه ينتظر المدة . ومات الثلاثة الذين كانوا يغرونه فى مدة أربعين يوما . فهجاه المتنبى وأملى القصيدة على من يثق به ، ثم فر الى دمشق .
(الديوان ٢/٣٧٩) .

حللناه فقلنا : والأموالُ المتمزِّقةُ فى أقاصى الأعمال ونائيها لا تُحْرَسُ إلا بإراقة الدماء على جوانبها ·

وقول المتنبى أيضا : « ووضع الندى فى موضع الانتقام »[1] حللناه فقلنا : ومن الَجوْرِ البَيِّنِ والَحيْفِ ، وضعُ الصفح فى موضع السيف .

وقد حللت هذا البيت بعبارات ثلاث والمعنى واحد وقد تقدم ذكرها ، وهى : أَفْسَدُ الأشياءِ لقانون الرياسة ، وَضْعُ العفوِ موضعَ السياسة .

والثانية فأَدْعَى الأشياءِ إلى انحلال النظام ، وَضْع الصفح موضع الانتقام .

والثالثة هذا الموضع .

وقول القائل :

لا تَنْهَ عن خلق وتأتى مثــــله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم[2]

---

(١) يشير إلى قول المتنبى :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقد سبق .

(٢) المشهور أن هذا البيت لأبى الأسود الدؤلى من قصيدة له أولها :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم

وقد وقع فى قصيدة المتوكل بن عبد الله الليثى فنسبه بعضهم إليه . وهو شاعر فى عهد يزيد بن معاوية ، وقصيدته أولها .

للغانيات بذى المجاز رسوم فببطن مكة عهدهن قديم

قال شارح أبيات الإيضاح : نسب البيت إلى أبى الأسود الدؤلى وللمتوكل بن نهشل بن مسافع الليثى ، وللطرماح بن حكيم ولحسان بن ثابت وللأخطل .

وقال : الصحيح عندى أنه لأبى الأسود أو للمتوكل الليثى ، وقد رأيته فى قصيدة كل منهما (شرح شواهد المغنى للسيوطى وخزانة الأدب للبغدادى وشواهد العينى) .

وذكر الآمدى فى المؤتلف والمختلف ١٧٩ وذكر المرزبانى فى معجم الشعراء ٤١٠ أنه للمتوكل الليثى .

أخذناه نحن فقلنا : وألزمهم بمداومة فعل الخير يكونوا أهله ، ولا تجعلهم ممن ينهى عن خلق ويأتى مثله .

وقول ابن هَرْمة :

كريم له وجهان وجهٌ لذى الرِّضـــا
أسيلٌ ووجهٌ فى الـكريهة باســل(١)

أخذناه فقلنا : وذا وجهين طلق وشتيم .

وقول الشاعر :

له يوم بؤس فيه للناس أبؤسٌ ويومُ نعيم فيه للناس أنْعُمُ

أخذنا فقلنا : ذا يومين : يوم بؤس ويوم نعيم .

وقول الشاعر :

تنافس الناسُ فى أيام دولتـــه فما يبيعون أياما بأعـــــــوام

أخذناه فقلنا . ويتنافس الناس عليها ، فما يبيعون ساعاتها بالأعوام .

---

(١) هو إبراهيم بن على بن سلمة شاعر مجيد أدرك العصر العباسى .

وقد مدح المنصور بقصيدة مطلعها :

سرى ثوبه عنك الصبا المتخايل .

حتى انتهى الى قوله :

له لحظات عن حفافى سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل

(الأغانى ٥/١٧٢) .

وقول المتنبي :

نُسِقُوا لنا نسَقَ الحساب مقدَّماً وأَتى فذلك إذْ أتيتَ مُؤَخَّرا (١)

أخذناه نحن فقلنا : بدوام لا تماسك لسحابه ، وبقاء لا نفاد لحسابه .

وأما الأمثال والنكت فقولهم . مادخل الرفق فى شىء إلا زانه .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم فى دعائه على قريش : اللهم اشدد وَطْأَتك على مُضَر .

وقد صار ذلك مثلا سائراً .

وقولهم السياسة لِينٌ من غير ضعف ، وقوةٌ من غير عُنْف .

و يقال إن أول من قال ذلك أبو بكر الصديق . وقولهم : هذا عصر تحسده الأَعْصُرُ الخالية ، وقد جاء فى الشعر كثيرا ، كقول ابن هانىء :

فأما اللَّيالى السالفاتُ فقطَّعَتْ أناملَها من حَسْرةٍ وتَنَدُّمِ
وأما الليالى الحاضراتُ فأدْركَتْ مآرِبَها من بَهْجةٍ وتَكَرُّمِ

---

(١) من قصيدته فى مدح أبى الفضل محمد بن العميد التى مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

وقبل البيت قوله :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا ...

(الديوان ١/٣٧٠)

أى أنه جمع من الفضل ما فى أولئك السابقين جميعا ، لأنهم مضوا متتابعين متقدمين على ابن العميد ، فلما أتى كان فيه من الفضائل ما كان فيهم ، مثل الحساب تذكرت تفاصيله أولا ثم تجمل التفاصيل فتكتب فى آخر الحساب .

وفى الفصول المذكورة من الألفاظ والنكت الجارية مجرى الأمثال ، عدا ما ذكرناه ما لا خَفاءَ به .

فهذه نبذة من حَلِّ المنظوم ذكرناها كعُجالة القِرَى[١] ، وكهيئة الطَّارق إذا عَرا[٢] .

إن وجدنا أدنى فُسْحةٍ أتممنا ما شَرَعْنا فيه من حَلِّ سَيْفِيَّات أبى الطيب المتنبى ، وتقريبها إلى خِزانة مالك الأمر ، ووارث الدهر ، جعله الله بألْطافِهِ وكراماته الجليَّةِ ممنوحا ، وأعطاه من البَسْطةِ فى المُلْك والعُمْرِ مالم يُعْطه الإسكندر ونوحا .

— ٥٠ —

قال المصنف : وقد ذكر ابن سِنان الخفاجِىّ أنّ أحَدَ ما يشترط فى حُسْنِ اللفظة أن تكون مخارج حروفها متباعدة .

قال : وهذا باطل ، لأنه لو كان العلم بحسن اللفظة وقبحها مشروطا بِتَبَاعُدِ مَخَارجها أو تقاربها، لوجب ألا يُحْكَمَ على الفَوْرِ بقُبْح لفظة أو حسنها حتى تُعْتَبَرَ مخارجُ الحروف .

ونحن نجد الأمر بعكس ذلك ؛ فإنا ساعةَ ما نسمعُ اللفظة نُفْتِى بحُسْنها أو قبحها . وماذاك إلا لأن هذا أمرٌ يرجعُ إلى حاسَّةِ السمعِ ، فإذا اسْتَحْسَنَتْ

---

(١) عجالة القرى : ما يقدم فى سرعة للضيف .

(٢) الطارق : من يطرق الباب ليلا . عرا : غشى وجاء طالبا المعروف .

شيئاً أو استقبحته ، وَجَدَتْ ما تستحسنه متباعدا مخارج الحروف ، فاستحسانها واستقباحُها إنما قَبْلَ اعتبارِ المخارجِ لا بعده(١) .

أقول : ليس بمُنكرٍ أن يُعْلَمَ المعلولُ قَبْلَ العِلَّة ، والمشروط قبل الشرط. ألا ترى أنك إذا رأيتَ الجاريةَ الحسناء ، فإنك تستحسنها على الفوْرِ ، ولا يتَوقّفُ استحسانك إياها على أن تَسْتَحْضِرَ فى ذهنك عِلَّةَ الحُسْنِ من رِقَّةِ شَفَتَيْها وأَنْفِها وامتداد سالِفَتَيْها ، ومُخالطةِ الحمرةِ للبياض فى بَشَرةِ وجهها ، وغير ذلك من أَسْباب الحُسْنِ . ولا يطعن حكمك بالحُسْنِ على الفوْرِ فى تعليلى الحَسْنِ بهذه الأمور ؟

ومن ذلك أنه قد اعْتَرَفَ أن كل ما تستقبحه من الألفاظ تجده متقارِبَ الحروف ، وما تستحسنه منها تجده متباعِدَ الحروف ، ولـكنه زَعَمَ أنه لا يُعلَّلُ الاستقباحَ والاستحسانَ بهما ، فقال له إذا كان تقاربُ المخارجِ والاستقباحُ متلازِمَيْنِ لا يفترقانَ ، فلابُدَّ من أمرٍ أَوْجَبَ مُلازَمتَهما ، فيمكنك أن تَقُولَ إن الاستقباحَ أَوْجَبَ تَقَارُبَ المخارجِ فيما هو متقاربُ المخارجِ ، وهو أمرٌ ذاتىٌّ له لا يَتوقَّفُ على الاستقباح .

فإذا لم يكن الاستقباحُ أَوْجَبَ تَقَارُبَ المخارج ولا بُدَّ لملازمتِهِ إياه من سببٍ ، فلاسَبَب إلا أن يُقَال : المخارجُ عِلَّةَ الاستقباح .

---

(١) المثل السائر ١ / ٢٢٢ بتلخيص .

— ٥١ —

قال المصنف : وقد وجدنا ألفاظا متقاربةَ المخارجِ وهى غير مستقبحة ، كلفظة مَلَعَ إذا عَدَا وأسْرَعَ[١] .

أقول إن ابنَ سِنان لم يَدَّعِ الاطِّرادَ المُطْلَقَ ، وإنما قال إن الأكثرَ الأغلبَ استقباحُ الألفاظِ المتباعدةِ المخارج ، إذا لم تُوجَدْ فيها عِلَّةٌ أخرى تُوجِبُ استقباحَها ، والشَّاذُّ لا يُعْتَدُّ به .

على أن هذا لازمٌ له ؛ لأنه قد اعترف أن كل لفظةٍ متقاربةِ مخارجِ الحروفِ فإنها مُسْتَقْبَحةٌ ، وإن لم يُعَلَّلْ الاستقباحُ بذلك .

فما أورده على ابن سِنان لازمٌ على ما اعترف هو به من تلازم الأمرَيْنِ .

قال : وقد غَلِطَ أبو نُواسٍ فى لَفْظَةِ الظَّرْفِ فقال :

اختصم الجود والجمـــال فيك فصارا إلى جِدالِ
فقال هـــذا يَمِينُهُ لى للعُرْفِ والبذل والنوال
وقال هذاك وَجْهُهُ لى للظَّرْفِ والحُسْنِ والـكمال
فافترقا فيك عن تراضٍ كلاهما صادقُ المقالِ[٢]

---

(١) المثل السائر ١/٢٢٥ .

(٢) المثل السائر ١/٢٥٦ .

قال : فوصف الوجه بالظرف ، والظرف من صِفات النُّطق خاصة ، وليس كما يتوهمه العامة من حسن الصورة ودَماثةِ الأخلاق(١)

أقول : إن هذا الذى ذكره قد قاله كثيرٌ من الناس ، وقال كثير من الناس غير ذلك ، فإن صاحب ديوان الأدب قال : الظرف الكياسة ، ولم يزد على ذلك ، وهكذا قال صاحب الصحاح . ومعلومٌ أن الكياسةَ لاتكون راجعةً إلى النطق اللِّسانى خاصة ، وعلى كل الأحوال فأبو نواس لم يَغلَط ، لأن أداةَ الظَّرْفِ وهى اللسان على ما يريده جزء من أجزاء الوجه ، فإذا قال الجمالُ إن وَجْهَ هذا الممدوح لى ، لأنه مَحَلُّ الظَّرْفِ ، ومَحَلُّ آلةِ الشىء مَحَلُّ الشىءِ ، كما يقال : الرأسُ مَحَلُّ الشَّمِّ والذوق ، لأنه محل آلتيهما(٢) .

— ٥٢ —

قال المصنف : وقد غلط أبو تمام فى قوله .

ودَماثَةُ الخُلُقِ التى لو مازَجَتْ
خُلُقَ الزمانِ الفَدْمِ عاد ظريفا

فوصف الخلق بالظرف ، والظرف يختص باللسان والنطق(٣) . أقول :

---

(١) عبارة ابن الأثير : فأبو نواس غلط ها هنا فى أنه وصف الوجه بالظرف ، وهو من صفات النطق ، وأبو تمام غلط فى أنه وصف الخلق بالظرف ، وهو من صفات النطق أيضاً ، إلا أن هذا غلط لا يوجب فى هذه اللفظة قبحا ، لكنه جهل بمعرفة أصلها فى وضع اللغة .

(٢) يظهر أن فى العبارة سقطا لأن جواب إذا لم يتم .

(٣) المثل السائر ١/٢٥٧ .

من قصيدة لأبى تمام فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف ، وقبل البيت قوله :

لك هضبة الحلم التى لو وازنت أجأ إذن ثقلت وكان خفيفا =

لو سَلَّمنا له ما يُرِيدُهُ من تفسير الظرف لكان لقول أبى تمام مَذْهَبٌ لا بأسَ به ، لأن تهذيب الأخلاق ورياضتها وتسهيل حَزْنِها وتَدْمِيثَهُ مما يعين على حُسْنِ التَّوصُّلات النُّطقية ، ويُؤَثِّر فى تَلْطِيفِ الألْفاظِ ، وإصابةِ الأغْراضِ بهما .

ألا تَرَى أنْ النَّبَطِىَّ الجافِى لا يكاد يَبْلُغُ أغراضه بالكلام ، ويُحسِنُ التوصُّلَ إلى إدراك ما يَرْويه بلسانه ، بخلاف مَنْ قَدْ خالطَ وَجرَّبَ ، وَراضَ أخلاقَه وهَذَّبَ نفسه ؟ فمن هذا الوجه جعل أبو تمام دَماثةَ الخُلُقِ مُؤثِّرَةً فى الظرْفِ ، وإن كان عائدا إلى النطق اللسانى خاصَّةً .

— ٥٣ —

قال المصنف : وقد ذكر ابن سِنان الخفاجىّ فى كتابه أن من أوصافِ الكلمةِ أن تكون مُؤَلَّفَةً من أقَلِّ الأوْزانِ تركيباً ، وأنها إذا طالَتْ قَبُحَتْ .

ومثل ذلك بقول المتنبى :

إن الكرامَ بلا كرامٍ منهمُ ‏‏ ‏ ‏ ‏ مِثْلُ القلوبِ بلا سُوَيْدَاوَاتِها

فإن لفظة سويداواتها قبيحة لطولها .

= والبيت بالديوان هكذا :

وحلاوة الشيم التى لو مازجت ‏ ‏ ‏ ‏ خلق الزمان الفدم عاد ظريفا

(ديوان أبى تمام ٢٠٩) .

قال: ليس الأمر كذلك، فإنها لو قبحت لطولها، لقبح قوله تعالى «فسيكفيكهم الله»[١]، وقوله سبحانه: (ليَسْتَخْلِفنَّهم فى الأرض[٢]) فإن إحداها تسعة أحرف، والأخرى عشرة أحرف[٣].

أقول: ألَسْتَ قلتَ فى باب المعاظلة إنهما مما وقع الإجماع على قبحه، وقلت إنها تكرير الحروف، ومثلت لها بقول القائل:

« جَنَى جَنَّاتِ وَجَنَاتِ الحَبيبِ ». وقولهم:

« وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ[٤] ».

فلقائل أن يقول لك: قد ورد فى القرآن الكريم مثل ذلك وهو قوله تعالى: (بسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عليك وعلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ، وأُمَمٌ سنُمَتِّعُهُم ثم يَمَسُّهم مِنَّا عذابٌ أليمٌ[٥]).

فهذه ميماتٌ كثيرة يَتْلُو بعضها بعضاً، فإما أن يكونَ استعمالُها فى القرآن غير مُسْتَحسن، أو يكون مستحسنا، فإن لم يكن مُسْتحسناً مع أنها قد استعملت، فاخْتَرْ لابن سنان أن تكون الكلمة الطويلة كقوله: « ليستخلفنهم » غير مستحسنة، وقد اسْتُعْمِلَتْ، وإنْ كانت المغالطة قبيحةً إلا فى القرآن الكريم،

---

(١) سورة البقرة ٣٧.
(٢) سورة النور ٥٥ (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض)
(٣) المثل السائر ١/٢٦٥.
(٤) المثل السائر ١/٤٠١ وفيه البيت كاملا:

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

(٥) سورة هود ٤٨ (قيل يانوح اهبط بسلام منا ....).

فاختَرْ لابن سِنان أن يكون كثرةُ حروف الكلمة قبيحةً إلا فى القرآن الكريم .

وبالجملة فإما أنْ يَلْزمكَ ما ألزمته أو تَتخلّصَ مما يَتخلّصُ به .

— ٥٤ —

قال المصنف: وأكثر أسجاعِ الصَّابِى[1] وابن العميد[2] وكثير من المتقدمين والمتأخرين من الكتاب بتكرير المعنى بعينه فى السجعتين المزدوجتين ، كقول الصابى فى التَّحميد : «لا تُخْلِقُه العصور بمُرورها ، ولا تُهْرِمُهُ الدُّهورُ بكرورها» .

ثم قال فى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم : «فلم يَدَعْ[3] للكفر أثراً إلا طمَسهُ ومحاه ، ولا رسْماً إلا أزاله وعفَّاه» . قال : ولا فرق بين مَحْوِ الأثر ولا تعفية الرسم ، ولا بين مرور العصور ، وكرور الدهور .

قال : ومثل قوله : «لم تزل الدولة العباسية تَمْتَلُّ طَوْراً ، وتَصِحُّ أطواراً ،

(١) أبو اسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون ، كان كاتب الإنشاء فى بغداد عن الخليفة وعند عز الدوله بن بختيار بن معز الدولة بن بويه ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ وكان على مذهب الصابئة كما يدل على ذلك اسمه ، وله صداقة مع الشريف الرضى ، وقد اشتهر بكتابته المسجوعة ، وله رسائل مطبوعة (وفيات الأعيان ١/١٢ ويتيمة الدهر ٢/٢٣ ومعجم الأدباء ١/٣٢٤) .

(٢) أبو الفضل محمد بن العميد . والعميد لقب أبيه على عادة أهل خراسان فى التعظيم كان وزيرا لركن الدوله الحسن بن بويه والد عضد الدولة سنة ٣٢٨ وكان متوسعاً فى اللغة والنجوم والأدب حتى سموه الأستاذ والرئيس والجاحظ الثانى . وهو صاحب مذهب فى النثر مشهور .

(وفيات الأعيان ٤/١٨٩) .

(٣) فى المثل السائر (لم يبق للكفر) .

وتَلَتاتُ مرة وتستقِلُّ مراراً ، من حيث أَصْلُها راسخٌ لا يتزعزعُ ، وبُنيانُها ثابت لا يَتَضَعْضَعُ » .

قال : وهذه الأسجاع كلها متساوية المعانى ، فإن الاعتلال والالتياث والطَّور والمرة والرسوخ والثبات سواء . ثم ذكر عدة مواضع من كلامه يجرى هذا المجرى[1] .

أقول هذه سُنَّةُ الكُتَّابِ وعادتهم مازالوا عليها قديما وحديثا ، وهم يرون ذلك من باب سَعةِ العبارة والاقتدار على الألفاظ .

ثم إن السجعةَ الثانيَة تؤكِّدُ معنى الأولى ، والتأكيد عُمْدَةُ البيانِ والكتابة ، ولذلك أحبُّوا فيها الإطالةَ ، وفى الشعر الاختصار .

ولهم فى هذا الباب عُذْرٌ يتضمن تعليله . والسبب الذى لأجله توَسَّعُوا فى عباراتِ الكتابةِ وأَسْهَبُوا ، واقْتَصَرُوا فى النَّظْمِ واخْتصروا أن القرآن الكريمَ وهو على غاية الإيجازِ والاختصارِ قد تضمن ذلك فى كثير من المواضع نحو قوله : (أعوذ بِرَبِّ الناسِ مِلِكِ الناسِ إلهِ الناسِ)[2] فالرَّبُّ ها هنا والملك والإله بمعنى ، فكل واحدة من هذه السَّجَعاتِ قد أَعْطَتْ معنى الأخرى .

ومثل قوله : (لنُخْرِجَ بهِ حَبّا ونباتاً وجنات ٍألفافا)[3] . فإن الجنات هى البساتينُ ، ولا مَعْنَى للبساتينِ إلا ما كان محتويا على الحب والنبات .

---

(١) المثل السائر ١/٢٨٢ ومنه أصلحنا النص .
(٢) سورة الناس .
(٣) سورة النبأ ١٥ ، ١٦ .

ومثل قوله : (إنهم كانوا لا يَرْجُون حِسابا ، وكَذَّبوا بآياتنا كِذَّابا)[١] فإن عدم اعتقادهم للحساب هو تكذيبهم بالآيات .

ومثل هذا فى القرآن العزيز كثيرٌ جداً .

فإن قلتَ : يمكن إن يقال إن الملكَ غيرُ الإلهِ ، لأن أمير كل بلدة يوصف بأنه مالكها ، ولا يُوصَفُ بأنه إلهها ، وكذلك رب الدار لا يقال له إلهها ، وأيضا يمكن أن يُقالَ إنه أراد بالحَبِّ الأقْوات ، وبالنبات مالا سَاقَ له من الشجر ، وبالجنَّاتِ ماله ساقٌ ، وغير ذلك من التأويلات .

قُلْتُ : إذا شرعت فى هذا كان لقائل أن يقول إن قول الصابى : لا تُخْلقهُ العصورُ غير قوله لا تُهْرِمُه الدهور ، لأن الهرم إنما يكون للحى المختار ، والإخلاق أعَمُّ من ذلك ، لأنه يكون للجماد ، فزاد أنه لا تُغَيِّره الأوقاتُ ، على كلا مذهبى المتكلمين والحكماء .

وقوله : « لم يَدَعْ له أثَراً من آثارِ الديارِ والأماكن ولا رسما » من قولهم قد رسمت لك فى هذا الكتاب رسوما فاعمل بها . وأيضاً فإنَّ تعتَلُّ غير تَلْتَاثُ ، لأن الالتياثَ الضَّعْفُ فقط ، وإن لم يكن عن عِلّة ، ولذلك أعْقَبَهُ بقوله تَسْتَقِلُّ ، كما أعْقَبَ الاعتدالَ بالصحة . ومِثْلُ هذه التَّدقيقاتِ الخَفيةِ فى التأويلات لا يتعذر تحصيلها على من عنده فِقهٌ فى موارد هذه الصناعة .

---

(١) سورة النبأ ٢٧ ، ٢٨ .

— ٥٥ —

قال المصنف والتَّصْرِيعُ سبعة أنواع[١] .

الأولُ أن يستقلَّ كلٌّ واحدٍ من المِصْراعَيْنِ بنفسه استقلالا تاما ، وهو التصريع الكامل ، كقول امرىء القيس :

أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدلل وإن كنت قد أزْمَعْتِ هجرى فأَجْمِلِى[٢]

وقول المتنبى :

إذا كان مدحٌ فالنسيب المُقَدَّمُ أكل فصيح قال شعراً متيَّم ؟[٣]

الثانى : أن يكون المصراع الأولُ مستقلاًّ بنفسه ، والثانى غير مستقل بنفسه ، بل يكون مرتبطا بالأول كقول امرىء القيس :

قِفـا نَبْكِ من ذِكْرى حبيبٍ ومنزل
بِسْقطِ اللِّوى بين الدَّخُولِ فَحَوْملِ[٤]

وقول أبى تمام :

ألم يَأْنِ أن تُروى الظماء الحوائمُ وأن يَنْظِمَ الشَّمْلَ المبَدَّدَ ناظم ؟[٥]

---

(١) المثل السائر ١/٣٣٨ .
(٢) من معلقته .
(٣) مطلع قصيدته فى مدح سيف الدولة .
الديوان ٢/٢٤٩ .
(٤) مطلع المعلقة .
(٥) مطلع قصيدته فى مدح أحمد بن أبى دواد .
الديوان ٢٨٥ .

والثالث : أن يمكن وَضعُ كلٍّ واحدٍ من المصراعين موضع الآخر ، وهو التصريع الموَجَّهُ ، كقول ابن الحجَّاج :

من شروط الصَّبوح فى المِهْرَجان   خِفَّةُ الشُّربِ مَعْ خلوِّ المكان[1]

وهذا فى الجودة كالنوع الثانى .

والرابع : أن يكون المصراع الأول مستقلاً بنفسه ، ويفتقر فهم معناه إلى الثانى وهو مذموم ، ويسمى التصريع الناقص ، كقول المتنبى :

مغانى الشِّعْبِ طيباً فى المغانى   بمَنْزِلَةِ الرَّبيع من الزَّمـــان[2]

والخامس : أن يكون التصريعُ بلفظةٍ واحدةٍ فى الضرب والعَروضِ ، إما حقيقةً كقول عَبيدِ بن الأبرص :

وكلُّ ذى غيبةٍ يؤوب   وغائبُ الموتِ لايؤُوبُ[3]

وإما مجـــازاً كقول أبى تمام :

فتى كان شربا للعفاةِ ومرْتَعًى   فأصبح للهِنْدِيَّةِ البيضِ مرْتَعا[4]

---

(١) يتيمة الدهر ٣/٦٥ .

(٢) مطلع قصيدته فى مدح عضد الدولة وولديه ، ووصف شعب بوان . الديوان ٢/٤٨١ .

(٣) من قصيدته التى مطلعها :

أقفر من أهله ملحوب   فالقطبيات فالذنوب

(٤) من قصيدته فى رثاء أبى نصر محمد بن حميد الطائى التى مطلعها :

أصم بك الناعى وإن كان أسمعا   وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

الديوان ٣٧٤ .

العفاة : طلاب العطاء . مرتعى : موضع رعى . مرتع : مسرح .

والسادس : أن يُذْكَرَ مصراعُ الأول ويكون معلقاعلى صفة يأتى ذكرها في أول المصراع الثانى ، ويسمى التصريع المعَلّق ، وهو مَعِيبٌ جداً ، ومثله قول امرىء القيس :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انْجَلِي   بصُبْحٍ وما الإصباحُ منك بِأَمْثَلِ (١)

فإن المصراع الأول معلق على قوله بصبح .

ومثله قول المتنبي :

قَد عَلَّمَ البَيْنُ مِنَّا البَيْنَ أَجْفانا   تَدْمى وأَلَّفَ فى ذَا القَلْبِ أَحْزانا (٢)

فإن المصراع الأول مُعَلَّقٌ على قوله تدمى .

والسابعُ : أن يكون التصريعُ فى البيت مخالفا لقافيته ، ويسمى التَّصريعَ المنتظم ، وهو أقبح التصريعات ، كقول أبى نُواس :

أَقِلْنِي قد نَدِمْتُ على الذُّنوب   وبالإقرارِ عُدْتُ من الجُحود (٣)

---

(١) من معلقته

(٢) مطلع قصيدته فى مدح أبى سهل سعيد بن عبد الله الأنطاكى
الديوان ٢/٤٠٧

يريد أن الفراق قد علم الأجفاق الفراق ، فما تلتقى سهرا ، وجعل الفراق يؤلف الحزن إغرابا فى الصنعة

والبيت الآخر

(٣) أحد بيتين كتب بهما إلى الفضل بن الربيع ، والبيت الآخر هو :

وإن تصفح فإحسان جديد   سبقت به إلى شكر جديد

الديوان ١٠٩

أقول إن النوع السادس عند التحقيق هو النوعُ الثانى ، فإن كان الثانى جيداً كما زعم فالثانى معيب .

بيانه أن المصراعَ من النوع السادس مستقلٌ بنفسه ، غيرُ محتاجٍ إلى الذى يليه أَصْلاً ، لأنه لو وَقَفَ على قوله . « ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى » لـكان مفيداً ، لأنه سأل الليل أن ينجلى وينـكشف ، وهذا كلام تامٌ مستقل بنفسه ، كقوله : « قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل » بل أَتمُّ استقلالا منه ، لأنه إذا ذَكَرَ الحبيبَ والمَنْزِلَ ولم يَنْعَتْهما كان الـكلام يخرج عن الإفادة . وقوله لليل : « ألا انجَلىِ » معناه واضح ، كأنه قال ما أطولك يالَيْل فانْـكَشِفْ .

وبيت المتنبى مثل هذا ، بل أَتمُّ استقلالا ، لأن قوله « قدعلَّمْ البَيْنُ منا البَيْنَ أجفاقا » كلامٌ حسنٌ مفيدٌ عند من يفهم معناه ، ومعنى هذا المصراع أن البَيْنَ قدَ عَلَّمَ أجفاننا البَيْنَ ، أى فِراقُ الأَحْبابِ قدَ عَلَّمَ أجفاننا أن يفارقَ بعضها بعضاً .

وهذا معنًى لطيفٌ ، وكلام حَسَنٌ مستقلٌ بنفسه ، لا حاجة له إلى المِصْراع الثانى ، ولا هو مُعَلَّقٌ عليه أَصْلاً .

وليس قوله « تَدْمَى » يوجب تَعَلُّقَ المصراعِ الأَولِ عليه ، لأن موضعه النصب ، من حيث كان صفةً لقوله (منزل)[1] فلا فصل بين الموضعين .

---

(١) هكذا بالأصل ولعل الصواب (من حيث كان صفة لقوله أجفانا كما أن بسقط اللوى صفة لقوله منزل)

واعلم أنه قد أخلّ في أقسام التصريع بقسمين آخرين : أحدهما أن يكون معنى المصراعِ الأولِ مُبايِناً لمعنى المصراع الثانى بالـكُلِّيَّة ، لا رابطة بينهما ، كقول المتنبي :

جَلَلاً كما بى فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ أَغِذاءُ ذا الرَّشَإِ الأَغَنِّ الشِّيحُ؟(١)

فإنه لا مناسبةَ بين صَدْرِ البيت وعَجُزِه ، وإن ثبتْ أن بينهما مناسبةً كما قد تـكلفه قومٌ فما الغرضُ المِثالُ ، وإنما الغرضُ التَّمثيل .

وهذا غير القسم الأول الذى ذكره المصنف ، لأن قوله « وإن كنتِ قد أَزْمَعْتِ هَجْرِى فأَجْمِلِى » له ارتباطٌ معنوىٌّ فى الجملة بقوله « أفاطم مهلا » وتقدير الـكلام إن كان صَدُّكِ دَلالاً فأَمْهِلِى منه ، وإن كنتِ قد أزمعت الهَجْرَ والقطيعةَ بالـكلية فأَجْملى من ذلك .

والقسم الثانى التصريع فى العروض بحركة تخالف حركة الضَّرْب ، نحو أن يكون أَحَدُهما بالرفع والآخر بالجر ، كقول أبى نواس :

اختصم الحسنُ والجمـــالُ فيك فصارا إلى جـــدال

وهذا يخالف القسم السابع الذى ذكره المصنف ، لأن ذاك اختلافُ الحرفين ، وهذا اختلاف الحركتَيْنْ .

---

(١) مطلع قصيدته فى مدح مساور بن محمد الرومى .
الديوان ١٦٤/١ ومنه أصلحنا البيت .
الجل : الأمر العظيم . التبريح : الجهد والشدة . الرشأ : ولد الظبية . الشح : نبات طيب الرائحة .

— ٥٦ —

قال المصنف : فأما التَّجنيس[١] فهو أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً، وهذا ينقسم إلى أقسام يدخل فيها ما هو التجنيس الحقيقيُّ وما يُشَبَّهُ به .

قال : وقد يُظَنّ أن قول أبي تمام :

أظنُّ الدَّمعَ في خَدِّي سَيُبقِي رسوما من بـكائي في الرسوم

من هذا الباب نظرا إلى مساواة اللفظ ، وهوغَلَطٌ ، لأن المعنى غيرُ مختلفٍ فيهما ، ومن شرط التجنيس وما يشابهه اختلافُ المعنى مع تماثل اللفظ .

ثم قال : فمثال التجنيس الحقيقي قول أبي تمام :

من القوم جَعْدٌ أبيضُ الوجه والنَّدَى
وليس بَنانٌ يُجتدَى منه بالجَعْدِ[٢]

قال : الجعد : السيد ، ويقال للبخيل إنه لَجَعْدُ البَنانِ . قال ومثل قوله :

كم أحرَزَتْ قُضُبُ الهندِيِّ مُصْلَتَةً
تهتَزُّ من قُضُبٍ تهتَزُّ في كُثُبِ

(١) المثل السائر ١/٣٤٢ وما بعدها بإيجاز .
(٢) من قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزدي .
الديوان ١٣١ .

بيضٌ إذا انْتُضِيَتْ من حُجْبِها رَجَعَتْ
أحَقُّ بالبِيضِ أبدانا من الُحجُبِ[١]

قال فالقُضُب : السيوف ، والقُضُب : القُدود ، والبِيضُ : السيوف ، والبيض : النِّساء[٢] ؛

أقول إن لفظتى قُضُب فى البيت الأول ، ولفظتى البيض فى البيت الثانى ، خارجة عن باب التجنيس بالكلية ، لأن القُضُب جمع قَضِيب ، وهو العود الرشيق من الشجرة ، هذا هو حقيقة هذا اللفظ فى أَصْلِ وَضْعه ، وإنما سُمِّى السيف به مجازاً أيضاً .

ولا تظن أن تسمية السيف قضيبا من حيث كان قاطعا ، من القَضْب وهو القَطْع ، فيكون فَعِيل بمعنى فاعل ، كقدير وعليم ، لأنهم لو كانوا أرادوا ذلك لسَمَّوا السيفَ العظيم العَرْضِ قَضِيبا ، وما رأيناهم سَمَّوه بذلك ، وإنما سموا به السيف اللَّطيف .

ومثل ذلك البيض فإنها ليست من أسماء النساء ، والبيضاء وامرأةٌ لفظتين مترادفتان كالمؤمن والهَكَوَّك[٣] ونحوهما ، ولا البِيضُ من أسماء السُّيوف

---

(١) أصلحنا البيتين من المثل السائر ومن الديوان ١٠ والبيتان من قصيدته فى مدح المعتصم لما فتح عمورية ومطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

(٢) المثل السائر ٣٤٤/١ ونص عبارة ابن الأثير : « فالقضب السيوف والقضب القدود على حكم الاستعارة ، وكذلك البيض السيوف ، والبيض النساء .

(٣) من معانى المؤمن المصدق والواثق والخاضع وقابل الشريعة .
ومن معانى الهكوك للمكان الغليظ الصلب أو السهل ضد . والسمين والماجن .

ولا سمعنا أن الأبيضَ اسمٌ السيف ، كما أن الليث اسم الأسد ، و إنما البِيضُ عبارة عن أشياء ذوات بياض فقط ، ثم اسْتُعيرَتْ اللفظةُ للسيوفِ والنساءِ صفةً لا اسْماً وهذا أمر خارج عن باب التجنيس ، ولو كان هذا من التجنيس لوجب إذا قيل فى الليل أسود وفى الجنة سوداء وفى أسْود من قولهم عندى الأسْودان أن يكون هذا تجنيسا ، ولم يقل ذلك أحدٌ ، لأن هذه الصفات تختلف موصوفاتها ولا تختلف هى .

فلِئنْ كان مثل هذا تجنيساً ، فليكن بيتُ أبى تمام الأولُ تجنيساً ، لأن رسوم للدمع هى مجاريه وآثاره ، ورسوم الدار جمع رَسْم وهو مصدر رسمتُ الدار ، أى عَفَّيتها قال : (أمِنْ رسْمِ دارٍ مَرْبعٍ ومَصيف) وهذا أشدُّ اختلافا من البِيض والبيض ، والقضب والقضب .

— ٥٧ —

قال المصنف : ومن التجنيس أيضا قول أبى تمام :

أناسٌ إذا ما اسْتَلْحَمَ الرَّوعُ صَدَّعوا
صُدورَ العوالى فى صدور الكتائب(١)

قال فلفظ الصدور فى البيت واحد والمعنى مختلف .

---

(١) المثل السائر ١/٣٤٤ من قصيدة لأبى تمام فى مدح أبى دلف القاسم بن عيسى العجلى مطلعها :

على مثلها من أربع وملاعب   أذيلت مصونات الدموع السواكب

صدعوا : شققوا . العوالى : الرماح . الكتائب : الجيوش .

أقول . وهذا أيضا من القرار الأول الذى قلنا إنه ليس بتجنيس ، لأن الصدر اسمٌ لهذا العُضْو المخصوص، لـكنه لما كان هو مُقَدَّمَ الإنسان ، نُقِل إلى صدور العوالى وهى رءوسهما وما يَتَقَدَّم منها ، وإلى صدور الـكتائب وهى ما يتقدم منها أيضا ، فالمعنى واحد فى الموضوعية ، و إذا اتحد المعنى خرج عن باب التجنيس .

— ٥٨ —

قال المصنف : ومن أقسام التجنيس أن يقع الاختلافُ فى الوَزْنِ والتركيبِ بحرف واحد ، كقول محمد بن وُهَيْب :

قَسَمْتَ صُروف الدهر بأسا ونائلا　　　فمالُك موتورٌ وسَيْفُك واتِرُ(١)

أقول إن إدخال هذا البيت فى التجنيس من ظريف الأشياء ، فإن المعنى فى الـكلمتين واحدٌ ، وإنما تختَلِفُ الفاعل وصيغة المفعول كالمضروب ، ولو كان هذا تجنيسا لوَجَبَ أن يكون قَوْلُ القائل : « ضربت زيدا بالعصا ضربا فَلَقَ المضروب بالضارب » قد تَضَمَّنَ لتجنيسَ فى أربعةِ مواضعَ : الفعل ، والمصدر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول . وهذا مما لم يذهب إليه ذاهب .

---

(١) المثل السائر ١/٣٥٥

— ٥٩ —

قال المصنف فى باب الموازنة : مما جاء فى الموازنة شعراً قول الأول[١] :

إنْ يعتلوكَ فقدْ ثَلَلْتَ عُروشَهُمْ ... بعُتَيْبَةَ بْنِ الحارثِ بنِ شِهابِ
بأَشَدِّهم بأسـاً على أعدائِهِمْ ... وأعَزِّهم فقْداً على الأصْحابِ

فإن بأساً وفَقْداً على وزن واحد .

أقول إنه قال فى أول قسم الألفاظ المركبة إن صناعة تركيب الألفاظ والمعانى تنقسم إلى ثمانية أقسام ، منهما السجع وهو يَختَصُّ بالمنثور ، ومنهما التصريع وهو مختصٌّ بالمنظوم ، ومنهما التَّجْنيس وهو عامٌّ لهما ، ومنهما الموازنَة وهى تَختَصُّ بالمنثور[٢] .

وهو هنا يَذْكُرُ أنَّ فى الشعر موازنة ، وذلك نَقْضٌ لما قَدَّمه .

— ٦٠ —

قال المصنف فى الكلام عن الصناعة المعنوية : وصاحبُ هـذا الفَنِّ لا يَحتاجُ إلى ماذكره الحكماء فى علم المنطق فى الشعر . وقد قرأتُ كلام أبى علىٍّ بْنِ سِينا فى المنطق ، وتأملتُ ما قاله فى الشعر فوجدته يقول إن ذلك

(١) المثل السائر ١ / ٣٨٠ والبيتان لربيعة بن عبيد بن سعد بن جذيعة بن مالك بن نصر بن قعين أحد بنى اسد . وربيعة هذا هوأبو ذؤابة الأسدى . وقد نسب الشعر فى حماسة أبى تمام ١/٣٥٤ لرجل من بنى نصر بن قعين . وفى الحماسة والمثل السائر (على أصحابه) بدلا من (على أعدائهم) .

(٢) المثل السائر ١/٢٧١ .

يُورَدُ على مُقَدِّمتين ونتيجة . قال وقد كان ابن سينا ينظم الشعر ولا يرتبه عند إفاضتهِ في صَوْغه بالأصالة ، لأنه لم تَخْطِرْ المقدمتان والنتيجة له ببال ، ولو أنه استحضر المقدمتين والنتيجةَ ، ثم أتى بالنظم والنثر بعدهما لم يأت بشيء يُنْتَفَعُ به ، وانما هذه فَقَاقِـعُ وألفاظ طَوَّلَ القومُ بها كُتُبَهُم(١) .

أقول : هذه جناية عُجْبِ الإنسانِ بنفسه ، وذلك أن الإنسان يدعوه فَرْطُ اعتقادِه في نفسه ، وشَغَفُه بما يَخْطِر له أن يتـكلم على قوم لا يَعْرِفُ أقوالهم ، ولا يُحَصِّلُ معنى اصطلاحاتهم ، فَضْلاً عن أن يَبْلُغَ رُتبتَهم ، وَيَتَرَقَّى درجتهم ، إلى أن يَنْقُضَ عليهم ، فيقع هذا الموقع .

وليس مراد القوم بالشعر ما يتوهمه .

(١) ملخص من المثل السائر ٢/٥ قال ابن الأثير : اعلم أن المعانى الخطابية قد حصرت أصولها ، وأول من تكلم فى ذلك حكماء اليونان ، غير أن ذلك الحصر كلى لا جزئى ، ومحال أن تحصر جزئيات المعانى وما يتفرع عليها من التفريعات التى لا نهاية لها . . . . ولقد فاوضنى بعض المتفلسفين فى هذا ، وانساق الكلام إلى شىء ذكره لأبى على بن سينا فى الخطابة والشعر ، وذكر ضربا من ضروب الشعر اليونانى ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبى على ووقفنى على ما ذكره ، فلما وقفت عليه استجهلته ، فإنه طول فيه وعرض ، كأنه يخاطب بعض اليونان ، وكل الذى ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا .

ثم مع هذا جميعه فإن معول القوم فيما يذكر من الكلام الخطابى أنه يورد على مقدمتين ونتيجة ، وهذا مما لم يخطر لأبى سينا ببال فيما صاغه من شعر وكلام مسجوع ، فإن له شيئا من ذلك فى كلامه ، وعند إفاضته فى صوغ ما صاغه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال . ولو أنه فكر أولا فى المقدمتين والنتيجة ، ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك لما أتى بشىء ينتفع به ، ولطال الخطب عليه .

بل أقول شيئا آخر : وهو أن اليونان أنفسهم لما نظموا ما نظموه من أشعارهم لم ينظموه فى وقت نظمه وعندهم فكرة فى مقدمتين ولا نتيجة ، وإنما هذه أوضاع توضع ، وتطول بها مصنفات كتبهم فى الخطابة والشعر ، وهى كما يقال فقاقع ليس لها طائل ، كأنها شعر الإبيوردى .

والذى يُريدونه بالشعر يأتى فى كل قياسٍ مُخَيِّلٍ يَعْلَمُ العاقلُ كَذِبه ، لـكنه يُحْدِثُ له مع ذلك نَوْعَ قَبْضٍ أو بَسْطٍ أو إقْدامٍ أو إحجام ، كما يقال: لا تأكلوا العسل ، فإنه ثمرة مَقِيئة[1] ، أو يقال للحَلْواء الرَّطبةِ المزَعْفَرةِ لا تأكلها فإنها غائط . فالعقلُ والحسُّ يكَذِّبان هذا الـكلامَ الذى هو فى قوة قياس ، صُورَتُهُ هكذا : كلُّ غائطٍ فهو غير مأكَلةٍ . ومع علمه بكذبه ينقَبِضُ عن الأكل . وأكثرُ إقدامِ الناسِ وإحجامِهم بسببِ هذه التَّخَيُّلات والأَوْهام ، وهى الأَقْيِسَةُ الشِّعْرِيَّةُ التى يذكرونها ، وإنما سُمِّيَتْ شِعْرِيَّةً لمشابهتها مقاصدَ الشعراء فى تَخَيُّلاتهم وتَزْوِيقاتهم .

وأما تَوَهُّمه أن الشاعر يحتاج وَقْتَ نظمِ الشعرِ إلى استعمال مقدمتين ونتيجةٍ ، وقوله إن ابن سينا كان ينظم شعرا ولا يُرَتِّب المقدمتين وَقْتَ نظمه ، فتَوَهُّمٌ بعيدٌ ، وإن كان القوم عنده بهذه الصورة ويراهم بهذه العين فإنه لم يَعْرِفهم .'.

— ٦١ —

قال المصنف : وقد تَصَفَّحْتُ كتاب الخصائص لأبى الفتح ابْنِ جِنِّى ، فوجدته قد ذكر فى المجاز شيئا يتَطَرَّقُ النظرُ إليه ، وذلك أنه قال : لا يُعْدَلُ عن الحقيقةِ إلى المجاز إلا لمعانٍ ثلاثة : وهى الاتساع ، والتشبيه ، والتوكيد ،

---

(١) ثمرة مقيئة ، يتفق هذا مع قول الشاعر :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه   وإن ذممت فقل قىء الزنابير

وكان بالأصل (مرة مقيئة) .

فإن عُدِمَتْ هذه الثلاثة كانت الحقيقة الْبَتَةَ . فمن ذلك قوله تعالى: « وأدخلناه في رحمتنا »[١] .

فهذا الكلامُ اجتمعتْ فيه المعانى الثلاثةُ المذكورة .

أما الاتِّساع فإنه زاد فى أسماء الجهات والمحالِّ اسما هو الرحمة .

وأما التشبيه فإنه شبه الرحمة — وإن لم يصحَ الدخول فيها — بما يصح الدخول فيه .

وأما التوكيد فإنه أخبرَ عما لا يُدْرك بالحاسة بما يُدْرَكُ بالحاسة تعالياً بالمُخْبَرِ عنه ، وتفخيماً له ، إذ صُيِّر بمَنزلَةِ ما يُشاهَدُ ويُعايَنُ .

قال والكلامُ عليه من ثلاثة وجوه : أولُها أنه جعل وجُودَ هذه المعانى الثلاثة سببا لوجود المجاز ، وعَدَمَها سبباً لَعدمِهِ ، وهذا خطأٌ ، فإنه ليس وُجودُ [هذه الثلاثه سِبباً لوجود][٢] المجاز بل وجود واحد منها أيُّها كان سَبَبَ وجوده .

وأيضاً فلو كان وجود هذه المعانى الثلاثة سبباً لوجود المجاز لكان عَدَمُ أحدها أيها كان سبباً لعدمه ، كما إذا قلنا : لايوجد الإنسانُ إلا بأن يكون حيوانا ناطقا ، والحيوانية والنطق سَببُ وجودِ الإنسانِ ، فإذا عُدِمَ واحدٌ منهما بَطَلَ أن يكون إنسانا ، وكذلك كل صفة تكون مُقَوِّيَةَ لوجود شىء من الأشياء ، كان وجودُها يُوجِبُ وجودَ ذلك الشىء ، وعدمُ واحدمنها يُوجِبُ عدمه[٣] .

---

(١) بالأصل (وأدخلناهم) .

(٢) ما بين قوسين زيادة يقتضيها السياق .

(٣) المثل السائر ٢/ ٨٥ وهنا زيادات ليست بالمثل السائر ، لأن ابن الأثير قال : هذا مجموع قول أبى الفتح — رحمه الله — من غير زيادة ولا نقص . والنظر يتطرق إليه من ثلاثة

أقول : ليس مراد أبي الفتح — رحمه الله — ماظَّنه ، فكيف يَذْهبُ إلى أن يقولَ المجازيةُ مَتوقفةٌ على اجتماع هذه الأمور الثلاثة ؟ وقد حضَرْتُ ضَرْبَ أمثلةٍ كثيرةٍ للمجاز فى كتابه هذا ، وكلُّ موضعٍ منها مختصٌّ بواحدٍ من هذه الثلاثة فقط ، وإنما ذكَر هذه الآية ليُبَيِّن بها أنه قد وَجَدَ مَوْضعاً اجتمع فيه الشروطُ الثلاثةُ التى يتوقف المجاز عليها لمعان ثلاثة ، مثل قوله فى كتاب اللُّمع : والكلامُ كله ثلاثة أشياء : اسم وفعل وحرف ، فإنه لا يُرِيدُ أن كل لفظةٍ من الكلام يَجْتَمِعُ لها أن تكونَ اسماً وفعلا وحرفا ، إنما مُراده أن كل لفظة من الكلام فإنها لا تخلو عن هذه الأنواع الثلاثةِ ، بل تكونُ واحدا منها أيها كان ، ولكنه يتسامح فى اللفظ اعتمادا على فَهْمِ السامعِ ، وثقةً بأن مِثْلَ هذا الكلام لايزال الناسُ يستعملونه فى محاوراتهم .

فأما قوله : (فإذا عُدِمَتْ هذه الثلاثةَ كانت الحقيقةُ البتَّةَ لا غيْرُ) جَيِّدٌ لا اعتراضَ عليه ، لأنه لوعُدِمَ أحُدها فقط لم تأتِ الحقيقةُ متَعينةً البتَّة ، لأن أحد القسمين الباقيين يكفى فى حُسْنِ المجاز ، وإنما تتَعيَّن الحقيقةَ البتَّةَ إذا عُدِمَتْ الثلاثةُ كلُّها .

ومن هذا الموضع يجب أن يُفْهَم معنىَ قوله : « لا يُعْدَلُ عن الحقيقة إلى المجاز إلا لمعانٍ ثلاثة » لأنه لو كان أراد اجتماعَ معانٍ ثلاثة لما قال : « فإذا عُدِمَتْ هذه

= أوجه · الأول أنه جعل وجود هذه للمانى الثلاثة سببا لوجود المجاز ، بل وجود واحد منها سببا لوجوده . ألا ترى أنه إذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازا ، وإذا وجد الاتساع وحده كان ذلك مجازا . ثم إن كان وجود هذه المعانى الثلاثة سببا لوجود المجاز كان عدم واحد منها سببا لعدمه ، ألا ترى أنا إذا قلنا : لايوجد الإنسان إلا بأن يكون حيوانا ناطقا ، فالحيوانية والنطق سبب لوجود الإنسان ، وإذا عدم واحد منهما بطل أن يكون إنسانا ، وكذلك كل صفات تكون مقدمة لوجود الشيء فإن وجودها بوجوده ، وعدم واحد منها يوجب عدمه .

الثلاثة كانت الحقيقة البتَّةَ » لأن الذى لا يَحْسُنُ استعماله إلا عند اجتماع عدة أشياء يَنْتَفِى حُسْنُ استعمالِه عند انتفاء واحدٍ فقط من تلك الأشياء ، لأنه إذا انتفى أحدُها فقد زال اجتماع تلك الأشياء الذى جعلنا حُسْنَ الاستعمالِ موقوفاً عليه .

وأما تمثيله بالإنسانِ والحيوانيةِ والنطقِ فتمثيلٌ غير مطابقٍ لما نحن فيه ، لأن حَمْلَنَا كلامَ أبى الفتح على ماقد تَوَهَّمهُ خطأٌ ، إلا إن حَملناه على المَحْمَل الصحيح ، فاجتماع هذه الأشياء الثلاثةِ التى أشار أبو الفتح إليها ليس مُقَوِّماً للمجاز ، ولا هى أسباب وجوده ، وإنما هى شرائط حُسْنِ استعماله ، فكيف مَثَّلَ ذلك بأجزاء الماهِيَّة المُقَوِّمة ؟ .

— ٦٢ —

قال المصنف : الوَجْهُ الثانى أنه ذكر التشبيهَ والتوكيدَ ، وكلاهما شىء واحدٌ على الوجه الذى ذَكَره ، لأنه شَبَّهَ الرحمةَ وهى لاتُدْرَكُ بالبصر بمكان يُدْخَلُ فيه ، وهو صورةٌ تُدْرك بالبصر ، فدخَلَ تَحْتَ ذلك التوكيدُ الذى هو إخبارٌ عما لا يُدْرَك بالحاسَّةِ بما يُدْرَك بالحاسَّةِ (١) .

أقول : إن لقوله تعالى : (وأدخلناه فى رحمتنا) اعتبارين : أحدهما أنه جعل الرحمةَ ظرفا وصَرَّح بذلك حين أتى بلفظة (فى) وهى مختصة بالظرفية ، والرحمةُ هى إرادةُ الثواب ، والإرادةُ لا تكون ظرفاً .

---

(١) المثل السائر ٢/٨٦ ونص عبارة ابن الأثير (بما قد يدرك بالحاسة) .

والثانى أنّ فَحْوَى الكلام : رَحْمَتُنا قد دَخَلَ فيها قومٌ ، كما يقول دارُنا قد دخلها قومٌ ، والدخولُ حركةٌ مخصوصةٌ ، وكل حركةٍ فهى مَرْئيّةٌ بالبصر ، فقد أَخْبَرَ عما لا يُدْرَكُ بالبصر ، وأحَدُ هذين الاعتبارين مغايرٌ الآخر ، ألا ترى أن قولهم (فلان قد عَضّه الدهر) فَحْواه أمرٌ يُدْرَك بالبصر وهو العَضُّ ، فلأجل تغَايُرِ هذين الاعتبارين جعلهما أبو الفتح — رحمه الله — قسمين .

— ٦٣ —

قال المصنف : على أن التوكيدَ ها هنا لا أعلم ما أراد به ، لأنه لا يُؤْتَى به فى اللغة العربية إلا لمعنيين : أحدهما أنهَ يرِدُ بألفاظٍ محصورةٍ ، نحو نفسه وعينه وكله وغير ذلك مما هو مذكور فى كُتُب النُّحاةِ ، والآخرُ أنه يَرِدُ على وجه التكرير ، كقولك قام زيد قام ، زيد فكَرِّر اللفظُ تحقيقاً وتوكيدا للمعنى المقصود ، وأبو الفتح لم يُرِدْ أحَد هذين القسمين ، فلا يكون له معنى إلا أن يريد إبرازَ المعنى الموهوم إلى صُورة المشاهدةِ ، وقدَ عبَّرَ عنه بالتوكيد ، فيكون ذلك هو التشبيهَ بعَيْنِهِ ، فلا حاجةَ إلى إيرادِه بالذِّكْرِ (١) .

أقول : ما أراد أبو الفتح رحمه الله شيئا مما توَهَّمه هذا الرجل ، وقد اعترف بأنه لم يَفْهَمْ مُرادَهُ مع ظهوره . وذلك أن أحَد الأغراض الصحيحة فى نقل العبارةِ عن موضعها الأَصْلِيِّ إلى غيره تأكيدُ المعنى على وَجْهٍ يفْعَلُ فى نفس السامع مالا تَفْعَلُه الحقيقة ، كقوله تعالى : (سَنَفْرُغُ لكم أيها الثَّقَلان)(٢)

---

(١) المثل السائر ٢ / ٨٦ بتلخيص .

(٢) سورة الرحمن ٣١ الثقلان : الإنس والجن .

ومراده سَنَقصِدُ ، ولم يَقُلْ ذلك ، لأن فى الفَراغِ معنًى ليس فى القَصْدِ ، وهو التهديد والوعيد ، فإن قَوْلَ المَلِكِ لصاحب الجريمةِ : سأَفْرغُ لك يَتَضَمَّنُ من التخويف مالا يَتَضَمَّنُهُ قوله سأَقْصِدُ لك .

وقوله تعالى : (ولما سكَتَ عن موسى الغَضَبُ)[١] ومراده ذهب ، لكنَّ (سكت) آكدُ لما يُريده ، لأن فيه دليلا على تَوَقُّعِ عود غضبه إذا عاودوا النكرَ فى عبادتهم العجل ، كما أن الساكت يُتَوَقَّعُ كلامه .

وكقوله تعالى : (وقَدِمْنا إلى ما عمِلوا من عمل فجعلناه هَباءً منثوراً)[٢] مراده عَمَدْنا ، لكنَّ (قَدِمنا) آكدُ وأَبْلَغُ ، كأنه كان بإمْهالِه لهم كالغائب عنهم ، ثم قَدِمَ منهم على ما لاينبغى ، فجازاهم بحَسَبه ، فهذا هو مراد الشيخ أبى الفتح رحمه الله .

— ٦٤ —

قال المصنف : والوجه الثالث أنه قال : وأما الاتِّساع فإنه زاد فى أسماء الجهاتِ والمحالِّ اسماً هو الرحمة . قال : ويلزم على قياسِ هذا القول أن يكون (جَنَاح الذُّلِّ) فى قوله تعالى : (واخْفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ) هكذا يكون قد زاد فى أسماء الطيور اسما هو الذُّلُّ ، وأن يكون قول أبى تمام .

لبِسْتُ سِواه أقواما فكانوا ... كما أغْنَى التَّيمُّمُ بالصَّعيدِ

---

(١) سورة الأعراف ١٥٤ (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) .

(٢) سورة الفرقان ٢٣ .

زيادة فى أسماء اللِّباس ، وهو الإنسان(١) .

أقول : إن هذا الذى ألزمته أبا الفتح رحمه الله لا يَمْتَنِعُ من التزامه ، بل هو قياسٌ مُطَّرِدٌ فى جميع التَّوَسُّعات ، فما الذى أنكرتَ من ذلك؟ وإنما يَصحُّ اعتراضك لو أَلْزَمْتَهُ شيئاً لا يَقْدِرُ على التزامه ، ويُحتاجُ إلى بيان الفرق بينه وبين المسألة التى الكلامُ فيها ، فأما إذا كان الكلُّ ينساق سياقةً واحدةً فأىُّ محذورٍ يلزَمُ أبا الفتح من ذلك ؟

— ٦٥ —

قال المصنف : قد نظرتُ فى كتاب (أصول الفقه) للغزالى فوجدته قد قَسَّم المجازَ إلى أربعة عشَر قِسْما . قال : وهذه الأقسامُ الأربعةَ عشَر ترجِعُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ : وهى التشبيهُ ، والتوسُّعُ ، والاستعارةُ . قال : والتقسيمُ لا يَصحُّ فى شىء إلا إذ اختَصَّ كل قسم من الأقسام بصفة لا يَخْتَصُّ بها غيره(٢) .

أقول أنا قَبْلَ النظر فى اعتراضاته على الغزالى [لا بدمن تقديم مقدمة](٣) وهى أنه لا بُدَّ فى سائر المجازاتِ من عَلاقةٍ بين الأصْلِ المنقولِ عنه والفَرْعِ المنقولِ إليه ، وإلا لم تكن تلك اللَّفظةُ مجازاً من تلك الحقيقة ، بل تكونُ وَضْعا جديداً لا تَعَلُّقَ له بغيره ، وليس الكلام فى ذلك ، فالأصوليون قد

(١) المثل السائر ٢/٨٧ بتلخيص .
(٢) المثل السائر ٢/٨٨ .
(٣) كانت بالأصل تقدم مقدمة .

اتفقوا على أنه لا بُدَّ من علاقةٍ وارتباطٍ في الجملة ، لـكنهم قسَّموا تلك العلاقةَ وذلك الارتباط أقساما كثيرة ، فقالوا : قد تـكون تلك العلاقةُ باعتبار كذا ، وقد تـكون باعتبار كذا إلى آخر الأقسام .

قال هذا الرجل : إن تلك الاعتبارات التي يذكرونها متداخلةٌ ، لا لأنه قد شملها الأَمْرُ الأعظم وهو العلاقةُ من حيثُ هي علاقة ، بل لأنها في خصوصياتها التي ابتدعها الأصوليون متداخلةٌ ، وقد صَحَّتْ اعتراضاته ، وإلا فهي ساقطة .

— ٦٦ —

قال المصنف : فالقِسْمُ الأولُ من الأقسام التي ذكرها الغزالي وهو تسميةُ الشيء باسْمِ ما يشاركه في الخاصيِّةِ كقولهم للشجاع أسدٌ ، وللبليد حمارٌ . قال : وهذا القسم إما داخلٌ في الاستعارةِ إن ذُكِرَ المنقولُ إليه فقَطْ ، كقولك ركبتُ أسداً ، أو في التشبيه المحذوفِ الأداةِ إن ذكر المنقولُ والمنقول إليه معاً ، كقولك زيدٌ أسدٌ [١] .

أقول : إنَّا لا نُخالفه في هذا ، ولـكن نَنظُر فيما يقوله فيما بَعْدُ .

— ٦٧ —

قال المصنف : والقسم الثاني تسمية الشيء باسْمِ مايَؤُول إليه ، كقوله تعالى : (إني أراني أعْصرُ خمراً) وإنما رأى أنه يعصر عِنباً . قال : وهذا القسم داخلٌ في القسم المذكور قَبْلَهُ بصفةِ المشابهةِ بين المنقولِ منه والمنقولِ إليه ، وهو

---

(١) المثل السائر ٢/٨٨ .

من باب الاستعارةِ ، بل هذا أَوْغَلُ فى المشابهة منها ، لأن الخمرَ من العنبِ ، وليس الأسدُ من الرجل ، ولا الرجلُ من الأسدِ[1] .

أقول : هذا القسمُ خارجٌ عن القسم الذى قَبْلَهُ ، لأن القسمَ الذى قبله هو تسميةُ الشىء باسمِ ما يشابِهُهُ فى خاصِّيته ، كتسمية الشجاع أسداً ؛ لأن الشجاعة من أخصِّ صفاتِ الأسد ، ولذلك لم يُسَمُّوا الأَبْخَرَ أسدا ، لأنه لم يكن البَخَرُ من صفات الأسد الخاصَّةِ ، فالخمرُ والعنبُ ليت شِعْرِى فى أى الخواص اشتركا حتى يقول إن هذا القسمَ داخلٌ فى القسم الذى قبله ؟ .

فأما قوله: بل هذا أَوْغَلُ فى المشابهةِ من الأسد للشجاع، لأن الخمر من العنب، وليس الأسد من الإنسان ، فإنه يقال له ليس كَوْنُ الخمر من العنب مما يقتضى المشابهةَ التى يُنْقَلُ لأجلها اسمُ أحدهما إلى الآخر ، فإن الدَّقيقَ من الحِنْطةِ ، ولا يجوز أن يقال إنه لما كان منها كان أَوْغَلَ فى التَّشابهِ من استعارة الأسد للشجاع ، فوجب أن يُطْلَقَ على الحِنْطةِ لفظُ الدقيق .

وتحقيق هذا الموضع هو أَنَّ كَوْنَ الشىء بعُنْصُرٍ من غيره ، أو يستحيل غَيْرُه إليه ، لا يقتضى أن يكونَ بين الأمْرَيْنِ مشابهةٌ فى أمرٍ خاصٍّ لأحدهما قد اشْتَهرَ به ، وضُرِبَ المثلُ به فى فَنِّه ، كما اشْتَهرَ الأسد بالشجاعة ، وضُرِبَتْ به الأمثالُ فيها ، فلذلك نُقِلَ اسمُ الأسدِ إلى الشجاع ، للمشابهة فى ذلك الأمر الخاص ، ولم يُنْقَلْ اسم الدقيقِ إلى الحِنْطةِ ، ولا نُقِلَ اسمُ الخمر إلى

---

(١) المثل السائر ٢/٨٩ .

العنب ، بالاعتبار الذى به نُقِلَ اسمُ الأسدِ إلى الشجاع ، بل باعتبارٍ آخرَ وهو تسميةُ الشىء باسم مايؤولُ إليه .

وقدحقق الأُصوليون هذا القِسْم تحقيقاً أَزْيَدَ من هذا ، فقالوا : من أقسام المجاز إطلاقُ اسمِ السَّببِ على المسَبَّب ، ولا يثبت فى العلوم الحِكْمية ، لأن العِللَ أربعةٌ : الفاعل ، والصُّورة ، والمادة ، والغاية . وكانت أنواع هذا القسمِ أربعةً :

الأولُ تسميةُ الشىء باسمِ العِلَّةِ الفاعليةِ إما حقيقةً أو ظناً ، كتسمية المطر سماء ، الثانى تسميةُ الشىء باسم العلة الصُّوريةِ ، كتسميتهم اليَدَ بالقُدْرةِ ، الثالثُ تسميةُ الشىء باسم العِلَّةِ القابليَّةِ ، كقولهم سالَ الوادى ، يَعْنون المطر ، الرابعُ تسميةُ الشىء باسم العلة الغائيَّة ، كتسمية العَقْد بالنكاح ، والعنب بالخمر .

— ٦٨ —

قال المصنف : والقسم الثالث تسمية الشىء باسم فرعه ، كقول الشاعر .

وما العيشُ إلا نومةٌ وتَشَوُّقٌ وتمرٌ على رَأْسِ النخيلِ وماء

فسمى الرُّطَبَ تمرا . وهذا القسم والذى قبله سواء ، لأن هناك سُمِّى العِنَبُ خمراً ، وها هنا سُمِّى الرطبُ تمراً ، لأنه أصْلُ التمر ، وهما داخلان فى القسم الأول .

قال وهَبْ أنَّ الغزالىَّ لم يُحَقِّقْ أمر المجاز ، وقسَّمه أقساما لاحاجةَ إليها ،

ألم يَنْظُرْ إلى هذين القسمين اللذين هما العنبُ والخمرُ ، والرُّطَبُ والتَّمرُ ، ويعلم أنهما شيء واحد ، لافرقَ بينهما[1] ؟ .

أقول : بل بينهما فرقٌ ظاهرٌ لو أمعنتَ النظر ، لأن العنب إذا صار خمراً فقد استحال من صورةٍ إلى صُورةٍ مباينةٍ للأُولى فى جميع أَحوالها ، إلا فيما لا بُدَّ من الاشتراك فيه كالجِسْمِيَّةِ ونَحْوِها ، فهو كالماء يستحيلُ هواء ، والهواء يسْتحيل ناراً ، والرُّطَبُ إذا صار تمراً لم يَسْتَحِلْ إلى صورة أخرى ، بل هو ذلك الجسمُ بعَيْنِهِ ، إلا أنه يَبِسَ وجَفَّ بعد أن كان رُطَبا ، كاللحم الغَرِيضِ يصير قَديداً ، والتِّينِ الرَّطْب يصير يابساً ، فإنما تَغَيَّر منه عَرَضٌ واحدٌ ، وهو الرطوبة التى تبدلت باليبوسةِ لا غَيْرُ . فَبَيْنَ الأَمْرَيْنِ فرقٌ واضحٌ ، وبحَسَبِ ذلك الفَرق جُعِلَ أحدُ القسمين غيرَ الثانى .

فأما قوله : وهما داخلان فى القِسْمِ الأولِ أيضاً ، فإنه ليس بداخل فى القسم الأول ، لأن مُعْتَمَد القسم الأول المشابهةُ فى الوصف الأَخَصِّ ، ولا مشابهةَ بين الإنسان والنُّطْفة .

— ٦٩ —

قال المصنف : والقِسمُ الخامس تَسْميتُهُ بما يدعو إليه ، كتسميتهم الاعتقاد قولا ، نحو قولهم هذا يَقولُ بقَولِ الشافعى ، أى يعتقدُ اعتقاده .

قال : وهذا القِسْمُ يدخل فى القسم الأول أيضاً ، لأن بين الاعتقاد والقول مناسبةً كالمناسبة بين السَّبب والمسَبَّب ، والباطن والظاهر[2] .

---

(١) المثل السائر ٢/٨٩ .
(٢) المثل السائر ٢/٩٠ .

أقول : إن كان يَعْنِي بهذه المناسبة الاشتراكَ فى صفة خاصةٍ ، كاشتراك الشجاع والأسد فى الشجاعة ، فليس الأمر كذلك ، لأن الاعتقادَ القلبيَّ مثلٌ هذه للمشاركة ، وإن أراد مناسبةً أعمَّ من هذا أى بينهما علاقةٌ وارتباطٌ ، وهو الذى أراده ، لأنه مَثَّلَهُ بمناسبة السبب للمسبَّب ، فهذا مُسَلَّمٌ . ولكن نحن لم نَمْنعْ أنَّ بين المجاز وبين موضوعه الأصليِّ مناسبةً فى الجملة ، وكيف نمنع ذلك ، ولولا المناسبةُ لم يكن مجازاً ؟ .

فإن كان يحاول أن يَرُدَّ الأقسامَ كلَّها إلى قسمٍ واحدٍ لأجل أنَّ الأقسام تشترك فى أنَّ بين المنقول إليه والمنقول عنه مناسبةً ، فإنه لم يَفْهَمْ مُرادَ الأصوليين فى هذا الموضِع ، وما هو إلا مِثْلُ أن يقول لهم : لا تُقَسِّموا الحكم إلى واجبٍ ونَدْبٍ ومَحْظورٍ ومكروهٍ ، لأن هذه الأقسامَ قد اشتركتْ فى أنها اقتضاء أمرٍ من المكلَّفِ . فالواجبُ ما اقْتَضَى فِعْلُهُ لا بُدَّ منه ، والحرامُ ما اقتضى تركُهُ لا بد منه ، والنَّدْبُ ما اقتضى فعلُه مع تجويز تركه ، والمكروه ما اقتضى تَرْكُهُ مع تجويز فعله ، فهل يجوز لقائلٍ : لمَّا كان الاقتضاء يعمُّ هذه الأقسامَ ، وتتبايَنُ خصوصيتها ، فلا تفصِّلوها ، ولا تجعلوها أقساما متعددة ؟ .

— ٧٠ —

قال المصنف : والقسم السادسُ تسميةُ الشيء باسم مكانه ، كقولهم للمطر سماء ، لأنه يَنْزِلُ منها . قال : وهذا القسم أيضاً داخلٌ فى الأول للمناسبة

بين المنقول والمنقول إليه . قال : على أن تسمية المطر سماء يغلب على الظن أنه حقيقةٌ وليس بمجاز[1]

أقول : قد بيَّنا أنه لا بدَّ من مناسبة مَّا ، ولكن هذا القسم ليس بداخل فى القسم الأول ، لأن مناسبة القسم الأول هى المشابهة ، كالحمار والبليد ، والأسد والشجاع ، ولا مشابهةَ بين المطر والفَلَك ، فإنه توَهَّمَ أنه لأَجْلِ العُلُوِّ ، فالمطر الذى يمكث فى الأرض أيا ما يُسَمَّى سماء ، قالوا : مازلتُ أطأ السماء حتى جئتك . ونحن قدَ بيَّنا لِمَ سَمَّوا المطر سماء . وأما قوله إنه حقيقة فيه فقريبٌ ، ولا يبعد أيضا ذلك عندى .

— ٧١ —

قال المصنف : والقسمُ السابعُ تسميتهم الشىء باسم ما يُجاوره ، كقولهم للمزادة رَاوِيَة ، وإنما الراويةُ الجملُ الذى يَحْمِلُها . قال : وهذا القسم من باب التَّوَسُّعِ لا مِنْ باب التشبيه ، ولا من باب الاستعارة ، لأنَّ على قياسه ينبغى أن يُسَمَّى الجمل زاملة ، [لأنه يحملها][2] .

أقول : إنا قد استظرفنا اعترافه أنَّ هذا القسم خارجٌ عن الأول ، فعَجِبْنا منه كيف لم يُعْده إليه بأمرٍ مَّا يتعلق به ، مِثْل أن يقول إن المزادة يُنْتَفَعُ بها ، والبعير يُنْتَفَعُ به ، فتَشَابَهَا فى عموم الانتفاع بهما ، ونحو ذلك من التَّعَلُّقات الضعيفة التى جَرَتْ عادته أن يَتَمَسَّكَ بها .

---

(١) المثل السائر ٢/٩٠ .

(٢) المثل السائر ٢/٩١ وما بين القوسين زيادة من المثل السائر .

واعلم أن من الأصوليين مَنْ جعل هذا القسم مُفْرداً برأسه ، وقال إن المجاورةَ علاقةُ ما بين المتجاوِرَيْنِ ، فنقِلَ بطريقها اسْمُ المجاور إلى صاحبه ، وهؤلاء يلزمهم قولُه : فهلا سَمَّوْا الجملَ مزادةً لأنه يحملها ؟ . لأن استعمال اللفظ فى معناه المجازيِّ عنده لا يؤخذ قياسا فى كل موضع ، ألا يرَى أنهم يُطْلقون النَّخلَةَ على الرجل الطويل ، ولا يطلقونها على غيره من الطِّوال ؟ ولأنه لو كَفَى فى استعمال اللفظ المجازى مُجَرَّدُ علاقةٍ وصِلةٍ كيف كانت لقالوا للأَبْخر أسد ، لأن الأسد أبخر ، فلِمَ لَمْ يقولوا ذلك ؟ علمنا أن هذا أمر لا يَطَّرِدُ ، وأيضا فإن هذا الرجل يَلْزَمُه ما ألزمهم ، لأنه إن كان يلزمهم لَمَّا قالوا إن هذا المجاز لأجل المجاورة أن يُسَمَّى الجمل زاملةً أيضا على طريق الاتساع .

ومن الأصوليين من جعل هذا القسمَ من أقسام المجاز بسبب العلة القابلية ، وقال إنه بمنزلة تسمية الشراب كأسا ، لأن الكأسَ قابلٌ للشراب .

— ٧٢ —

قال المصنف : القسم الثامن تسميةُ الشيء باسم جزئه ، كقولهم : أَبْعَدَ الله وجهه ، وإنما يريدون سائر جُثَّته .

قال : وهذا القسم داخلٌ فى القسم الأول ، وهو تسميةُ الشيء باسم فَرْعِهِ (١) .

أقول : قد بَيَّنَّا أنه لا يَدْخُلُ هذا وأمثاله فى القسم الأول بوجه من الوجوه أصْلاً .

---

(١) المثل السائر ٢/٩١ .

وقد قال الأصوليون إنه قد يُسَمَّى الجزء باسم الكل ، كإطلاقِ اللفظِ العام ، مع أن المراد به الخصوصُ ، نحو قوله تعالى : (اقتلوا المشركين)[١]. والمراد بعضهم ، وقد يُسَمَّى الكل باسم الجزء ، كما يقال الزِّنْجى أَسْوَدُ ، والمراد أسودُ البَشَرة ، لكن المجاز الأولَ أدخلُ فى باب المجاز وأولى من الثانى ، لأن الجزء يلازم الكُلَّ ، وأما الكل فلا يلازم الجزء .

— ٧٣ —

قال المصنف : والقسمُ التاسعُ تسميةُ الشىء باسم ضِدِّهِ ، كقولهم جَوْن للأبيض ، وهو اسم للأسود ، قال : وهذا ليس من المجاز ، بل هو حقيقةٌ فى الموضِعَيْن ، مثل شِمْتُ السيفَ إذا أغمدتُهُ وسللته[٢] .

أقول إن تسمية الشىء باسم ضده قد ذكره الأصوليون ، وقالوا إنه كقوله تعالى : (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها)[٣] وقولهُ : (فمن اعتدى عليكم فاعْتَدُوا عليه بِمثْلِ ما اعتدى عليكم)[٤]. وما رأيناهم ذكروا هذا المثالَ الذى حكاه ، ولا يبعد عندى أن يكون ما اعْتَرَضَ به عليه صحيحا ، فإن أكثر أهل اللغة قالوا إن الجَوْن من الأضداد ، وليس إفسادُ المِثالِ مُوجباً لإفساد المِثْلِ عليه ، ومن الناس من جعل قوله تعالى : (جزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها) من باب المجاز

---

(٢) سورة التوبة ٥ (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) .

(٢) المثل السائر ٢/٩١ قال ابن الأثير : لأن من الأسماء المشتركة ، كقولهم شمت السيف إذا سللته ، وشمته إذا أغمدته ، فدل الشيم على الضدين معا بالوضع الحقيق .

(٣) سورة الشورى ٤٠ .

(٤) سورة البقرة ١٩٤ .

لا التشبيه ، وهو الذى يسمى استعارة ، وهو القسمُ الأولُ الذى حاول هذا الرجل أن يُعيدَ إليه أكثر هذه الأقسام . وقالوا إن جزاء السيئة يشبه السيئة فى كونها سيئةً بالنسبة إلى من وَصَلَ ذلك الجزاء إليه ، وليت هذا الرجل لمَّا حاول أن يعيد الأقسامَ إلى القسم الأول بَيَّنَهُ فى هذا القسم ، فهذه المشابهة أوردها ، فكان يأتى بشىء له ذَوْقٌ .

— ٧٤ —

قال المصنف : والقسم العاشر تسميةُ الشىء بِفعلِه ، كتسمية الخمر مُسْكرا .

قال : وهذا القسم داخلٌ فى القسم الأول ، وأىُّ مشاركةٍ أقربُ من هذه المشاركة ؟ فإن الإسكار صفةٌ لازمةٌ للخمر ، وليست الشجاعةُ صفةً لازمة لزيد ، لأنه يمكن أن يكون زيدٌ ولا شجاعة ، ولا يمكن أن يكون خمر ولا إسكار ، ألا ترى أنها لم تُسَمَّ خمرا إلا لإسكارها ، فإنها تَخْمُرُ العقلَ أى تَسْتُره(١) .

أقول : إن هذا الرجلَ لم يَعْلَمَ المرادَ بهذا القِسْمِ ، فإن السكر هو الفاعل، من أَسْكَرَ يُسْكِرُ ، فهو مُسْكِر ، كالضارب فاعل من ضرب يضرب فهو ضارب ، ولا يكون الإنسان ضاربا إلا إذا ضرب ، وأما قَبْلَ وقوع الضرب منه وبعد انقضاء الضرب لا يكون حقيقة ، لأنه ليس فى تلك الحال بضارب ، والقوم قالوا إن الخمر تُسَمَّى مسكرا قبل ألاَّ تُشْرَبَ وتُسْكِرَ شاربها ، فقد

---

(١) المثل السائر ٢/٩٢ .

سَمَّوا الشيء بما من شأنه أن يفعله ، و بأثره قَبْلَ أن يفعله ويؤثره ، وهذا هو المجاز ، وليس يَصْلُحُ أن يُجاب عن هذا بما ذكره من قوله هذا داخلٌ في القسم الأول ، وأي مشاركة أقرب من هذه المشاركة ، لأن الإسكار ليس صفةً لازمةً للخمر ، و إنما الصفة اللازمة لها القوة على الإسكار .

والقوم ماقالوا إن المجاز في قولنا الخمر قوية على الإسكار ، بل في قولنا الخمر مسكرة ، وبهذا بَطَلَ قوله لايمكن أن يكون خمرٌ ولا إسكار ، وقد يمكن أن يكون زيدٌ ولا شجاعة ، فإنه ظن أن الإسكار الذي يريدونه هاهنا هو الإسكار بالقوة ، وليس هو مُرادَهم ، بل مرادهم الإسكار بالفعْلِ ، وباعتباره جعلوا قولنا الخمرة مسكرة مجازاً .

ومما يوضح غلطه في هذا الموضع أنه لوكان الإسكارُ صفةً لازمةً للخمر ، ولا توجد خمرٌ إلا وهي مسكرة على الوجه الذي قاله وادعاه ، لكان إطلاق لفظة المسكر على الخمر حقيقةً ، كإطلاق لفظة اللَّيْث على الأسد ، فكيف يكون هذا القسم داخلا في القسم الأول ، كقولنا للشجاع أسد ، وللبليد حمار ؟ وأين المماثلة بين هذا المَوْضِع وبين ذلك القسم ؟ فإن ذلك القسم عبارةٌ عن شيئين تشابها في صفةٍ خاصةٍ بأحدهما ، فنقل اسمه إلى ماشابهه ، وليست الخمر مشاركةً في شيء آخر يسمَّى مسكرا في معنى الإسكار ، فنقل اسمه إليها .

— ٧٥ —

قال المصنف : والقسم الحادِى عشر تَسمية ُالشىء بكُــلِّه ، كقولك فى جواب سائلٍ سألك : ما فعل زيدٌ ؟ فقلت : القيامُ . فإن القيامَ جنسٌ يتناول جميعَ أنواعِهِ .

قال : وهذا القسم لا ينبغى أن يَدْخُلَ فى أقسام المجاز ، لأن القيامَ لزيد حقيقةٌ ، فإن قلتَ يشتمل على جميع أنواعه من الماضى والحاضر والمستقبل ، قلتُ فهذا من أقربِ أقسامِ المجازِ مناسبةً ، لأنه إقامةُ المصدر مقام الفعل الماضى ، والمصدر أصل الفعل ، وعلى هذا فإن القسم داخل فى القسم الأول[1].

أقول : إنا قد ذكرنا تسمية الجزء بالــكل كيف يكون ، وضربنا لذلك مثالا ، فأما هذا الذى ذكره فإنه شىء غَلَطٌ ، قاله أبو الفتح عثمان بن جِنِّى فى كتاب الخصائص ، ووَهِمَ فيه ، لأنه ظنَّ أن المصدر لفظٌ يدل على أشخاص تلك الماهيَّة ، وليس بصحيح ، بل المصدر لفظٌ يدل على مجرد الماهيَّة ، وهو القَدْرُ المشترك بين الواحد والــكل .

فأما الماهيةُ من حيث هى ، فلا تستلزم الوَحْدةَ والــكَثْرةَ ، لأنها لو استلزَمَتْ إحداهما لما كانت مجردةً من حيث هى ، وقد فرضناها كذلك ، فإذَنْ لا المصدر ولا الفعلُ المشتَقُّ من المصدرِ يَدُلاَّن على الــكثرة وعلى

(١) المثل السائر ٢/٩٣ .

الوحدة ، لكنّ أبا الفتح ذكر مثل هذا القسم بمثال مطابق فقال : أنا إذا قلت ضربت عمراً ، فإنى إنما ضربتُ بعضه .

فأما هذا المصنف فلم يعترض على الكلام كما ينبغى ، أما أولاً فلأنه ظن أن المصدر هاهنا يقوم مقام الفعل الماضى ، وليس بصحيح ، لأنك إذا قلتَ فعلَ زيدٌ القيامَ فقد أقررتَ أنه صدر عنه أثرٌ مّا مفعولٌ حسب صدور الآثار عن المؤثرات ، والفعل الماضى ليس بأثر يَصْدُرُ عن المؤثِّر ، ولا المستقبل أيضا ، ولا الحاضر ، لأن الفعل الذى هو قسيم للاسم والحرف لوكان أثراً لمؤَثِّرٍ لكان اسما لا فعلا .

وأما ثانيا فلأنه لو صَحَّ ما قاله لما كان هذا القسم داخلا تَحْتَ القِسم الأولِ ، لأن كونه أصلاً له لا يقتضى وقوعَ المشابهة بينهما بِنَقْلِ اسم أحدهما للآخر ، وقد قرَّرنا ذلك فيما تقدم..

— ٧٦ —

قال المصنف : القسم الثانى عشر الزيادة فى الكلام لغير فائدة ، كقوله تعالى (فبِمَا رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم) معناه فبرحمة من الله . قال : وهذا خطأ ، أما أولا فإن المجاز هو دلالة اللفظ على غير ما وُضِعَ له فى أصل اللغة ، وهذه الآية دالةٌ على الوضع اللغوىِّ المنطوقِ به فى أصل اللغة .

وأما ثانيا : فإن لفظة (ما) هاهنا غيرُ خاليةٍ من المعنى ، لأنها تعطى من

الفخامة والفصاحة والجزالة ما لا تعطى الآية عند فقدها ، كقول الزَّبَّاء (ولـكنه شيمةَ ما أُناس)[1] قال وهذا شىء لا يعرفه إلا أهله .
والغزالىُّ معذورٌ فى ألاَّ يعرف ذلك ، لأنه ليس من فَنِّه[2] .

أقول إن ما قاله الغزالى وغيره فى هذا الموضع مأخوذ من قول شيخنا أبى عبد الله البصيرى المتـكلم ، فإنه قال : الحقيقةُ ما انتظَمَ لفظُها معناها من غير زيادةٍ ونقصانٍ ولا نَقْلٍ ، والمجازُ ما لا ينتظم لفظه معناه إلا لزيادة ونقصانٍ أو نقلٍ ، كزيادة الـكاف فى قوله تعالى : (ليس كمثله شىء)[3] فإنَّا لو أسقطنا الـكاف استقام المعنى . ومثال النقصان قوله : (واسأل القرية)[4] ، فإنا إذا زدنا فيه لفظة الأهل استقام المعنى . ومثال النقل قولنا : رأيت أسدا ، تعنى به الرجل الشجاع ، فإنه منقول من السبع .

وإذا أردنا الـكلام على هذا الوجه كان قوله (فبما رحمة) مجازا ، لأنه لا ينتظم اللفظ معناه إلا بحذف (ما) .

قلنا : لا نسلم أنَّ هذا مجاز ، بل هذه دالة على الوضع اللغوى المنطوق به فى أصل اللغة ، فيقال له أما أولاً فإن القوم حَدُّوا المجاز بحدٍّ هو موجودٌ فى هذا الموضع ، ولا يجوز أن يقال لمن حَدَّ أمرا بحَدٍّ : لم قلت إن هذا هذه ؟ لأن القوم قد اختاروا أن يضعوا اللفظ المجاز لِمَا كان بهذه الصفةِ . والمنازعةُ بعد ذلك لهم منازعةٌ لفظيةٌ .

---

(١) وردت هذه الجملة فى كلمات لها مع جذيمة الأبرش ، قال ابن الأثير : معنى الـكلام ولـكنه شيمة أناس ، وإنما جاءت لفظه ماهاهنا تفخيما لشأن صاحب تلك الشيمة وتعظيما لأمره ، ولو أسقطت لما كان للـكلام هذه الفخامة والجزالة .

(٢) المثل السائر ٢/٩٤ .

(٣) سورة الشورى ١١ .

(٤) سورة يوسف ٨٢ .

وأما ثانيا فلأن (ما) فى هذا الموضع حرف ، والحروف لايدخلها المجاز بالذات ، لأنها غير مستقلة بأنفسها بالمفهومية ، بل لابد أن تَنْضَمَّ إلى شىء آخر لتحصيل الفائدة ، فإن انضمت إلى كلام يرتبط به ، ويُخلّ إسقاطُها بالمعنى المفهوم منه فالمركَّبُ حقيقةٌ ، وإلا فهو مجاز .

ولا شبهة فى أن (ما) فى هذا الموضع ليست مرتبطة بغيرها ارتباطا مفهوما للمعنى المطلوب .

فاما جوابه الثانى فيلزم عليه أن يكون قوله تعالى : (واخفض لهما جناح الذل)[1] حقيقة لاتعطى من الفخامة والفصاحة مالا تعطيه الآية عند حَذْفِهِ . وكذلك القول فى سائر المجازات .

فإن قال إننى لم أجعل إفادةَ هذهِ اللفظةِ الفخامةَ والجزالةَ مُخرجةً لها من باب المجاز ، وإنما منعتُ قول من قال إنه لا فائدة فيها أصلا ، قيل له : فإذا اعترفتَ أنها من باب المجاز فقد سَلَّمْتَ قول الغزالى ، فلأى معنى تَنْتَقِصُه، وتقول هو معذور فى ألا يعرف هذا ، لأنه ليس من فنه ؟ والغزالى إنما أراد بقوله إن (ما) زائدة لامعنى لها فى خصوص المقصد المطلوب بالآية لاغير ذلك .

— ٧٧ —

قال المصنف : القسم الثالثُ عشَر تسميةُ الشيء بحُكْمِهِ ، كقوله تعالى (وامرأةً مؤمنةً إن وهَبَتْ نَفْسَها للنبي) فسمى النكاح هِبةً .

---

(١) سورة الإسراء ٢٤ .

قال : وهذا القسم داخلٌ في القسم الأول ، للمشابهة بين النكاح والهبةِ في التمكين من الانتفاع والتصرف[1] .

أقول : إن هذا الاعتراضَ الذي ذكره صحيحٌ لامنازعةَ فيه ، ثم إنا نقولُ إن تمثيل هذا القسم بالنكاح هبة فلم يُسَمَّ الشيء بحكمه ، بل بما يفيد مِثْلَ حكمه ، وفَرْقٌ بين الحكم وبين المفيد لِمِثْلِ الحكم . على أن أكثر المفسرين لم يذهبو إلى أنه سَمَّى النكاح هبة ، بل جعلوا لفظةَ الهبةِ حقيقةً صريحةً في هذه الواقعة .

— ٧٨ —

قال المصنف : القسمُ الرابعُ عشرَ النقصانُ الذي لا يَبْطُلُ به المعنى ، كحذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، نحو قوله : (ثم يَرْمِ به بَرِيئاً)[2] أي شخصا ، وكحذف المضاف و إقامة المضاف إليه مقامه ، كقوله(واسأل القرية) أي أهلها.

قال : وهذا القسم داخل في القسم الأول ، لأن الصفة لازمةٌ للموصوف . وقوله (واسأل القرية) دل على الساكن بالمسكن .

قال : فهذه أقسام المجاز التي ذكرها الغزالي قد انتهت في تقسيمها ، وإنما يَرْجِعُ إلى ثلاثة أقسام : التوسع ، والتشبيه ، والاستعارة[3] .

أقول : قد تكرر منا إيضاحُ غلطه في إعادة هذه الأقسام إلى القسم الأول،

---

(١) المثل السائر ٢/٩٥ .

(٢) المثل السائر ٢/٩٥ (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا) سورة النساء ١١٢ .

(٣) المثل السائر ٢/٩٦ .

الذى يَتَوَهَّمُ عَوْدَها إليه ، لأن الصفة لو لازمت الموصوف لما كانت من باب المشابهةِ الموجودةِ فى السَّبعُ والشجاع ، بل كانت بابا آخر ، وكذلك الدلالة بالمسكن على الساكن ، هى مجاز باعتبار آخر غير ذَيْنك الاعتبارين .

وكل قسم من هذه الأقسام له خصوصيةٌ ينفرد بها ، ويمتاز عن غيره بها ، ولو أن هذا الرجل يَقِفُ على التقسيمات العقلية الدقيقة فى العلوم الحكمية والكلامية التى يمتاز كل قسم منها عن الآخر بما هو أَدَقُّ من الشعر ، ولا يفهمه إلا الراسخون فى العلم ، لكانت هذه التقسيمات فى امتياز بعضها عن بعض أَجْلَى من فَلَقِ الصُّبْح ، لأنه ليس فيها من الغموض ما يُوقِعُ فى مثل هذا الغلط .

على أنه زعم أنه قد أعادها إلى ثلاثة : وهى الاستعارة ، والتشبيه ، والتوسع ، ولم يُعِدْ منها إلى التشبيه شيئاً أيضاً .

— ٧٩ —

قال المصنف : ومن شَرْطِ بلاغةِ التشبيه أن يُشَبَّهَ الشىء بما هو أكبرُ منه وأعظمُ ، كما قال بعض كتاب[١] مصر فى تشبيهِ حِصْنٍ من حصون الجبال : « هامةٌ عليها من الغَمامةِ عِمامةٌ ، وأَنْمُلةٌ خَضَبها الأصيل ، فكان الهلالُ منها قُلامة » : فإنه أخطأ فى قوله أنملة ، وأى مقدار للأنملة بالنسبة إلى حصن على رأس جَبَلٍ ؟ قال : فإن قلت فقد قال الله عز وجل :

---

(١) هو القاضى الفاضل رئيس ديوان الإنشاء وصاحب الطريقة الفاضلية ووزير صلاح الدين الأيوبى توفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) .

(مَثَلُ نورِهِ كَمِشكاةٍ فيها مصباحٌ) فشبه نوره مما هو دونه ، وقد قال سبحانه فى القمر : (حتى عادَ كالعُرْجونِ القديمِ) فشبه بما هو دونه ، قلت : هذه الآية تشبيهها لطيفٌ غريبٌ ، لأنه أراد به النبى صلى الله عليه وسلم وآله ، لأن قلبه عليه السلام وما هو عليه من الصَّفاء والشَّفافيةِ كالزجاجة التى كأنها كوكب لصفائها وإضاءتها ، والشجرة المباركة التى لا شرقية ولا غربية هى ذات النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، لأنه من أرض الحجاز التى لا تميلُ إلى المشرق ولا إلى المغرب ، وزيت هذه الزجاجة مضىء من غير أن تمسه نارٌ ، معناه أن فطرته صافيةٌ من الأكدار مُنيرةٌ من قِبَلِ مصافحة الأنوار ، فهذا هو المراد من التشبيه من هذه (الآية) .

وأما الآيةُ الثانيةُ فإنه تعالى شَبَّهَ الهلالَ بالعُرجُونِ فى نُحُولِهِ واستدارته لافى مقداره ، لأن مقدار الهلال عظيم لا نسبة للعُرْجون إليه ، لكنه شبهه به فى الهيئة والشكل(١) .

أقول إن التشبيه يَحْسُنُ ويَقْبُحُ باعتبار الجهة التى وقع التشبيه فيها ، فإذا شُبِّهَ العظيم مقدارا (بأقل منه) فى المقدارية قبح ، وكانت القضيةُ كاذبةً . فإن شُبِّهَ به لافى المقدار ، بل فى أمر آخر يتناسبان فيه كان حَسناً ، وهذا كقوله تعالى فى صفة الصحابة رضى الله عنهم : (كزَرْعٍ أخرجَ شَطْأَه)(٢) ، فإن عاقلا

---

(١) المثل السائر ٢/١٢٧ .

(٢) سورة الفتح ٢٩ الشطء : فراخ الزرع أو ورقه أو ما حول أصل النبات .

لا يقول : هذا التشبيهُ قبيحٌ ، لأن أجسام الصحابة وجُثثهم أكبرُ وأعظمُ مقداراً من الزرع ، لأنه ما أراد التشبيه فى المقداريّةِ ، بل فى أمرٍ آخَر .

وهكذا قوله: (حتى عاد كالعُرجونِ القديم) لا يريد مقدارَه ، بل شكلَه.

وكذلك تشبيهُ الكافر بالكلب فى قوله : (فمثلُهُ كمثَلِ الكلب إنْ تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ)[1] .

لا يعنى الصورةَ والجثّةَ ، بل معنًى آخر ، وكذلك هذا الكاتبُ المِصْرِىُّ. والذى حمل هذا الرجلَ على أن عابه بما عاب به نفسه ، حسده له .

وهو لا يعنى أن الحِصْنَ العظيم على ذروة الجبل الشاهقِ كالأُنْمُلةِ فى مقدارها وجُثّتها ، بل بَيْنَه وبين الأنملةِ مشابهةٌ لطيفةٌ وهى أن الأنملةَ جسمٌ صغيرٌ ناتىء من جسمٍ كبيرٍ وهو البدنُ ، وكذلك الحِصْنُ على الجبل، وهذا هو الذى أراده الرجل ، والأمرُ فيه واضحٌ بيِّنٌ .

فأما تفسيره لآية النور فظريفٌ جدا ، أما أولاً فلأنه سبحانه لو قال : (مثل نورى كالنور الذى فى قلب محمد صلى الله عليه وسلم) لكان ركيكا .

وأما ثانياً فلأنه قال : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ،المصباح فى زجاجة) فإذا كان قلب النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو الزجاجة ، ولا شُبهةَ أن المصباح الذى فيها هو النور ، والمشكاة ما هى ؟ فقد زعم أنها ذات النبى صلى الله عليه

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦ .

وآله وسلم ، فإنه قد قال إن ذات النبي هي الشجرة المباركة ، فلا يبقى للمشكاة ما تُحْمَلُ عليه .

وأما ثالثاً فإن الله تعالى وصف الشجرة بأنها زيتونةٌ لاشرقيةٌ ولا غربيةٌ ، ونرى هذا المفسر قد فسر قوله لاشرقية ولا غربية ، ولم يفسر قوله زيتونة ، وقد كان الواجب عليه أن يفيدنا بتفسير ذلك .

وأما رابعاً فلأن غلاةَ الباطنيَّةِ[1] الذين يقولون في قوله سبحانه وتعالى : (ووهَبْنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسانَ صِدْقٍ عَلِياً)[2] المراد به على بن أبي طالب أعْذَرُ في تأويلاتهم ، وأقربُ إلى الأذهانِ من هذا الرجل .

وأما خامساً فإنه لم يَنْفصِلْ من السؤال ، لأنه لو سُلِّمَ له جميعُ ما ذكره ، أليس قد شبه الله تعالى نوره بنور محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟ ونور محمد دُونَ نور الله تعالى لأنه مستفادٌ من نوره ، وما يستفاد من أصْلٍ يكون دونَ الأصلِ المستفادِ منه ، وقد توجَّه الإشكال .

— ٨٠ —

قال المصنف : فأما التَّجْرِيدُ فهو إخلاصُ الخطابِ لغيركَ وأنت تريد به نفسك .

قال : وهو نوعان : تجريدٌ بمعنى التَّوسُّع فقط ، وتجريدٌ حقيقةً . فأما التجريد بمعنى التوسع ، فكقول الصِّمَّة القُشَيْرى :

---

(١) الباطنية أشهر ألقاب الإسماعيلية ، وهم الذين يثبتون الإمامة لإسماعيل بن جعفر ، وقد خلط القدماء منهم كلامهم ببعض كلام الفلاسفة ، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج ، ولهم آراء غريبة ذكر الشهر ستانى طرفا منها (الملل والنحل ١/١٧٢) .

(٢) سورة مريم ٥٠ .

حَنَنْتَ إلى رَيّا ونفْسُك باعَدَتْ مَزارَكَ من رَيَّا وشعبا كما معَاَ

فانه قال بعد أبيات :

وأذكر أيامَ الحِمَى ثم أَنْثَنِي
على كبـــــدِى من حرِّهِ أَنْ تقطعا[1]

فانتقل إلى ذكر نفسه ، ولو لم يَقُلْ (وأذكر أيام الحمى) لقضينا عليه بأنه تجريد حقيقةً .

ومثال التجريد الحقيقي قولُ الحَيْصَ بَيْصَ :

إلام يراكَ المَجْدُ فى زِىِّ شاعرِ وقد نَحَلَتْ شوقا فروعُ المنابرِ

فانه لم ينتقل إلى هذا بعد ذكر نفسه ، بل استمر على التجريد ، لأنه قال بعد هذا البيت :

كتَمْتَ بعَيْبِ الشعرِ عِلْماً وحكمةً ببَعْضِهما ينقادُ صَعْبُ المفَاخِرِ
أمَا وأبيكَ الخيرِ إنك فارس الـــمقال ومُحْيِي الدَّراساتِ الغوابرِ
وإنك أغنَيْتَ المسامع والنُّهَى بقولك عَمَّا فى بُطونِ الدفاترِ[2]

أقول: إنه قد انتقل بعد هذا إلى ذكر نفسه ، فعدل عن كاف الخطاب ، إلى ياء الضمير ، إلى تاء المتكلم فقال :

تَطاوَلَ لَيْلِى ما أَرَى ذا نَباهة يُجَلِّى دُجَى ظَلْمائه عن خواطرى

(١) البيت فى المثل السائر وفى ديوان الحماسة (على كبدى من خشية أن تصدعا) .
(٢) المثل السائر ٢/١٦٣ .

سَهِرْتُ لبرقٍ من ديار ربيعةٍ ولم أكُ للبرق اللَّموعِ بساهر

قال: كأن الصِّمَّة القُشَيْرى فى شعره لم يأت بالتجريد الحقيقى، لعَوْدِهِ بعد أبيات عن كاف الخطاب، فالَحيْصَ بَيْصَ مِثْلُهُ.

— ٨١ —

قال المصنف: وقد قال أبو على الفارسى رحمه الله إن العرب كانت تعتقد فى الإنسان معنى كامناً فيه، كأنه حقيقته ومحصوله، فتُخْرِجُ ذلك المعنى إلى ألفاظها مُجَرَّداً من الإنسان، كأنه غيره، وهو هو بعينه، نحو قولهم: لئن لقيت فلانا لتَلْقَيَنَّ منه الأسد، ولئن سألته لتسألَنَّ منه البحر، وهو بعينه الأسد والبحر، لا أن هناك شيئا منفصلا عنه ومتميزا منه.

وهذا ليس بتجريد، بل هو تشبيهٌ مُضْمَرُ الأداة، وتقديره لتسألَنَّ منه كالبحر، ولتلقَيَنَّ منه كالأسد، وليس هو من التجريد المشار إليه فى الأبيات الشعرية، ولاحقيقة التجريد موجودة فيه[1].

أقول إن الحدَّ الذى حَدَّ هذا الرجل التجريدَ به لم يأتِ فيه نصٌّ من كتاب الله تعالى، ولاورد عن رسول الله، وإنما هو حَدٌّ اختاره هو، وفسر التجريد به، فإنه حَجَرَ على أبى على رحمه الله أن يَجْعلَ التجريد شيئاً آخر. ومعلوم أن هذه الاصطلاحات والمواصفات موكولةٌ إلى آراءِ العقلاء واختياراتهم، فأبو على

(١) المثل السائر ٢/١٦٧ وفى كلام ابن أبى الحديد زيادة لا تخل بالمعنى، ليست فى المثل السائر.

رحمه الله قد اختار أن يُسَمِّى قولهم (إذا سألت زيدا سألت البحر) تجريدا ، وقد شرح ذلك وأوضحه بقوله إن ظاهر هذه اللفظة أنَّ المسئولَ غير زيد ، لأن ألفاظها تقتضى ذلك ، ألا ترى أنك تقول صحبتُ زيداً فاقتبستُ منه العلم ، وقتلتُ فلانا فأخذت منه السَّلَب . فيقتضى ظاهره بأن العلم غير المصحوب ، وأن السَّلَبَ غير المقتول ، فهكذا يقتضى ظاهر قوله سألته فسألت منه البحر ، أن البحر غيره .

فأبو على رحمه الله سَمَّاه تجريداً ، وهو غير مانع لك من اصطلاحك ولا مُشَاحٍّ لك فى حَدِّك الذى ذكرتَهُ للتجريد ، فكذلك أنت لا تَجُورُ ولا تضايقه فى اصطلاحِهِ وتجريده .

— ٨٢ —

قال المصنف : وأيضاً فهذا ينتقض بقول العرب : لئن رأيتَ الأسد لتَرَيَنَّ منه هَضْبةً ، ولئن لقيتَهُ لتلقَيَنَّ منه الموتَ . فأىُّ معنًى لتخصيص أبى على ذلك بالإنسان ؟ مع أن العرب تستعمل هذا اللفظ فى الإنسان وغيره[1] .

أقول إن أبا على لم يُرِدْ أن هذا الاستعمال مقصورٌ على الإنسان فقط ، ولا صَرَّحَ بذلك ، ولا كَنَى عنه ، ولا هو مفهومٌ من فَحْوَىَ قوله إن العرب تَعْتَقدُ فى الإنسان معنى كامناً فيه لا يَدُلُّ على نَفْىِ الحكم عما عَداه ، وإنما مَثَّلَ بالإنسان ، لأنه أشهر ، ولأن استعماله فيه ودورانه على ألسنتهم وفى ألفاظهم أكثر .

---

(١) المثل السائر ٢/١٦٨ .

— ٨٣ —

قال المصنف : وقد سبق القولُ بأن التجريد هو أن تُطْلِقَ الخطابَ على غيرك ولا يكونَ هو المرادَ ، بل المراد شيئاً آخر ، وهذا لا يوجد فى هذا الموضع ، لأن قوله إن لَقِيتَهُ لتلقيَنَّ منه الأسَد ، لم يُجَرِّدْ عن المنقول عنه شيئاً ، وإنما شَبَّهَ بالأسد فى شجاعته ، وأداةُ التشبيه مُضْمَرةٌ ، وما أعلم كيف ذهب هذا عن أبى على رضى الله تعالى عنه[1] .

أقول : قدَ بيَّنا أن المنازعةَ فى هذا الموضع لفظيهٌ لاطائِلَ تحتها ، ولو أن أبا على رضى الله تعالى عنه اختار أن يسمى المجاز تجريداً بمعنى أنه لفظ قد جُرِّدِ عن موضوعه الأول ، أى خُلع عنه ، وجُعِلَ لغيره ، واصطلح هو ونفسه ، أو هو وأصحابه على ذلك ، هل كان لنا أن نخاصمهم ، وننازعهم ، ونقول لهم قد أخطأتم فى هذا الاصطلاح وهذه المواضعة ؟ وهل المعانى تَسْتَحِقُّ الأسماء المخصوصةَ لذاتها حتى يكون الإنسانُ مخطئا إذا وَضَعَ لفظا مخصوصاً لمعنى مخصوص ؟ وقد فسرنا نحن قول أبى على رضى الله عنه المقصد الذى قصده .

— ٨٤ —

قال المصنف : وقول أبى علىٍّ إن العربَ تعتقد أن فى الإنسان معنًى كامنا فيه كأنه حقيقته ومحصوله ، فغير العرب أيضا تعتقد ذلك

---

(١) المثل السائر ٢/١٦٨ .

الكامنِ معنى الإنسانيةِ ، وهو الاستعداد للعلوم والصنائع ،فكلُّ أحدٍ يعرِفُ ذلك ، ولا خصوصيةَ للعرب فيه . وإن عَنَى بالمعنى الكامنِ الأخلاقَ كالشجاعة والسخاء ، فليس هذا مختصا بالإنسان ، بل جميعُ الحيوانات يُوجدُ فيها ذلك ، كالشجاعة فى الأسد ، والسخاء فى الدِّيك ، وما أعلم ما أراد أبوعلى بهذا الكلام .

على أن هذا القِسْمَ الأخيرَ ليس عبارةً عن حقيقةِ الإنسانِ ، فإنه لا يقال فى حَدِّه حيوانٌ شجاعٌ ، ولا حيوانٌ سخىٌّ ، بل حيوانٌ ناطقٌ ، فقد أخطأ أبو على من وجهتين : أحدهما أنه جعلَ حقيقةَ الإنسانِ عبارةً عن خُلُقِه ، والثانى أنه أدخَل فى التجريد ما ليس منه[1] .

أقول: إن أبا على رضى الله عنه لا يَلْزَمُهُ تفسيرُ ما كانت العربُ تتَخيلهُ وتتوهَّمهُ فى الإنسان ، ولا هذا من وظيفته ، ولكنَّ أبا على قال إننا لمَّا وجدنا العرب الذين صناعتنا البحث عن مَجارِى كلامهم يُخاطِبون فى الشعر أنفسهم ، فيقولون : قلت لقلبى ، وقال لى ، وقلت لنفسى ، وقالت لى ، ويقولون: سألت منه لما سألته البحر ، فيأتون بلفظة منه ، كما يأتون بها فى قولهم غصَبْتُ منه السَّيفَ ، وأخذتُ منه الثوب ، فيفيد ظاهر كلامهم أن المسئولَ منه غيره ، كما أن المغصوب منه غيره ، أفادنا إكثارهم من هذا وتكرارهم لاستعماله أنهم يتوهمون أن فى هذه البنْيةِ المشاهدةِ أمراً كامنا ، هو محصول الإنسان ، وهذا الهيكلُ الظاهرُ هو

(١) المثل السائر ٢/١٦٩ .

كالقالَبِ لذلك المعنى ، وكالقِشْر لذلك اللُّبِّ ، ومن الجائزِ أن يكون هذا المعنى الباطنُ غَيْرَ القسمين اللذين قد ذكرهما المصنف ، وهما مُجرَّدُ الاستعدادِ للعلوم والخُلُق فليناظر فى نقيضٍ ، خصوصا ومذاهب العقلاء فى هذا الموضع كثيرة جداً ، وكلها خارجة عن هذين القسمين اللذين قد ظَنَّ هذا الرجل أنه لا يمكن تفسيرُ ما تَوَهَّمهُ العربُ إلا بواحد منهما ، ثم يقال له لم لا تفسر قول أبى على رحمه الله بالوجه الأول وهو قولك إن غير العرب أيضا تعتقد ذلك ، فيقال لك إن أبا على ما قال إنه لا يعتقد ذلك أحدٌ من الأمم إلا العرَب خاصةً ، وإنما كانت صناعتهُ البَحْثَ عن مجارى كلام العرب ، وقال إنهم لا يعتقدون كذا وكذا ، لأنه لا يَنْظُرُ فى لغة أمة أخرى غير العرب ، وإنما كُتُبهُ وتصانيفهُ مقصورةٌ على البحث عن لغاتهم خاصةً ، فلا يدل كلامه على نفى هذا الحكم عن غير العرب .

وأيضاً فلو فسَّر قوله بالتفسير الثانى — وإن كنا نعلمُ أنه رحمه الله لم يُرِدْهُ — لما تَوَجَّهَ عليه ما اعْتَرَضَ به ، لأنه لم يُفرِدْ الإنسانَ خاصةً من دون سائرِ الحيوانِ بهذا الحكم ، وإنما ضربه مثلا ، لأنه النوع الأعرف

ومن العجبِ قولُهُ : ولا أعرف ما أراده أبو على بقوله : إنهم يتوهمون فى الإنسان معنى كامنا هو حقيقته ومحصوله ، إلا أن يكون أَحَدَ هذين القسمين اللذين أشرتُ إليهما .

ولا شبهة أن هذا الرجل ما وقَفَ على أقوال العقلاء فى هذا الموضع ، فإن مذاهبهم كثيرة ، وكل منهم يذهب إلى أن حقيقةَ الإنسانِ ومحصولَهُ أمرٌ وراء

هذ البِنْيةِ المشاهدةِ ، ولم يذهبْ منهم ذاهبٌ إلى أحد هذين القسمين اللذين قد توهَّمَ هذا الرجلُ أنه لا يمكنُ المصير إلى غيرهما .

فأما قوله إن أبا على رضى الله عنه أخطأ حيث جعل حقيقةَ الإنسانِ عبارةً عن الخُلُق، فإن أبا على رضى الله عنه أخطأ ، وقال هذا الكلامَ لا عن نفسه ولا عن غيره، أما إنه لم يَقُلْهُ عن نفسه فمعلومٌ ، وأما إنه لم يقله عن غيره فلأنه قال عن العرب إنهم اعتقدوا أن فى الإنسان معنًى كامنا كأنه حقيقته ومحصوله، فصَرَّحَ بأداة التشبيه وهى كأن ، وما قال عنهم إنهم قالوا إن ذلك المعنى هو حقيقة الإنسان ، ليقول لهم ذلك المعنى وهو خُلُقه ، وخُلُقه غير داخل فى حَدِّه وحقيقتهِ .

وينبغى للناس إذا حَكَوْا شيئا شرعوا فى نَقْضِهِ أن يتأمَّلوُ ما حكوا ، ثم يَنْقُضُوا ، وبالجملة فمقام الشيخ أبى على رضى الله عنه مقامٌ جليلٌ يقتضى أن يُحْتَرَمَ ويُصانَ ، ولا يُسْتعملَ معه التَّسَرُّعُ بالتَّخطئةِ والرَّدِّ ، وإذا وجدَ فى كلامه ما يُسْتَدْرك استُدْرِكَ مع استعمال الأدب .

— ٨٥ —

قال المصنف فى الالتفات : هو الانتقال من خطاب الحاضر إلى الغائب وبالعكس ، وما يجرى مجرى ذلك . وقال إن الزَّمَخْشَرِىَّ قال إن الرجوع من أحَدِ هذين النوعين إلى الآخر إنما استعملهُ العربُ تَفَنُّنا فى الكلام ، وانتقالا من أسلوب إلى أسلوب ، تَطْرِيةً لسماع السامع ، وإيقاظا للاستماع إليه .

قال : وليس الأمر كما ذكر ، لأن هذا الكلامَ يتضمن أن السامعَ قد يَمَلُّ من أسلوب واحدٍ ، فينتقلُ إلى غيره ليَنْشَط المستمع للاستماع ، وهذا قدح في الكلام ، لا وَصْفٌ له ، لأنه لو كان حسنا لما مُلَّ[1] :

أقول : لكم قلتَ إنه إذا كان حسنا لا يُمَلُّ ، وهل المَلالُ إلا من الملذّ ؟ ألا تراهم كيف يقولون مَلَّ فلان التنزهَ في البستان ، ويقولون قد مَلِلْتُ من أكل الحلْواء ، ومللْت من سماع الأغاني ؟ ولأن الأشياء الكريهةَ المملولةَ لا يقال لها مَلِلْتُها ، ألا تراهم يستقبحون قول من يقول قد مَلَّ المحبوسُ من الحبس ، والمضروب من الضرب ؟ فالذي ذكره المصنف عكسُ الصحيح .

— ٨٦ —

قال المصنف : وأيضاً فلو صَحَّ ما قاله لكان الالتفات إنما يوجد في الكلام المطَوَّلِ الذي من شأنه أن يَمَلَّه السامع لطولِهِ ، والأمر بخلاف ذلك ، لأنا قد وجدنا الالتفات في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن الكريم ، ومجموع الجانبين معا لا يبلغ عَشْرَةَ ألفاظٍ[1] .

أقول : لمّا كان مُرادُ الواضع الإفهامَ للسامع ، وكان الإفهامُ لا يَحْصُل إلا بالإصْغاء ، احْتالَ الواضعُ لتحصيل الإصغاء بكلِّ طريقٍ ، فكان من تلك الطرق نَقْلُ الخطابِ من الحضورِ إلى الغيبةِ وبالعكس ، ليجد السامع ما يوقِظُه

(١) المثل السائر ٢/١٧١ .
(٢) المثل السائر ٢/١٧٢ .

وينبهه على الاستماع . لأنه باستمرار الخطاب على نمط واحد ربما قد يُمَلّ ، فنُقِلَ من أسلوبِ الخطابِ إلى أسلوب آخر مستأنفٍ ، ليَطْرأَ على ذلك السَّهْوِ الذى عساه حَصَلَ فيُزِيلَه ، ثم لفرط العنايةِ بالإفهام وَقَعَ ذلك فى قصيرِ الكلام حَسَبَ وقوعه فى طَوِيله ، لا فى كل قصير منه ، كما أنه لم يقع فى كل طويل منه ، ولكن بحسب ما تقتضيه المصلحة .

ولهذه العلة أنزل فى القرآن الكريم ألفاظٌ وحروفٌ غير مفهومة ، مثل طسم والمص وغيرها ، ليُعارِضَ المشركون فيها عند سماعها ، فيكون ذلك كالاستجرار لهم إلى سماع غيرها من الآيات المنزَّلة ، فإنها إذا قرعَتْ أسماعهم قرعها أمْرٌ غريب تنزع النفس عند سماعه ، وتَتَشَوَّقُ إلى معرفته ، فينبعث الدَّاعى إلى سماع ما بعدها ليفسر ما به ، كما يفسر بعض الكلام ببعض ، فتحصل الفائدة من وقوفهم على فصاحة القرآن وسِرِّ إعجازه .

ونظير اعتراض المصنف وهو قوله : لو كان هذا خوفا للملال لكان فى طويل الكلام دون قصيره ، أن يعترض هنا المثال الذى قد مثلنا به فيقال : لو كان هذا هو المراد من هذه الحروف لكانت فى جميع السور بل فى السورة الواحدة مراتٍ كثيرة ، لتكون أدْعَى للمشركين إلى تأمله . والجواب عن الموضعين واحدٌ ، وهو أن ذلك إنما يكون بحسب ما تَقْضِى به المصلحة ، ولهذا كرر سبحانه (فبأى آلاء ربكما تكذبان)[1] مراراً كثيرة فى سورة واحدة ، لمَّا كانت

---

(١) سورة الرحمن .

المصلحة تكراره ، فالمخاطِبُ أعرفُ بما يخاطِبُ به ، وأدرى بما يَتَوَصَّلُ به إلى اجتناء ثمرةِ المخاطبة ، سواء كان البارى سبحانه أو واحدا منا .

— ٨٧ —

قال المصنف : وعلى هذا فيجب إذا وجدنا كلاما قد استُعْمِلَ فيه الإيجازُ أو الإطناب - ولكنه لم يقع فيه الالتفات لكنْ كلَّ واحدٍ من الطرفين واقعٌ موقعه — أن نقول هذا ليس بحَسَنٍ إذا لم يُنْتَقَلْ فيه من أسلوب إلى أسلوب ، وهذا قول فيه ما فيه ، وما أعلم كيف ذهب على مثل الزمخشرى مع معرفته بفن الفصاحة والبلاغة(١) .

أقول : إن هذا الاعتراض من أظرف ما يُحكَى وذلك أن الزمخشرى ما جعل حُسْنَ الكلام مقصورا على الالتفات كالشروط التى تُقَدَّم عند عدم شروطها ، ولكنه قال إن الالتفات مما تستعمله العرب ، ووَجْهُ استعمالها له أنه يَحْصُلُ منه نوعُ تنبيهٍ مَّا للسامع وتجديدٌ لنشاطه إلى سماع الخطاب ، فلا يلزم من ذلك أن كل خطاب لاالتفات فيه فإنه لا يكون حسناً ، كما إذ قلنا إنما حَسُنَ استعمالُ المطابَقةِ والتجنيسِ فى الشعر لكذا وكذا ، لا يلزم منه أن يكون كل شعر لا تجنيسَ فيه ولا مطابقةَ غيرُ حسنٍ .

وغَيْر هذا الكلام أن محسنات الشعر والخطابة أمور كثيرة ، فإذا فُقِدَ بعضها قام غيره مقامَهُ ، فَحصَل الُحسْنُ المطلوبُ .

---

(١) المثل السائر ٢/١٧٢

لـكنْ لو فقدت كلُّ المحسنات لَزِمَ لا مَحالةَ ألا يكون الـكلامُ حسناً .

فقد بان أن هذا الموضع ما ذَهَبَ على الزمخشرى ، وإنما ذهب على من اعترضه .

ثم يقال له : ألستَ القائِلَ : قد يُعْدَلُ عن لفظةِ الغيبةِ إلى لفظةِ الحضورِ تعظيما ، كقوله تعالى (إياك نعبد) فإنه عَدَلَ عن لفظ الغيبة وهو قوله (الحمد لله رب العالمين) لأن العبادة أعظم من الحمد ، فجعل العبادة بكاف الخطاب لعظم شأنها ، وكاف الخطاب أصْرَحُ وأَدَلُّ من هاء الغيبة ، فجعل الأعظم للأعظم ، فيقال لك : فقدَ قال سبحانه فى موضع آخر (واعبدوه واشكروا له إليه تُرجعون)(١) فيجب أن تـكون هذه الآيةُ غيرَ حسنةٍ لفقْدِ المعنى الذى ذكرته ، كما قلت إنه لو كان الالتفات حسنا كما قاله الزمخشرى لوجب أن يكون كلُّ خطابٍ واقع موقعه ، والالتفاتُ فيه غيرُ حَسَنٍ ، فـكل ما يجيب به فهو جوابُ الزمخشرى .

— ٨٨ —

قال المصنف : وقد يؤكَّدُ الضميرُ المتَّصلُ ، كقوله تعالى : (لا تَخَفْ إنك أنت الأعلى) وقد يؤكد الضمير المتصل بالمنفصل : وذلك مثل قول أبى تمام :

لا أنت أنت ولا الديارُ ديارُ　　　خَفَّ الهوَى وتولَّتِ الأوطارُ

ومثل قول المتنبى :

قبيلٌ أنتَ أنتَ وأنتَ منهم　　　وجَدُّكَ جَدُّك الملكُ الهُمام(٢)

---

(١) سورة العنكبوت ١٧ .

(٢) رواية الديوان والمثل السائر (وجدك بشر) المثل السائر ٢/١٩٧ .

أقول : إن هذين البيتين لا يَصْلُحُ أن يُمَثَّل بهما على توكيد الضمائر ، وذلك أن التوكيد ما لو حَذفَ وبقى المؤَكَّد يَبْقَى اللفظ دالاً على المعنى ، إلا أنه غير مؤكّد له كالآية التى استشهد بها ، فإنه لو حذف أنت لبقى إنك الأعلى ،وهو كلام مفيد للمعنى ، إلا أنه غير مؤكَّد .

وكقوله تعالى : (إنك أنت علام الغيوب)[١] وكقوله : (إمَّا أن تُلْقِيَ وإمَّا أن نكونَ نحن المُلْقِين)[٢] ولو حُذِفَ أنت الثانيةُ من بيت أبى تمام أو من بيت المتنبي لخرج الكلام عن الإفادة أصلا . وكيف يفيد وهو مبتدأ وخبر ، وقد حذف الخبر ؟ ومراد أبى تمام است أيتها المرأةَ كما كنتُ أعهدُ ولا الديارُ كما كنتُ أعهد ، ولو كان قوله لا أنت أنت من باب التوكيد لكان قوله ولا الديار ديار من باب التوكيد .

وكذلك قول القائلِ :

فما الناسُ بالناسِ الذين عهدتُهمْ ولا الدارُ بالدار التى كنت أعرف

وفى ذلك امتزاج أبوابِ البيانِ بعضِها ببعض ، وهو غير جائز .

ومراد المتنبي بقوله أنت أى أنت المشهور الذى يَسْتَغْنِي عن شرح صِفاتهِ وممادحه ، كما يقول : قد قتل زيد بيده أسداً والأسد الأسد .وكقول الراجز : (أنا أبو النجم وشعرى شعرى)وهذا معنى آخر غير التوكيد ، ولكنه قد اشتبه على هذا المصنف لا محالة .

---

(١) سورة المائدة ١١٦ .

(٢) سورة الأعراف ١١٥ .

— ٨٩ —

قال المصنف : ومثال تأكيدِ الضميرِ المتصلِ بالمتصل قوله تعالى : (ألم أقُلْ لك إنك لن تستطيعَ معى صبراً) ثم شرع يبين لماذا قال لك ها هنا ، وقال من قبل (ألم أقل إنك) ولم يقل لك فى خرق السفينة[١] .

أقول : أما قوله لك فوجهه مشهور قد قاله الناس من قبل ، وذكره مَنْ يتَعَاطَى استخراج الدقائِقِ والمعانى الغامضةِ من القرآن ، وليس غرضُنا الآنَ عن البحث فى صحة ذلك وفساده ، ولـكنَّ تمثيله بهذه الآية على تأكيد الضمير المتصل فليس من هذا الباب أصْلاً ، وإنما عَدَّى الفعل منها إلى المفعول بحرف الجر لا غير ، ولو كان هذا توكيداً للضمير لـكان قولنا مررت بزيد تأكيدا للضمير ، وهذا مالا يقوله أحدٌ .

وكيف يَتَوَهَّمُ أن قوله لك تأكيد للضمير فى قوله إنك ، وأين أحدهما من الآخر ؟ نعم لو قال سبحانه (ألم أقل أنا لك) كان قوله أنا تأكيدا للضمير فى قوله (ألم أقل) فيكون تأكيداً للمتصل بالمنفصل لا بالمتصل .

فإن قيل لعله لم يتـكلم فى التأكيد على الاصطلاح النحوى ، بل على اصطلاح آخر يرجع إلى علم البيان والبلاغة ، فلا يلزمه ما ذكرتَ .

قيل : لعمرى إن غرضه البحث فى علم البيان ، ولـكنه لم يخرج هذا الفصل

---

(١) المثل السائر ٢/١٩٣ .

والـكلام فيه إلا على الاصطلاح النحوى ، فلما أراد أن يطبق الآيات والأشعار عليها وقع فى الغلط كما رأيت .

— ٩٠ —

قال المصنف فى باب العام والخاص إنه تعالى قال : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذى اسْتوقَدَ نارا ، فلما أضاءت ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بنُورِهم) ولم يقل بضوئهم ، لأن الضوء نورٌ وزيادة .

فلو قال بضوئهم لـكان المعنى يُعْطِى ذهابَ تلك الزيادة ، وبقاء ما يسمى نوراً ، لأن الإضاءة هى فَرْطُ الإنارة ، ولذلك قال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) فـكل ضوء نور ، وليس كل نور ضوءا ، فقال سبحانه (ذهب الله بنورهم) لأنه إذا أزال النورَ فقد أزال الضوء أصلا[١] .

أقول : إن هذا الرجل قد شحن كتابه بأمثال هذه التُّرَّهات ، وأطال فيها وأسهب ، وأُعْجِبَ بها ، وظن أنه أَتى بغريب .

وهذه المعانى قد صُنِّفَتْ فيها الـكتب الـكثيرة ، وتـكلف الناس من قبله فى استنباط أمثالِ هذه الوجوه الغامضة والمعانى الخفية من القرآن العزيز ، وإنه لِمَ أتى بهذه اللفظة دون تلك ؟ ولم قدم هذا وأخر هذا ؟ وقد قيل فى هذا الفن أقوالٌ طويلةٌ عريضةٌ أكثرها باردغَثٌّ ، ومنها مايشهد العقل وقرائنُ الأحوالِ أنه مرادٌ .

---

(١) المثل السائر ٢/٢١٠ .

وقد ورد إلينا فى مدينة السلام فى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة رجلٌ من وراء النهر كان يتعاطى هذا، ويحاول إظهار وجوهٍ نظريَّة فى هذه الأمور فى جميع آيات الكتاب العزيز، نحو أن يقول فى قوله تعالى : (ما يأتيهم مِنْ ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون)[١] .

ثم قال : لم قال (ما) ولم يقل (لا) ولم قال (يأتيهم) ولم يقل (يجيئهم)، ولم قال (من ذكر) ولم يقل (من كتاب) ولم قال (من ربهم) ولم يقل (من إلههم). ولأى حال قال فى موضع آخر (من الرحمن) وما وجه المناسبة فى تلك الآية فى لفظها وسياقة كلامها وبين لفظة الرحمن؟ وما وجه المناسبة بين هذه الآية وسياقها؟ وبين لفظة ربهم .

وعلى هذا القياس .

وكذلك كان يتكلف تعليلَ كلِّ ما فى القرآن من الحروف التى تَسْقُطُ فى موضعٍ وتثبُتُ فى موضع، نحو قوله تعالى : (أولم يروا إلى الطير فوقهم)[٢] وقوله : (ألم يروا إلى ما خلق الله)[٣] لم أثبت الواو هناك، وأسقطها هاهنا، ونحو قوله : (ومن يُشاقِقِ الرسولَ من بَعْدِ ما تَبيَّن له الهدى)[٤] وقوله : (ومن يُشاقِّ الله) لم فَكَّ الإدغامَ فى موضعٍ ولم يَفُكَّه فى موضع آخر؟ .

---

(١) سورة الأنبياء ٢ .
(٢) سورة الملك ١٩ .
(٣) سورة النحل ٤٨ :
(٤) سورة النساء ١١٥ .

كنا نَعْجَبُ منه ونستظرفه ، حتى وصل إلينا هذا الكتاب ، فقلنا إنه فوق كل ذى علم عليم .

ولو أخذنا تَناقُضَه فى هذا لأطلنا كما أطال ، وسَمُجنا كما سَمُج .

ومتى يتسع الوقت لمناقضة هذه التكلفات القبيحة ؟ ولكنا قد نكلمه فى بعض المواضع منها لكيلا يخلو كتابنا هذا عن مجادلته فى هذا الفن بالكلية ، فنقول له : لم قلت إن الضوء نور وزيادة ؟ أمن كتب اللغة أخذتَ هذا ؟ أم من غيرها ؟ فقد تصفحنا كتبَ اللغة فلم نَجِدْ ما نُشاهده بما ذكرتَ ، ولا الاصطلاحَ مساعدا لك فى عُرفِ الناس ومواضعاتهم .

وإذا لم يكن موجودا فى أصلِ اللغةِ ولا الإصطلاحِ العرفى لم يَجُزْ لك أن تحمل كلام الله تعالى عليه وتفسره به .

وقد قال ابن السكِّيت فى كتاب إصلاح المنطق — وهو عَيْنُ الكتب اللغوية ، ومصنِّفه إمامُ الناس كلهم فى اللغة ، ومن لا يختلف اثنان فى كتبه — فى باب فعل وفعل باختلاف المعنى : النيِّر عَلَمُ الثوب والنور الضياء شيئا واحدا .

وليس فى قوله تعالى (وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا[1]) مايدل على اختلاف المعنيين ، ولا قوله : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا[2]) ما يدل على اختلاف المعنيين .

---

(١) سورة الحشر ٤ .
(٢) سورة المائدة ٤٨ .

— ٩١ —

قال المصنف : وإنما قال سبحانه (ذهب الله بنورهم) ولم يقل أذهب الله نورهم ، لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهبه ، وليس كل من أذهَبَ شيئاً فقد ذَهَب به ، لأن قولنا ذهب به يُفْهَمُ منه أنه استصحبه معه ، وأمسكه عن الرجوع إلى حالته الأولى ، وليس كذلك أذهبه[1] .

أقول : إن قوله إن الله تعالى ذهب بنورهم معناه أنه استصحبه ومضى ، كما يقول القائل مررت بزيد وعنده سيف فذهبت به ، أى أخذته ومضيت ، وكما قال سبحانه : (فلما ذَهبُوا به وأجمعوا)[2] معناه أخذوا يوسف صُحبَتهم ومضوا ، فإن قال نعم هكذا تفسيرُ الآية فهذا كفرٌ وتهجم . فأما قوله : كل من ذهب بشيء فقد أذهبه فهو على إطلاقه غير صحيح ، لأنه ليس كل من ذهب بشيء فقد أذهبه ، بمعنى أنه أَعْدَمَهُ عن الوجود أصْلاً ، لكنه قد أذهبه عن موضِعهِ الأول الذى أخذه منه .

واعْلَمْ أن الغلط دخل عليه من اشتراك لفظة ذَهَبَ ، فإنها تستعمل فى معنَيين أحدهما قولهم ذهب فلان فى الطريق الفلانى ، أى مَضَى فيه ونَفَذَ فيه .

ومنه سمى السبيل مَذْهَبا ، لأنه يُذْهَبُ فيه أى يُمْضَى فيه . وسمى قول الشاعر وغيره مَذْهبا ، كأنه صار طريقا فسلكه الفقهاء وغيرهم .

---

(١) المثل السائر ٢/٢١٠ .
(٢) سورة يوسف ١٥ (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب) .

والمعنى الثانى ذهبَ بمعنى عُدِم وفُقِدَ ، وقولهم ذهب الشبابُ وذهَب العمرُ ، أى فَنِيَ وعُدِمَ .

ولعل هذا الاعتبار الثانى هو الحقيقة الأَصْلِيَّة ، والمحْمَل الأول هو المجاز، لأنه لما مَضَى زيدٌ فى تلك الطريق ، فقد تقدم بالنسبة إلى غيرها ، فسمى مُضِيُّهُ فيها ذهابا .

وإذا بان لك اشتراك اللفظ ظهر غلطه ، لأنه توهم أن قوله تعالى (ذهب الله بنورهم) مثل قولنا : ذهب زيد بثياب عمرو واحتملها ومضى ، وقد صرح بتفسير الآية على هذا الوجه ، وهذا معنى لا يجوز أن يُنْسَبَ إلى الله تعالى ، لأنه لا تصح عليه الحركة ، ولا استصحاب الأشياء واحتمالها من مكان إلى مكان ، وعلى أنه لو صَحَّ عليه سبحانه ذلك لكان قوله أذهب الله نورهم أبلغ فى المعنى من قوله ذهب الله بنورهم على هذا التفسير ، لأن إعدام النور بالكلية أبلغ من قوله : (وتركهم فى ظُلماتٍ لا يُبْصرون) من أين يذهب بالنور بالتفسير الذى زعمه فيكون للنور وجودٌ فى الجملة ، وإنما نُقِلَ من موضع إلى موضع ؟

وإذْ ظهر لك غلطه فاعلم أن معنى قوله (ذهب الله بنورهم) هو معنى قوله (أَذْهَبَ اللهُ نورهم) .

كلا اللفظتين تدل على معنى واحدٍ ، كما أن قولك فقدتُ بزيد مثل قولك فقدتُ زيداً ، لا فَرْقَ بين الكلامَيْن ، لأن الأفعال اللازمة إذا أردتَ تعْديتها عَدَّيتَها تارةً بحرف الجر وتارة بالهمزة ، وتقول ذهب الشبابُ وذهب

الدهر بالشباب وأَذْهَبَ الدهرُ الشبابَ ، كما تقول خرجت بزيد من البلد ، وأخرجتُ زيداً من البلد ، ولست تعنى بقولك خرجتُ بزيد من البلد أنك استصحبت زيداً معكَ .

كلاً ليس هذا هو المراد من تَعْدِيَةِ اللازم ، بل مَحْضُ قولك أخرجت زيداً لا زيادةَ على ذلك .

— ٩٢ —

قال المصنف . فأما الأسماءُ المفردةُ الواقعةُ على الجنس التى يكون بينها وبين أحدها تاءُ التأنيث فإنه متى أُرِيدَ النَّفْىُ كان استعمال أحدها أبلغ ، ومتى أريد الإثباتُ كان استعمالها أبلغ ، نحو قوله تعالى فى قصة نوح : (وقال الملأُ من قومه إنا لنراكَ فى ضَلالٍ مُبِينٍ ، قال يا قَوْمِ ليس بى ضلالةٌ) .

كان أبلغ فى نفى كونه ضالاً من أن يقول ليس بى ضلالٌ ، كما لو قيل : ألكَ تَمْرٌ ؟ فقلت فى الجواب : مالى تَمْرَةٌ ، فإنه أَنْفَى للتَّمر ، ولو قلت : مالى تمرٌ لم يؤدِّ المعنى الذى أداه القول الأول .

قال : ولا يظن أنه لما كان الضلالُ والضلالةُ مَصْدَرَيْنِ من قولك ضَلَّ يَضِلُّ كان القولان سواء ، لأن الضلالة فى هذه الآية ليست عبارةً عن المصدر ، بل عن المرة الواحدة ، كما يقال ضربتُ ضَرْبةً وأكلت أَكْلَة ، بمعنى مرة واحدة ، فإذا نَفَى نوحٌ عن نفسه المرة الواحدة من الضلال فقد نفى مافوقها من المرتين والمرات الكثيرة[1] .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٠٢ وهنا تفصيل ليس فى المثل السائر .

أقول إن الذى ذكره غيرُ صحيح، لا إن كانت لفظة ضلالة فى الآية مصدراً ولا إن كانت المرة الواحدة .

أما الأول فلأنه إذا كانت هذه اللفظة مَصْدراً وقد وافق على أنَّ ضلال مصدر أيضاً وجب أن تـكون دلالتهما سواء فى نفى كونه ضالا على الإطلاق ، فلا يكون أَحَدُ اللفظين أبلغَ فى الدلالة من الآخر ، لأنهما معاً يدلاَّن على نفى ما هيَّةِ الضلال نفسه ، فإن المصدر يدل على الماهية فقط من غير دلالة على شىء آخر ، فاذا نُفِىَ فقد نُفِيَتْ الماهية نفسها ، فلا فَرْقَ على هذا التقدير بَيْنَ الضلالِ والضَّلالةِ .

وأما الثانى وهو أنه لا يصحُّ ما قاله بتقدير أنْ يكون المراد بالضلالة المرةَ الواحدةَ ، لأنه لو قال القائل ما عندى تَمْرَةٌ بمعنى تمرة واحدة وعنده تمر كثير يَصِحُّ ذلك ، ولم يكن كاذبا .

ألا يرى أنه لو أظهر ما أضمر فقال ليس عندى تمرةٌ واحدةٌ فقط ، بل عندى تمرٌ كثير، لم يكن فيما قاله متناقضا ؟ فالمثال الذى ذكره يَدُلُّ على عَـكْسِ ما أراده .

وقول نوح (ليس بى ضلالة) ، لو كان يريد به العددَ بمعنى ليس بى ضلالةٌ واحدةٌ كما زعَمَ هذا الرجل ، ثم تركناه وظاهر اللفظ ، لم يكن نافيا لـكونه ضالا ، لأنه إذا كانت الضلالة مختلفةَ الأنواع ، وقال ليس بى ضلالةٌ واحدة فقط ، لم يكن هذا اللفظ مُفيداً لانتفاء كونه ضالاً ، لجواز ألاَّ تـكون ضلالة واحدة بل ضلالاته مختلفة متنوعة ، فاللفظ لو تركناه وظاهره لم يدل على

انتفاء كونه ضالاً ، بتقدير أن يراد بالضلالة المرة على الواحدة على ماقد تَوَهَّمه هذا الرجل .

وأما قوله إذا نَفَى عن نفسة المرة الواحدة من الضلالة فقد نَفَى ما فوقها من المرتين والمرات الكثيرة ، فكلامُ من لم يُمْعِنْ النظر فى قوله المرة الواحدة، لأنه إذا أخذ فى تفسير الضلالة أن تكون واحدةً وجعلت الضلالات أشياء متعددة مختلفة كالضَّرَبات المختلفة والأكَلات المتنوعة ، ثم نفى عن نفسه ضلالةً واحدةً مشروطا فيها أن تكون واحدة ، لم يلزم من انتفائها بهذا القيد أن تنتفى عنه ضلالاتٌ كثيرة ، لأن وجود الضلالات الكثيرة ملحوظا فيها كونها كثيرة لا يُنافى اقتضاء الضلالة الواحدة عنده ، لأن معنى الواحدة ليس معها غيرها ، ومن وُجِدَتْ عنده ضلالاتٌ كثيرةٌ ، فقد صَدَقَ عليه أنه وُجِدَتْ عنده ضلالةٌ واحدةٌ ، بمعنى أنه ليس معها غيرها .

واعلم أن مراده تعالى بقوله حاكيا عن نوح (ليس بى ضلالة) نَفْىُ الضلالةِ الذى هو المصدر ، لأنه هو الذى بانتفائه ينتفى كون نوح ضالا انتفاء مطلقا ، لا كما توهَّمه هذا الرجل من أنه عبارةٌ عن المرةِ الواحِدة ، واللفظ واضح ، والمعنى ظاهر ، وعند التعمق الزلل .

— ٩٣ —

قال المصنف : واعْلَمْ أن القياسَ يَقتضى أن يقالَ : (ما لهذا الكتابِ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها) لأنه إذا قَدَّمَ الصغيرةَ لم يَحْتَجْ إلى

أن يقولَ ولا كبيرةً ، لأن وجود المؤاخذة على الصغيرة يلزمُ منه وجودُ المؤاخذة على الكبيرة ، وإذا لم يَعْفُ عن الصغيرة لم يَعْفُ عن الكبيرة .

وإذْ قدم فى اللفظ الكبيرة احتاج إلى أن يقول ولا صغيرة ، لأنه لم يَعْفُ عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة ، فاحتاج إلى أن يذكر ما قال .

غير أن الكتاب العزيز أحَقُّ أن يُتَّبعَ فيقاسَ عليه، فوجَبَ تركُ القياس لأجْلِ هذه الآية[1] .

أقول: أمَّا أولاً فإن هذه الآية لم تذكر لبيان المؤاخذة والعفو ، ولا أنَّ معنى قوله (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة) العقابُ والغفرانُ ، بل معناه الإحصاء والعدُّ .

ألا ترى إلى قوله سبحانه : (ووُضعَ الكتابُ فترى المجرمين مُشْفِقين مِمَّا فيه ، ويقولون يا وَيْلَتَنا ما لهذا الكتابِ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً)[2] [ليس المراد فيه] العقاب والغفران ، بل معناه الإحصاء والعَدُّ ؟ ألا ترى قوله (إلا أَحْصاها) فهو أمرٌ راجعٌ إلى إحاطةِ عِلْمِ البارى سبحانه بأفعال العباد خَفِيِّها وظاهِرها وجليلها وحقيرها ، فالذى تَوَهَّمهُ هذا الرجل من كَوْنِ هذه الآية لتفصيل أحوال المؤاخذةِ تَوَهُّمٌ باطل .

وأما ثانياً فلأن هذه الآيةَ ورَدتْ لبيان أنه تعالى يعلم الكبائرِ من الذنوب والصغائرَ ، وللناس خلافٌ مشهورٌ فى الكبائرِ والصغائرِ من الذنوب ماهى ؟ فمعنى الآية أنه تعالى يَعْلَمُ كبائرِ الذنوبِ وصغائرها .

(١) المثل السائر ٢/٢١٣ .
(٢) سورة الكهف ٤٩ .

وعلى هذا التفسير إذا قَدَّمَ الصغيرةَ لا يلزمُ منه أن يَستغنِيَ عن ذكر الكبيرة ، لأنه ليس إذا عَلِمَ الصغائِرَ كان بأن يعلم الكبائرَ أولَى ، كما يقول القائلُ إذا أبصرتُ من عشرة فراسخَ كنتُ بأن أُبصرَ من فرسخ واحد أولى ، لأنه ليس أَحَدُ نَوْعَى الكبائِرِ والصغائِرِ بالنسبة إلى عالميته تعالى أجْلَى من الآخر على جميع مذاهب العقلاء ، والإبصارُ على حَدِّ فرسخٍ واحد أولى لمن يبصر على حد عشرة فراسخَ .

وأما ثالثاً فلو سَلَّمنا أنه لم يَعْنِ كبائر الذنوب وصغائرها ، بل عَنَى الخفِيَّ من أفعال العباد وهى أفعال القلوبِ ، والجلىَّ الظاهَر منها وهى أفعالُ الجوارحِ ، فإنه لا يمكن حَمْلُ الآية إلا على أحد هذين المحملَيْنِ ولا ثالثَ لهما ، فلم يَقْتضِ القياسُ أن يقولَ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة ، لأنه قد قال التفسير عوض ، وذلك بأن يقول ما لهذا الكتاب لا يغادر خفيًّا ولا جليًّا إلا أحصاه ، لأن كل من أثبت أن البارِىء تعالى عالم بأفعال الجوارح أثبته عالما بأفعال القلوب ، كالدلالة على أنه تعالى يعلم الجزئيات عامة فى القسمين ، وليس أحدهما أولَى بالتقدم من الآخر .

فإن قلتَ أليس قد ثبتَ فى الإِنْسِ أن الجلىَّ أولى بالمعلومية من الخفىّ ، والقرآن العزيز يَدُلُّ على ما يتعارفه الناس وخوطبوا به على قدر أذهانهم ؟ قلت : إنه لو قال تعالى ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة إلا أحصاها ، فربما يُتَوَهَّمُ أن الكتابَ موضوعٌ لإحصاء فعل القلوب فقط ، لا بمعنى أنه تعالى يعلم أفعال القلوبِ فقط ، بل بمعنى أنه قد يُتَوَهَّمُ أنَ الكتابَ الذى فيه ذنوبُ

بنى آدم وحسناتُهم موضوعٌ لإحصاء أفعال قلوبهم خاصة ، ولا يكون فيه شىء هى معدودةٌ مضبوطةٌ فيه ، والمراد من هذه الآية وأمثالها إرهابُ العصاةِ ، وهم إذا سمِعُوا أنّ أعمالهم كلَّها مضبوطةٌ مكتوبةٌ فى كتاب يشتمل عليها كما يشتمل على سائرِ الحسابِ لا على ما فيها ، كانوا أَخْوَفَ وأشدَّ تباعداً من المعاصى .

فعلى هذه الطريقة قال (ولا كبيرة) لتكون الآية بعيدةً عن التوهم الذى يُخِلُّ نظامَ الزَّجْر .

— ٩٤ —

قال المصنف : وكذلك قد كان القياسُ أن يقول (فلا تَنْهرهما ولا تَقُلْ لهما أُفٍّ) لأنه إذا لم يقل لهما أفٍّ فقد امتنع أن ينهرهما .

قال : نظير ذلك فى الترتيب الواقع على وَفْقِ القياسِ قول البحترى يصف نُحولَ الركائب .

كالقِسِىِّ المعَطَّفات بل الأسـ ـهم مَبْرِيَّةً بل الأَوتـــار[1]

فشبهها أولا بالقسى ، ثم قال بل كالأسهم ، لأنها أبلغ فى النحول من القِسِىّ ثم قال بل كالأوتار ، لأنها أبلغ فى النحول من الأسهم .

---

(١) من قصيدة له فى مدح أبى جعفر بن حميد ، مطلعها :

أبكاء فى الدار بعد الدار وسلو بزينب عن نوار

ثم يصف نحول القلائص ، فيقول قبل هذا البيت :

يترقرقن كالسراب وقد خضـ ـن غمارا من السراب الجارى

وكان بالأصل (الأسهم مبرته) .

قال : لـكني قد رفضتُ القياسَ ، وقَدَّمْتُ ما استعمل فى الـكتاب العزيز عليه[١] .

أقول إن الله تعالى لو قال : (فلا تقل لهما أف بل لاتنهرهما) لـكان على خلاف القياس ، لأن لفظة بل للاستدراك ، فيُعطى فى الثانى معنىً لم يكن فى الأول ، فيصح أن يقال لا تنهر السائل بل لا تضربه ، ويقتضى القياس أن يقال لا تضرب السائل بل لاتنهره

وبيت البحترى إنما وقع موافقا للقياس لاستعماله لفظة بَلْ ، فأما الآية فوردت بالواو العاطفة ، وهى غير مقتضية للترتيب ، فلا فَرْقَ بَيْنَ أن يقول فلا تَنْهرهما ولا تقل لهما أفٍّ ، وأن يقولَ فلا تقل لهما أف ولا تنهرها . . .

— ٩٥ —

قال المصنف : وقد أغفل كثيرٌ من الشعراء التَّرَقِّيَ من الأَدْنَى فالأدنى إلى الأعلى كالمتنبى فى قوله :

يا بَدْرُ يا بحُرُ يا غمامـــة يا لَيْثَ الشَّرَى يا حِمامُ يارَجُل

فإن الواجب أن يقول يابدرُ ، لأنه اسم الممدوح ، ثم يقول بعده يارجل ، ياليث الشرى ، ياغمامة ، يا بحر ، يا حمام ، لأن البدر أعظم من الليث ، والبحر أعظم من الغمامة ، والحِمام أعظم من البحر ، فيرتفع من شىء إلى ماهو أعلى منه ، لأنه مقامُ مدح ، ولو كان مقام ذمٍّ لعـكس القضية[٢] .

(١) المثل السائر ٢ / ٢١٤ بتصرف .
(٢) المثل السائر ٢/٢١٥ بتصرف .

أقول : إن أبا الطيب لم يقصد إلا مَقْصِداً صالحا ، ولـكن هذا الرجل لم يَتَفَطَّنْ له ، لأنه مَدَحه بالسخاء والشجاعة ، وهما المعنيان الشريفان الجليلان ، فقال فى القسم الأول وهو قسم السخاء يابحر ياغمامة ، وابتدأ بالبحر لانه دُونَ الغمامة مكانا ، لأنه تحتها وهى رَبَّتُه ، لأنه منها يتكون ، ولولا الغمامة لم تـكن مياهُ الغدران والأمطار ، وما يتـكون منها كالأنهار ، فإن هذه الأشياء هى التى يَعْنيها بالبحر لا البحر الذى هو الماء المِلْحُ ، ولا الأَسْطَقْسُ الـكلى[١] .

ثم قال فى قسم الشجاعة : ياليثَ الشَّرى يا حِمام ، فابتدأ بالليث وانتقل إلى الحِمام بعده ، لأن الليث لولا الحِمامُ لم يُرْهَبْ ، فالحِمامُ أشدُّ رهبةً فى الصدور من الليث ، ثم ختم البيت بقوله يا رجل ، أى أنت هذه الأشياء كلُّها ، وأنت مع ذلك إنسانٌ من البشر ، وذلك أَعْجَبُ وأَطْرف .

وإنما قَدَّمَ السخاء على الشجاعة ، لأن حاجة جُمهورِ الناسِ إلى السخاء أكثر من حاجتهم إلى الشجاعة ، والناسُ إلى رئيس عظيم السخاء أَمْيَلُ منهم إلى رئيس عظم الشجاعة ، لأن انتفاعهم به أكثر ، فأبو الطيب قَصَدَ هذا المَقْصِدَ ، أو يصحُّ أنه يقصد هذا المقصد ، ولو أَتى بالبيت على الترتيب الذى ذكره المصنف لم يَحْصُلْ له هذا المعنى .

---

(١) الأسطقس : والأستقس هو الشىء البسيط الذى يتركب منه الشىء المركب مثل الحجارة والقراميد والخشب التى يتركب منها البناء ، والحروف التى يتركب منها الـكلام ، والواحد الذى يتركب منه العدد : والاسطقسات الأربعة هى النار والهواء والماء والتراب (مفاتيح العلوم للخوارزمى ٨٢) .

— ٩٦ —

قال المصنف : ونظيرُ هذا قول أبى تمام فى الافتخار بقوله :

نجومٌ طوالعٌ جبالٌ فوارعٌ غيوثٌ هوامعٌ سيولٌ دوامعٌ

فإن السيول دون الغيوث ، والجبال دون النجوم ، ولو قدَّمَ ماأخَّر لما اختلَّ النظم ، بأن يقول :

سيولٌ دوافعٌ غيوث هوامعٌ جبال فوارعٌ نجومٌ طوالع(١)

أقول إن فى بيت أبى تمام لسرًّا خفيا إما أن يكون قد قصده ، أو يمكن أن يقصده ، وذلك أن قَبْلَهُ :

سَمَابى أوسٌ فى السَّماءِ وحاتمٌ وزَيْدُ القَنَا والأَثْرَمانِ وَرافعُ(٢)

فأوس هو أوْسُ بن حارثةَ الطَّائى ، وكان وَضِيئا جميلا ، وحليما ذكيًّا ، فضُرِبَ به المثل فى وَضاءته ورَصَانته ، فهو المراد بقوله (نجوم طوالع جبال فوارع) .

وحاتم بن عبد الله الجواد هو المراد بقوله (غيوث هوامع) ، وأما زيدُ القَنَا والأثرمان ورافع وهو رافع بن عُمَيْرة بن جابر فهم بالشجاعة أشهر ، وهم المراد بالسيول التى تهلك وتخترق ماتأتى عليه ، فهذا هو وجه ترتيب البيت .

---

(١) المثل السائر ٢/٢١٥ .

(٢) البيت فى المثل السائر والديوان (سمابى أوس فى الفخار) .

قال المصنف : فأما تقديمُ المفعول على الفعل ، فهو كقولك زيداً ضربت، وضربت زيداً ، لأن اللفظَ الأول يفيد أنك لم تضرب إلا زيداً خاصةً ، والثانى لا يقتضى ذلك .

قال : وذلك لأنك اذا قدَّمتَ الفعل كنت بالخيار فى إيقاعه على أى مفعول شئت ، بأن تقول بَكْراً أو عَمْراً أو خالداً ، وإذا أخَّرتَ الفعل لَزِم الاختصاصُ بزيد وحده (١)

أقول : إننا لا نُنْكِر أنَّ قوما منَ أهل العربية قد ذهبوا إلى هذا المذهب، ولكنَّ أربابَ النظر فى هذه المباحثِ وهم الأصوليون لا يعرفون هذا ، وقولهم فيه هو الصحيح المفسِّر ، ولا فَرْقَ عندهم بين قولك ضربت زيداً وزيداً ضربت ، فى أن كِلاَ اللفظين لا يَدُلُّ واحدٌ منهما على اختصاص الضرب بزيد وَحْدَهُ .

وكذلك لو قلت زيداً ضربتُ وعَمْراً ألم يكن الكلام متناقضا ؟ ولو كان قولك زيدا ضربت يدل على أنَّ الضربَ مقصورٌ على زيد وحده لكان قولك وعمراً نَقْضاً لذلك .

فأما قوله : لأنك إذا قدمت الفعل كنتَ بالخيارِ فى تعيين المفعول ، وإذا أخرتَهُ لزم الاختصاصُ ، فيقال له أيكون بالخيار إذا قَدَّمَ الفِعْلَ وإن كان قد

---

(١) المثل السائر ٢/٢١٢

تَلَفَّظ بالمفعول أو قَبْلَ أن يتلفظ بالمفعول ؟ الأولُ ممنوعٌ ، لأنه بَعْدَ تَعْيِين المفعول لا يبقى خيار ، والثانى مُسَلَّمٌ ، لـكنَّ مثل هذا موجودٌ فى تأخير الفعل، لأنك إذا قَدَّمْتَ المفعولَ فأنت بالخيار قبلَ أن تَتَلَفَّظَ بالفعل ، فيمكن أن تقول أكرمت وضربت أو رأيت ، فلست مضطراً عند ذكر المفعول وقبل ذكر الفعل إلى أن تقول زيداً ضربت لاغير ذلك من الألفاظ .

فالحاصل أن الصُّورتين سواء فى التَّخبير وعدم التخبير ، لـكنَّ تَقْدِيرَ المفعولُ يَتَخَيَّرُ فيه فى الفعل لا فى المفعول ، لأنك قد ذكرته وسبق منك تعيينه ، فإن قولك زيداً ضربت يفيد فى اللغة أنك لم تضرب إلا زيداً ، كأن قولك ضربتُ زيدا يفيد أنه لم يقع منك فى حَقٍّ زيد إلا الضرب فقط ، وهذا محال ، لأنك لاتَعْنِى بقولك ضربت زيداً ألا تـكون قد شتمتَهُ ولا رأيتَهُ ولا أصبته ولا اعترضته، كما لم يدل تعيينُ الفعل أولاً والابتداء به على انتفاء غيره من المفعولين .

ويَدُلُّ على فساد هذا الـكلام قوله تعالى : (ووهبنا له إسحاق ويعقوبَ كُلاً هدينا ونوحا هدينا من قبل)[1] فإن ذلك لا يدل على اختصاص إسحاق ويعقوب بالهداية ، لأنه قد هَدَى غَيْرَه مِمَّنْ كان فى زمانِهِ .

— ٩٨ —

قال المصنف: وعلى هذا ورد قوله تعالى : (بل اللهَ فاعْبُدْ وكُنْ من الشاكرين) فإنه يفيد الأمرَ باختصاص العبادةِ به دُون غيره ، ولو قال اعْبُدِ الله وكن من الشاكرين لم يُفِدْ الاختصاص[2] .

---

(١) سورة الأنعام ٨٤ .
(٢) المثل السائر ٢١٨ .

أقول إن الاختصاصَ ما استفيد فى هذه الآية من مُجَرَّدِ تقديم المفعولِ ، بل من القَرينةِ ، لأنه تعالى قال : (ولقد أُوحِيَ إليك وإلى الذين من قَبْلِكَ لئن أشْرَكْتَ لَيَحْبطَنَّ عملك ولتكونَنَّ من الخاسرين . بل الله فاعبد) وهذا تصريحٌ بالاختصاص ، لأنه قال لا تُشْرِكْ بالله فى العبادةِ فتخسر ، بل وَحِّدِ الله فى العبادة .

فالاختصاص مفهومٌ من سياق الكلام ، لا مِنْ تقديم المفعولِ .

ولو قال فى هذا السِّياقِ بل اعبد اللهَ لأفاد الاختصاص لامَحالةَ ، فلا تأثير ها هنا فى الاختصاص المعلوم ، لا لتقديم المفعول ولا لتأخيره .

— ٩٩ —

قال المصنف : وقد قال الزمخشرى إن قوله تعالى : (إياكَ نعبد وإياك نستعين) لاختصاصِ العبادةِ والاستعانة به سبحانه دون غيره .

قال : وليس الأمر كذلك ، بل ها هنا مراعاةُ السَّجع الذى جاء فى الآياتِ السابقة على حَرْفِ النُّون ، فلو قال نَعْبدك ونستعينك زالت طلاوةُ السَّجْعِ [١] .

أقول : إن كان تقديمُ المفعولِ يقْتَضِي الاختصاصَ كما يراه الزمخشرى وجَماعةٌ من أهل العربية ، فلا مانعَ من أن يكون المرادُ من قوله إياك نعبدُ

(١) المثل السائر ٢/٢١٩

وإياك نستعين كلا الأمرَيْنِ : الاختصاص والسجع ، ولا منافاة بين هذين المطلوبين .

— ١٠٠ —

قال المصنف وكذلك قوله تعالى : (ثم الجحيمَ صَلُّوه) ليس تقديم المفعول ها هنا للاختصاص ، بل للفضيلة السَّجْعية فقط ، فإنه لو قال خُذوهُ فغُلُّوه ثم صَلُّوه الجحيم لم يكن فى الحُسنْ كالأول .

قال : فإن قلتَ بل تقديم المفعول ها هنا للاختصاص، لأنها نار عظيمة ، ولو أخِّرتْ لجاز وقوع الفعل على غيرها،فالجواب عن ذلك أن الدرك الأسفل أعظم من الجحيم ، فكان ينبغى أن يخص بالذكر دون الجحيم ، على ما ذهب إليه، لأنه أعظم، لكن استعمال هذه اللفظة هنا أحسنُ من استعمال غيرها من الألفاظ نحو لظى وجهنم ونحوهما ، والطّلاوة عليها دون غيرها أكثر[١] .

أقولُ: إنْ كان تقديمُ المفعولِ يقتضى الاختصاصَ كما قد قال قومٌ فلامانعَ أن يكونَ الاختصاصُ مراداً فى قوله : (ثم الجحيمَ صَلُّوه) لأن الجحيم والجاحم فى اللغة هو أشَدُّ النار ، قال أبو تمام .

إنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّها عَدْوَ الظليم فَقَدْ
أوسَعْتَ جاحِمَها من كَثْرةِ الحطبِ[٢]

---

(١) المثل السائر ٢/٢٢٠ ومنه أصلحنا النص .

(٢) من قصيدته فى مدح المعتصم بعد فتح عمورية التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

والبيت من أبيات يصف فيها فرار توفلس القائد الرومى .

(الديوان ١/٧٤)

ولا منافاة بين أن يُرادَ الاختصاصُ وتُرادَ الفضيلة السَّجعيةُ معاً .

وأما قوله : فهلاَّ ذكرَ الدَّركَ الأسفلَ من النار ؟ فيقال له لم لايكونُ الدركُ الأسفلُ هو الجحيم بعَيْنِهِ أيضا ؟ ولم يكون الجحيم أشد إحْراقًا وتعذيبا من الدرك الأسفل ؟ وليس فى قوله إن المنافقين فى الدرك الأسفل ما يقتضى أن يكون هذا الموضع أشدَّ المواضعِ النَّاريَّةِ إحراقا ، فالجوازُ أن يكونَ غيرُ المنافقين أشدَّ عذابا منهم ، وأيضاً فلو كان الدَّركُ الأسفلُ أَهْولَ وأصْعبَ لم يلْزَمْ ما ذكره ، لأن التَّرْغيباتِ والتَّرْهيباتِ تُذكَرُ على حَسَبِ مايراه المتكلم من المصلحة ، وقد رَهَّبَ ورَغَّبَ بأشياءَ غيرِها أبلغَ فى التَّرهيبِ والترغيب منها .

الا ترِي أنه لو قال عِوَضَ قولِه تعالى : (فى جيدِها حَبْلٌ من مَسَدٍ)[1] فى جِيدها ثعبانٌ من نار لكان أَرْهَبَ وأَزْعجَ ، ولم يقُلْ ذلك .

وأما قوله إن الطَّلاوةَ فى لفظةٍ فقط دُونَ غيرها من الألفاظ فإنه يقال : له قد قلتَ ذلك ، ومعلومٌ أنه لو بَدَّلَ عِوَضَ الجحيم السَّعيرَ لكان على عَددِ حروفها أو وَزْنها ، ولا يتغير انتظامُ الكلامِ وأسلوبُهُ باستعمالها حسب استعمال لفظِ الجحيم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ[2] .

(١) سورة المسد .

(٢) القذة بضم القاف الريشة المقذوذة ، يقال حذو القذة بالقذة (أساس البلاغة مادة قذ)

— ١٠١ —

قال المصنف : ومن مُقتضياتِ الاختصاصِ أيضا تقديم خَبرِ المبتدأ عليه ، فإنك إذا قلت قائمٌ زيدٌ فقد أثبتَّ له القيامَ دُونَ غيره ، وإذا قلت زيدٌ قائمٌ لم تكن قد خصصْته بالقيام دون غيره من الناس ، والعِلّةُ فيه ما ذكرناه في تقديم المفعول ، فإنك إذا قلت زيدٌ قائمٌ كنت بالخيار ، حيث ابتدأت بذكر زيد ، إنْ شئتَ قلتَ جالسٌ أو ضاحكٌ أو غيرهما . وإذا قدمت قولك قائم حَصَلَ الاختصاصُ لزيدٍ بالقيام دون غيره من الناس[1] .

أقول: إنّا لا نَعرِفُ ذاهبا ذهب إلى أن قولنا قائمٌ زيد يقتضي اختصاصَ زيدٍ بالقيام دون غيره من الناس .

لكن جماعة من النُّحاةِ الذاهبين إلى أن تقديمَ المفعولِ يقتضي الاختصاصَ ، يقولون إن قولنا (القائم زيدٌ) بالألف واللام يقتضي اختصاص زيد بالقيام ، كما نقول (الشجاع عليٌّ والجوادُ حاتمٌ) أي لا شُجَاعَ إلا ذاك ، ولا جواد إلا هذا .

فأما تقديم خبر المبتدأ عليه مع بقائه على التنكير فإنه لا يُعْرَفُ ذاهبٌ ذهَبَ إلى أنه يقتضي الاختصاص .

والعلة في اختصاص زَيْدٍ بالقِيام إذا قلت (القائِمُ زيد) علةٌ تعودُ إلى

---

(١) المثل السائر ٢/٢١٢

دخول الألف واللام على الخبر ، وهى أنَّ قولك (القائِمُ) معناه الذى له القيام ، فكأنك قلت الذى له القيام هو زيد ، وقولك الذى له القيام هو زيد من طريق الاصطلاح العُرْفىِّ فى قوة ذلك الذى يَختَصُّ بالقيام أو الذى ينفرد بالقيام ونحو ذلك .

والقائلون بهذا القول يَلزمُهُمْ عليه أن يفيد قولنا (زيدٌ القائِمُ) الاختصاص الذى يذكرونه أيضا ، لأنك إذا أَزَلْتَ عن نفسك الوهم فى كون القائم صفة زيد ، وأطبقت ذلك بالمبتدأ والخبر ، صار تقديره زيد الذى له القيام ، وذلك فى قُوَّةِ قولك زيد هو الذى يختص بالقيام ، فلو كان غيره قائما لما صَدَقَ قولك زيد هو الذى له القيام .

فقد ظهر أنه لا فرق بين تقديم قائِم وتأخيره ، وأنَّ هذا لو صَحَّ لـكان فى الأخبار المعرَّفةِ باللام لا فى الأخبار المنَكَّرة ، كما توهمه هذا الرجل .

وأما احتجاجه بأنك تكون مخبرا إذا أَخَّرْتَ الخبر ، ولا تكونُ مخبراً إذا قَدَّمته ، فاحتجاجٌ ضعيفٌ قد تكلمنا عليه فى تقديم المفعول .

— ١٠٢ —

قال المصنف : ومن باب تقديم خبر المبتدأ الذى يفيد الاختصاص قوله تعالى : (وظَنُّوا أنهم مانِعَتُهُمْ حُصونُهم مِنَ اللهِ) قال سبحانه ذلك ، ولم يقل وظَنُّوا أنَّ حصونهم تمنعهم أو مانعتهم ، لأنَّ فى تقديم الخبر الذى هو مانعتهم على المبتدأ الذى هو حصونهم دليلاً على فَرْطِ اعتقادهم فى حصانتها ، وزيادةِ وثوقهم بمَنْعها إياهم ، وفى جَعْلِ ضميرهم اسما لأنَّ ، وفى إسناد الجملة إليه دليلُ

على تقريرهم فى أنفسهم أنهم فى عِزَّةٍ وامتناع لا يُبَالَى معها بقَصْدِ قاصدٍ ولا تعرُّضِ مُعترض[1] .

أقول : إن حصونهم لا ترْفَعُ بأنه مبتدأٌ كما ظنه إلا على وجهٍ ضعيف ، والصحيح أنه فاعل ، تقديره وظنوا أنهم تمنعهم حصونهم ، فما نعتهم اسم فاعلٍ معتمد على ماقبله ، لأنه فى الحقيقة خَبَرُ مبتدأ ، من حيث كان خبرا لأنَّ ، وأنَّ من شأنها أن تدخل على المبتدأ والخبر ، ومتى كان اسم الفاعل خبرا لمبتدأ كان معتمدا عليه ، فعَمِلَ فيما بعده عَمَلَ الفِعْلِ ، كقولك (زيد قائمٌ أبوه) فأبوه رفع بالفاعلية ، وليس بمبتدأ على القول الصحيح فى صناعة العربية .

وكذلك إذا اعتمد اسم الفاعل على همزة الاستفهام أو حرف النفى ، أو وقع حالا لذى حال ، أو صفةً لموصوف ، أو صلةً لموصول .

وحُكْمُ الظّرْفِ حُكْمُ اسم الفاعل إذا وقع معتمدا أيضا فى كونه يرْفَعُ ما بعده بالفاعلية لا غَيْرُ ، كقوله تعالى : (فأولئك لهم جزاءُ الضِّعْفِ)[2] وقوله: (أفى الله شكٌ)[3] وقوله : (ومَنْ عِنْده عِلْمُ الكتاب)[4] فجزاء ، وشكٌ ، وعلم ، كلُّها مرفوعةٌ بالفاعلية ، لاعتمادِ الظرف تارةً على المبتدأ ، وتارةً على همزة الاستفهام ، وتارةً لوقوعه صلةً .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٢٢
(٢) سورة سبأ ٣٧
(٣) سورة إبراهيم ١٠ [قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السماوات والأرض ؟] .
(٤) سورة الرعد ٤٣

ومما جاء من ذلك شعراً قول حَسَّان :

ظننتم بأَنْ يَخْفَى الذى قد صَنَعْتُم   وفيكم نَبِيٌّ عنده الوَحْيُ واضِعُهْ[1]

فالوحى فاعل . وقول الشاعر ·

أحَقًّا بنى أبناءَ سَلْمَى ابْنِ جَنْدَلٍ   تَهَدُّدكم إيَّاىَ وَسْطَ المجالِس ؟

فتَهدُّدكم فاعل وليس بمبتدأ .

فأما قوله إن فى تقديم ما نعتهم زيادة معنى فقد تكلمنا عليه فيما سبق .

— ١٠٣ —

قال المصنف . ومن باب هذا الباب قوله تعالى : (أراغبٌ أنت عن آلهتى يا إبراهيم) فقدَّمَ خَبرَ المبتدأ عليه

ومثل قوله : (فاذا هِىَ شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا) ، قال : فهذا يَدُلُّ على تخصيص الشُّخوص بالأبصار دون غيرها ، وعلى تخصيص الكفار بالشخوص دون غيرهم .

أما الأول فلأنه لو قال فإذا أبصارُ الذين كفروا شاخصةٌ جاز أن يَضَعَ موضع شاخصة حائِرة أو مطموسة أو غير ذلك ، فلما قدم الضمير اختصت الأبصارُ بالشُّخوص دون غيرها

وأما الثانى فلأنه لما أراد أن الشخوص خاصٌّ بالكفار دون غيرهم دلَّ

---

(١) ديوان حسان ٧٢ وفى الفلك الدائر (وفينانبى) .

عليه بتقديم الضمير أولاً ، ثم بصاحبه ثانيا ، كأنه قال فإذا هم شاخصون دون غيرهم ، ولولا أنه أراد هذين الأمرين المشار إليهما لقال فإذا أبصار الذين كفروا شاخصةٌ ، لأنه أخصُّ بحذف الضمير من الكلام .

قال ومن هذا النوع قول النبي صلى الله عليه وسلم فى البحر : « هو الطَّهورُ ماؤه ، الحِلُّ مَيْتَتُهُ » وتقدير الكلام هو الذى ماؤه طهور ، ومَيْتَتُهُ حِلٌّ ، لأن الألف واللام هاهنا بمعنى الذى[1] .

أقول : لا يَخْلُوا إمَّا أن يكون الضمير وهو هى فى قوله تعالى (فإذا هى) ضمير الشأن والقصة أو ضمير الأبصار ، وقد قُدِّم بشَرطِ التَّفسير ، فإن كان ضمير الأبصار لم يكن قوله (أبصار الذين كفروا) مرفوعا بالابتداء ، بل كان فاعلا ، لأن (شاخصة) اسمُ فاعل معتمدٌ على ما قبله ، وهو (هى) الذى موضعُهُ رَفْعٌ بالابتداء ، وقد تقدم أن اسم الفاعل إذا وقع خبراً لمتبدأ يَرْفَعُ ما بعده على القول الصحيح ، كما يرفعه الفعلُ الصَّريحُ ، نحو قولهم زيد قائمٌ أبوه وقوله تعالى : (يَخْرُجُ من بُطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانهُ)[2] فعلى هذا التقدير بَطَلَ قولهُم إن شاخصة خبرٌ مقدَّمٌ .

وإن كان هى فى قوله تعالى : (فإذا هى) ضمير الشأن والقصة كان شاخصة خبراً مقدما كما ذكره ، ويصير تقديره فإذا الشَّأنُ والأَمْرُ أبصارُ الذين كفروا

---

(١) المثل السائر ٢/٢٢٢

(٢) سورة النحل ٦٩ .

شاخصةٌ ، ولا يكون على هذا التقدير شاخصة اسمَ فاعلٍ معتمداً على ما قبله ، لأن ضمير الشأن والقصة لا تعتمد عليه اللفظةُ الواقعةُ بعده ، لأنه موضوع لأن يقع بعده جملة مركبة من المبتدأ و الخبر، أو لأن تقع بعده لفظةٌ مفردة تعتمد عليه ، وتصير هذه الآية كقوله تعالى : (إنه مُصيبُها ماأصابهم)[1] فإن الضمير فى إنه للشأن ، وبعده جملة مركبة من مبتدأ وخبر ، والمبتدأ مؤخر والخبر مقدم ، وكل موضع جاء فيه ضمير الشأن والقصَّةِ وبعده مِثْلُ هذه الجملة فهى ليست فاعلا لعدم الاعتماد الذى هو شرط الفاعلية ، لكن على هذا التقدير يَبْطُلُ قوله إنه لما أراد تعالى أنَّ الشخوصَ خاصٌّ بالكفار دون غيرهم دَلَّ عليه بتقديم الضمير أوَّلاً ، ثم بصاحبه ثانياً ، كأنه قال : فإذا هم شاخصون دون غيرهم ، لأن هذا الكلام يقْتَضِى أنَّ الضمير وهو هى فى قوله تعالى (فإذا هى) ضمير الأبصار لا ضمير الشأن ، ألا تراه كيف قال دل عليه بتقديم الضمير أوَّلاً ثم بصاحبه ثانياً ؟

فالحاصل أن كلام هذا الرجل لا يستقيم ، سواء جعلنا الضمير للشأن أو للأبصار .

فأما قوله إن قوله تعالى (أراغبٌ أنت) قد قَدَّمَ فيه خبر المبتدأ عليه فغير صحيح أيضا ، لأن قوله (أراغب) اسم فاعل معتمد على همزة الاستفهام ، فيكون قوله (أنت) فى موضع الرفع بالفاعلية ، إلاَّ على القول الضعيف المتروك ، والمسألة مشهورة .

---

(١) سورة هود ٨١ .

فنى نحو أذاهبٌ وأقائمٌ الزيدان ، يرتفع قائمٌ وذاهبٌ بالابتداء ، ويَسُدُّ كل واحدٍ من الفاعلين مَسَدَّ الخبر .

قال النحاة إن همزةَ الاستفهامِ تستدعى الفِعْلَ بذاتها ، لأن الاستفهام إنما يكون من فعل ، ألا ترَى أنك إذا فرضت شيئا مُجرَّدا عن فعل لم يستفهم عنه ، فأجروا قوله (أراغب) مجرى أترغب .

لذلك قلنا إن قوله تعالى : (إذا السَّماءُ انْشَقَّتْ)[١] السماء مرفوع بالفاعلية بتقدير فعل دَلَّ عليه انشقت ، لأنَّ (إذا) تستدعى الفعل ، وكذلك ماجرى مجرى (إذا) فى هذا المعنى ، نحو قولهم : لو ذاتُ سِوارٍ لَطَمتنى[٢] ، وإنْ اللهُ أمكننى من فلان .

فأما قوله فى البحر :(هو الطهور ماؤه والحِلُّ مَيْتَتُهُ) وتوهُّمه أن ذلك من باب تقديم الخبر على المبتدأ فمِثْلُ الوهم الأَوَّلِ فى الغلط ، بل هما مرفوعان بالفاعلية ، كأنه قال هو الشيء الذى طَهُرَ ماؤه ، وحَلَّتْ مَيْتَتُهُ ، فحَذَفَ الموصوف وأقام الصِّفَةَ المركَّبة من الموصول والصلة مقامه ، والصفة تعمل كالفعل فى هذا الموضع ، فيكون ماؤه وميتته فاعلين .

---

(١) سورة الانشقاق ١

(٢) لوذات سوار لطمتنى : أى لو لطمتنى ذات سوار ، لأن لو طالبة للفعل داخلة عليه ، والمعنى لو ظلمنى من كان كفئا لى لهان على ، ولكن ظلمنى من هو دونى . وقيل أراد لو لطمتنى حرة ، فجعل السوار علامة للحرية ، لأن العرب قلما تلبس الإماء السوار ، فهو يقول لو كانت اللاطمة حرة لكان أخف على ، وهذا كما قال الشاعر :

فلو أنى بليت بهاشمى خئولته بنو عبد المدان
لهان على ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

(مجمع الأمثال للميدانى ٢/٨١)

ومثله فى التنزيل : (عالِيَهُمْ ثيابُ سُنْدُسٍ)[١] فى قول من جعل عاليهم صفة لقوله تعالى :(ولدانٌ مخلَّدونَ) فأما استنباطه زيادة المعنى فى التقديم والتأخير فشىء قد تكلمنا عليه .

— ١٠٤ —

قال المصنف : ومن المواضع التى تفيد الاختصاصَ تقديمُ الظرف إذا كان الكلام إثباتا ، كقولك إن إلىَّ مَصيرَ هذا الأمر ، فإنه يدل على أنه ليس مصيرُ هذا الأمر إلا إليك ، بخلاف ما إذا أخَّرْتَ الظرفَ ، فقلت إنَّ مصيرَ هذا الأمر إلىَّ ، فإنه لايفيد الاختصاصَ ، لأنه يحتمل أن تُوقِعَ الكلام [بعد الظرف] على غيرك فتقول عِوض ضميرك إلى زيد أو عمرو .

ومنه قوله تعالى : (إن إلينا إيابَهم ثم إنَّ علينا حِسابَهُمْ)[٢] .

أقول : إنه إنما فُهِمَ أنَّ الإيابَ والحسابَ إلى الله تعالى مِنْ دليل آخر لا مِنْ مُجَرَّدِ هذا اللفظ ، ولو خُلِّينا ومجرَّدَ هذا اللفظ لم يَدُلَّ على أن الإياب والحساب ليس إلا إليه وعليه سبحانه ، فإنكَ لو قلت إن فى الدار زيداً ، لم يدُلْ ذلك على أن غيره ليس فى الدار ، وكذلك لو قلت وعمراً لم يتناقض الكلام .

وقد قال سبحانه : (وجعلنا فى الأرض رَواسِيَ)[٣] ولايدل ذلك على أن غير الرواسى لم يجعله تعالى فى الأرض .

---

(١) سورة الإنسان ٢١ .
(٢) المثل السائر ٢/٢٢٤ .
(٣) سورة الأنبياء ٣١ .

وقال لآدم : (إنَّ لكَ ألا تجوعَ فيها)(١) ولم يكن ذلك مختصاً به ، فقد كانت أمثلةً .

وقال تعالى : (إذْ نَفَشَتْ فيه غنم القوم)(٢) ، ولا يدلُّ ذلك على أ ما نَفَشَتْ إلا فيه ، لأن النَّفْشَ هو انتشار الغنم من غير راعٍ ، سواء كانت في حرث أو في غير حرث .

وقال تعالى : (وكنا لحكمهم شاهِدِين)(٣) فقدم الظرف ، ولا يدل ذلك على أنه لم يَشْهَدْ إلا حكمهم .

وقال : (فوهَبْنا له يَحْيَ وأَصْلَحْنا له زوجه)(٤) ولا يدل ذلك على أنه ما أصلح زَوْجَ أحدٍ قطُّ إلا زوج زكرَّيا .

وفي الكتاب العزيز ألف آية مثل هذا تُبطِلُ دَعْوى الحصْرِ والاختصاص .

فأما قول القائل إن إليَّ مصيرهذا الأمر ، فإما ألا يدل ذلك على الاختصاص وهو الصحيح ، أو يدل لكنْ كما يَدُلُّ مع تقديم الظرف يُدلُّ مع تأخيره إذا قلت إن مصير هذا الأمر إليَّ ، ولا فرق بين الموضعين .

والصحيحُ أن القرينة تدل على الاختصاص ، وهو الصحيحُ في هذا

---

(١) سورة طه ١١٨ .
(٢) سورة الأنبياء ٧٨ .
(٣) سورة الأنبياء ٧٨ .
(٤) سورة الأنبياء ٩٠ .

الموضع ، لا مُجَرَّدُ الصِّيغةِ ، لأنه ما جرت العادة أن الولاية وما يجرى مجراها لا تنتقل إلا إلى واحد فقط .

وأما قوله إنك إذا أخرت احتمل توقيع الكلام على غيرك فضعيف ، وقد تكلمنا عليه فى تقديم المفعول .

— ١٠٥ —

قال المصنف : فأما إذا كان الكلام نَفْياً فقد يتقدم الظرف ويكون القَصْدُ به تَفْضِيلَ المنْفِى على غيره ، كقوله تعالى : (لا فيها غَوْلٌ) والمراد تفضيلها على خمور أهل الدنيا .

وقد يتأخر الظرف ويكون القصد به النفى فقط لا التفضيل كقوله تعالى : (ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه) .

فإن القصد فى إيلاء حَرْفِ النَّفْى الرَّيْبَ نَفْىُ الرَّيْبِ عنه ، وإثبات أنه حق ليس كما يزعم المشركون ، ولو أَوْلَاهُ الظَّرفَ وقال لافيه رَيْبٌ لكان قد قَصَدَ أن كتابا آخر فيه الرَّيْبُ لافى هذا الكتاب ، كما قلنا فى قوله : (لا فيها غول) قال ومثل ذلك أن يقال لاعَيْبَ فى الدار ، ويقال لا فيها عَيْبٌ ، فى أن الأول يقتضى نَفْى العَيْبِ عن الدار فقط ، والثانى يقتضى تفضيلها على غيرها ، أى ليس فيها ما فى غيرها من العيب[1] .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٢٥ .

أقول: إن هذا الذى ذكره شىء لا يَعْرِفه أهلُ العربية ، ولا أهل الفقهِ ، ولا فَرْقَ عندهم فى النفى المطْلَقِ بين قولهم لا رَيْبَ فيه ولا فيه ريبٌ ، إلا من جهة أخرى ، وهى أنه يَقْبُحُ الاختصار على قوله لا فيه ريب فى القواعد النحوية ، حتى يُضَمَّ إليه شىء آخر ، فيقول ولا شك مثلا أو نَحْوَ ذالك .

فأما ما يعود إلى نَفْىِ الرَّيب فاللفظان يدلان عليه دِلالةً واحدَة ، ولعله ظن أن حرف النفى إذا شافَهَ المنْفِيَّ بغير واسطة كان أبلغ فى النفى من أن يتخلل بينهما واسطة ، ويجريه مجرى المؤثرات الحسية ، فإن السيف إذا شافه الجسمَ بلا واسطة كان أبلغ فى القطع من أن يتخلل بينهما ثوب أو درع ، فيظن أن هذا مثلُ ذاك ، وهذا وهْمٌ عامِّىٌّ لا يلتفت إليه مُحَصِّلٌ .

وما نعلم كَيفَ وقَعَ له أنه قال: لو أنه قال ليس فيه ريب لدلَّ على أنه ليس كغيره من الكتب التى فيها رَيْبٌ ، وأنه لو قال : ليس فى الدار عيب لدلَّ على أنها ليست كغيرها من الدُّورِ المعيبة ، وأنه إذا قال: ليس فى خمر الجنة غَوْلٌ يدل على أنه ليس كخمور الدنيا التى فيها غول ، فإنه ليس فى اللفظ تَعَرُّضٌ لذلك لا بصريحه ولا فَحْواه ، ولو جاز أن ينسب إلى الألفاظ دلالةٌ لا تقتضيها لا بصريحها ولا فحواها لجاز أن يُنْسَبَ إليها أمورٌ لا تَتَنَاهَى ، وذلك محالٌ .

وقال سبحانه : (يتنازعون فيها كأسا لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ)[1] وليس

---

(١) سورة الطور ٢٣ .

تفسير هذا الرجل لقوله تعالى (لافيها غَوْلٌ) بأن المراد تفضيلها على الخمور التى فيها غَوْلٌ بأَوْلَى من أن تُعكَسَ القضيةُ عليه ويُفَسَّر نحو قوله تعالى (لا لغوٌ فيها) بأنه يدل على تفضيلها على خمور الدنيا التى فيها اللغو والتأثيم ، فيجعل حرف النفى إذا باشر المنفىَّ وتأخر الظرف دالاًّ على الأفضلية ، وإذا تَقَدَّمَ الظرفَ دالاًّ على النفى المطلق على مناقضة ما ذكره ، فإنه لافضل بين القولين إلا مُجَرَّدُ التسمى والتحكيم .

— ١٠٦ —

قال المصنف : وتقديم الحال على ذى الحال يفيد الاختصاصَ ، نحو قولك جاء راكباً زيدٌ ، بخلاف ما إذا قلت جاء زيد راكبا ، فإنه لا يدل على ذلك ، لجواز أن يكون ضاحكا أو ماشيا أو غير ذلك[1] .

أقول : أتزعم أنك إذا قلت جاء راكبا زيدٌ فإنك قد قصرت زيدا من دون سائر الأحوال والهيئات على الركوب فقط ، وأنَّ ذلك ينفى كونه لابسا وضاحكا وجائعا وغيرَ ذلك من الأمور التى يُحْتَمل أن يكون عليها ؟ فإن قيل نَعَمْ قيل له : كيف زعمت ذلك ، ولا مُعافاةَ بين كونه راكبا وكونه على هذه الأوصاف ، وأىُّ دلالةٍ فى تقديم الحال على انتفاء غيرها ؟ وهذا لَغْوٌ من القول .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٢٦ .

— ١٠٧ —

قال المصنف : والاستثناء المتقدم جارٍ هذا المجرى ، نحو قولك : ما قام إلا زيداً أحدٌ ، وإنه يدل على الاختصاص بخلاف قولك ما قام أحدٌ إلا زيدا(١).

أقول : لعمرى إن قولك ما قام إلا زيدا أحدٌ يدل على اختصاص زيد بالقيام ، لا لأجْلِ تقديمه على الفاعل ، بل لأجْلِ الاستثناء الذى يدل على إخراجه مما حُكِمَ به على غيره ، فلولا اختصاصه بذلك لبَطَلتْ فائدة الاستثناء ، ولكنّ هذا المعنى مُطَّرِدٌ فى حالَتَىْ تقديم زيد وتأخيره ، لأن الاستثناء يدل فى كلا الموضعين دلالةً واحدةً على اختصاص زيد بالقيام دون غيره ، لأنه لو قام غيره لكذب فى قوله إلا زيدا .

ألا ترى أنَّ من تُحاول تكذيبه تقول له كذبت ، لأن خالدا قد قام أيضا ، فلَا فَرْقَ فى هذا الاختصاصِ بين تقديم المستثنى وتأخيره .

فإن كانْ هذا الرجل بذوقه وحِسِّه قد تَفَطَّن لاختصاص زائدٍ على هذا المعنى عند تقديم المستثنى لا يُؤخذُ عِنْدَ تأخيره ، فهذا الرجل قد أدرك ما غفل عنه الأوَّلون والآخِرون ، ورُزِقَ حِسًّا وذوقا وَقَفَ بهما على ما لم يَقِفْ عليه غيره ، ولا كلامَ لنا مع من هو بهذه الصِّفةِ ، وإنما نتحدث مع أمثالنا وأشكالنا ، وأمَّا مَنْ تَرَقَّى إلى طبقةٍ أخرى فإن أمره يَجِلُّ عن ذلك . .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٢٦ .

— ١٠٨ —

قال المصنف : وقد اختلف الناسُ فى حَمْلِ مَرْيَم عليها السلام كم مُدَّتُهُ ، فقال قوم كَحَمْلِ غيرها من النساء ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل أقل ، وقيل أكثر . قال : والصحيح أن حملها ووضعها كانا متقاربين على الفور من غير مُهْلةٍ ، وربما كان ذلك فى يوم واحد أو أقل ، لقوله تعالى : (فحَمَلَتْهُ فانْتبذَتْ به مكاناً قصيًّا ، فأجاءها المخاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلةِ) لأنه عطف بالفاء وهى للفَوْرِ ، ولو كان هناك تراخ ومُهْلة لعطف بثم التى هى تفيد المهلة(١) .

أقول : إن الفاء ليست للفَوْرِ ، بل هى للتعقيب على حَسَب ما يَصِحُّ إمَّا عقلاً أو عادةً ، ولهذا صحَّ أن يقال دخلت البَصْرةَ فبغدادَ ، وكان بينهما زمانٌ كثير ، لكن تعقيب دخول هذه عن دخول تلك على مايمكن ، بمعنى أنه لم يمكث بواسط مثلا سنة أو مدةً طويلة ، بل طَوَى المنازل بَعْدَ البصرة ولم يُقِمْ بواحد منها إقامةً يخرج بها عن حَدِّ السفر إلى أن دَخَلَ بغدادَ ، وهذا هو الذى يقوله أهلُ اللغة وأهل الأصول ، وليست الفاء للفَوْرِ الحقيقى .

أقول: معناه حصول هذا بعد هذا(٢) بغير فَصْل ولا زمان كما توهمه هذا الرجل ، ألا ترى إلى قوله تعالى : (لا تَفْتَرُوا على الله كَذِباً فيُسْحِتَكم بعذاب)(٣) والعذابُ متراخٍ عن الافتراء .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٣٧ .
(٢) يريد حدوث الوضع بعد الحمل .
(٣) سورة طه ٦١ .

وقال : (فلا يَصُدَّنَّك عنها مَنْ لا يُؤْمِنُ بها واتَّبعَ هواه فتَرْدَى)[١] والرَّدَى متراخٍ عن الصَّدِّ عنها . وقال : (وأنزلَ من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نباتٍ شتَّى)[٢] وليس خروج النبات عَقِبَ إنزالِ المطر ، بل هو متراخٍ عنه . وقال : (ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ من قَبْلُ فَنَسِى)[٣] ولم يكن النسيان عَقِبَ العهد ، فإنه قد دام مُكْثُهُ متجنبا للشجرة التى نُهِىَ عن أكلها مائة عام ، ثم أكلها .

وفى القرآن من هذا الجنسِ الكثيرُ الواسعُ ، فإذَنْ لا يدل قوله تعالى : (فانتبذتْ به مكانا قصيًّا فأجاءها المخاضُ) ، أن ذلك كله كان فى يوم واحد أو أقل كما اعتقده هذا الرجل .

— ١٠٩ —

قال المصنف : ومن هذا الباب قوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طِينٍ ، ثم جعلناه نطفةً فى قرارٍ مَكينٍ ، ثم خلقنا النُّطفةَ عَلَقةً ، فخلقنا العلقةَ مُضغة ، فخلقنا المضغةَ عِظاما ، فكسونا العِظَامَ لحما ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخر) قال فذَكَرَ الخَلْقَ الأولَ من الطِّين وهو آدم ، ثم عَطَفَ عليه الخَلْقَ الثانى بثُم لما بينهما من التَّراخى ، ولمَّا صار إلى القدر الذى يتبع بعضه بعضا من غير تراخ عطفه بالفاء ، ولما انتهى إلى جعله ذكرا أو أنثى وهو آخر الخلق عطفه بثُم .

(١) سورة طه ١٦ .
(٢) سورة طه ٥٣ .
(٣) سورة طه ١١٥ .

ثم اعترض على نفسه فقال قد وَرَدَتْ آيةٌ أخرى بلفظة ثم لهذه التقلبات بعينها، وهي قوله تعالى: (إنْ كنتم في رَيْبٍ من البعث فإنا خلقناكم من تُراب ثم من نُطْفةٍ ثم من عَلَقةٍ، ثم من مُضْغةٍ) ثم أمسك عن الجواب(١)، فلم يقل شيئاً. هكذا وجدته في نسخة هذا الكتاب التي وصلت إلينا من الموصل فطلبت نسخة أخرى، ثم تأملتها فوجدته أيضا قد أَخْلَى بياضاً للجواب.

أقول: قد كان الواجبُ عليه أنْ يتفطن من ها هنا لحقيقة الفاء، وأنها ليست كما يظن أنها تقتضي الفَوْرَ الحقيقي، وإن وُجد أحدهما في الزمان الأول، والآخر في الزمان الثاني بلا فصل، بل تقتضي التَّعقيبَ على ما يصح ويمكن كما قدمنا، فأما ثم فتقتضي تراخيا ومُهلةً أكثر مما في الفاء.

ومن العجيب ظنه أنَّ الفاء في قوله تعالى: (فخلقنا العَلَقةَ مُضْغةً، فخلقنا المضغةَ عظاما، فكسونا العظام لحما) للتعقيب الذي يتوهمه، وهو عَدَمُ الزمان المحسوسِ بين الحالتين، وكيف يمكن أن نعتقد هذا، وبَيْنَ صَيرورةِ العلقةِ مضغةً زمانٌ طويل، وبين صيرورة المضغة عظاما مِثْلُ ذلك، ولو كان الأمر كما تصوره هذا الرجل لوجَبَ القول بأنّ الزمان الذي تتكون فيه النطفةُ علقة، تتكون في الزمان الثاني منه بلا فَصْلٍ مُضغةً، وتتكون في الذي يليه بلا فصل عظاما، وتتكونُ في الزمان الذي يليه على تلك العظام لحم، وتتكون هذه المراتب كلها، وتقع جميعها في أقل من عاشرة من عواشر الدقائِقِ، وهذا أمرٌ ما قاله مخلوق قَطُّ.

---

(١) المثل السائر ٢/٢٣٨ وليس في الكتاب جواب عن السؤال.

وهو مع ذلك مخالفٌ للحسِّ والوِجدان ، فالآية الثانية الواردة بلفظة ثم غنيةٌ عن التأويل محكمةٌ واضحةٌ ، لأن لفظة ثم واقعة موقعها .

فإنا إذا استقبحنا على سياق كلامه أن يقول قام زيد يومَ السبت ، فقام عمرو يَوْمَ الأحد ، لأجل أن بينهما يوما واحدا ، وأوجبنا أن يقول ثم قام عمرو يوم الأحد ، وجعلنا مُدَّةَ اليوم فقط مُهلةً وتراخيا يليق أن يُؤْتَى بثم لأجلها ، فالأَوْلَى أن يؤتى بثم فى أطوار الخلقة التى لا ينتقلُ طورٌ منها إلى طور آخر إلا فى الأيام الطويلة التى تتجاوز الشهر .

فأما قوله: ولما صار إلى جعله ذكرا أو أنثى وهو آخر الخلق عطفه بثم ، فنقول له : أين فى الآية ذكرُ جعلِه ذكراً وأنثى ؟ فإن كنت تَعْنِي قوله (ثم أنشأناه خَلْقاً آخر) فإن تقسيم الحيوان المخصوص إلى ذكر أو أنثى ما كان فى آخر المراتب كما يتوهم ، بل إمَّا فى أولِ التكوين وابتداء الأطوارِ على ما يعتقده قوم ، أو عند جَعْلِهِ عظاما ولحما ، لأنه لا يُغَيِّره أن يجعله لحما وعظاما فيكون إنسانا كاملا ، ومع ذلك فليس بذكر ولا أنثى .

فالذى سبق إلى ذِهنِ هذا الرجل من أن المراد بقوله (ثم أنشأناه خلقا آخر) الذكورة والأنوثةُ قد سبق قَبْلَهُ إلى أذهانِ قومٍ من صَنَعَةِ المفسرين ، وهو غلطٌ ، بل المراد بذلك أنَّا أخرجناه من ذلك الوِعاء إلى خارجه ، وجعلناه مستقلاً بنفسه بعد أن كان جزءا من أمِّهِ ، لأنه كان يَغتَذِى باغتذائها ، كما يَغتَذِى عُضوٌ من أعضائها ، فلما استقلَّ بنفسه فى الغذاء وغيره وجميع صورته ، وظهر شخصه صار خَلْقا آخر .

— ١١٠ —

قال المصنف : ومن الألفاظِ ألفاظٌ يراد بها المبالغةُ والتكثير ، كالألفاظ التى تجىء على وزن فعّال كتوّاب وغفّار فإنهما يفيدان كثرة التوبة والمغفرة وتكررهما من الفاعل ، وليسا كتائب وغافر ، فإنهما يدلان على وقوع المغفرة والتوبة من الفاعل ولو مرة واحدة .

قال وقد وَهِمَ بعضُ شعراء الحماسة فى هذا الموضع فقال :

لِلهِ تَيْمٌ أىُّ رُمْحِ طرادِ　　　لاقى الحِمامَ وأىُّ نَصْلِ جلادِ ؟
ومِحَشِّ حربٍ مُقْدِمٍ متعرِّضٍ　　　للموت غيرِ مُكذِّبٍ حَيَّاد

قال فانعكس عليه القصد ، لأنه إذا نفى كونه حَيَّادا فقد نفى عنه كونه كثير الهزيمة والانحراف عن قرينه ، وذلك أن يكون قليلهما ، ولا شبهة أن يكون غير حَيَّاد ولكنه حائد ، أى وجدت منه الحيْدودة مرة واحدة ، وإذا وجدت منه مرة كان ذلك جُبنا ، ولم يكن شجاعة ، والأولى أنْ كان قال : غير مكذب حائد[1] :

أقول : فعلى هذا القياس يكون قوله تعالى: (وما ربُّك بظلّامٍ للعَبيدِ)[2] يقتضى أن يكون دالا على نفى تكرر الظلم ، ويكون مفهوم ذلك ونحواه أنه

---

(١) المثل السائر ٢/٢٥٤ ومنه أصلحنا النص .

(٢) سورة فصلت ٤٦ .

يظلِمُ العبادَ ظلما قليلا ، كما كان فحوَى بيت الشاعر أن هذا المرثىَّ يجْبُنُ نادرا ، وأن يكون قوله صلى الله عليه وسلم لعلىٍّ عليه السلام : « لأُعْطِيَنَّ الرايةَ غداً لرجلٍ يحبُّ اللهَ ورسولَه ، ويحبهُ اللهُ ورسولُه ، كرَّارٍ غيرِ فرَّارٍ » أى لا يكثر الفرَّ بل يفرُّ أحيانا فى النادر ، مع أن عليًّا لم يفرَّ قطُّ على ما نقل عنه المخالِفُ والمؤالفُ ، وأن يكون قول سَطيحٍ (١) فى كَهانتِهِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس بفَظٍّ ولا صَخَّاب » يقتضى ألا يَصْخَبَ كثيرا ، بل يَصْخَبُ فى وقت بَعيدٍ .

واعلم أنَّ العربَ إذا استعملت هذه اللفظة فى النفى فإنهم لا يَعْنون بها إلا ما يعنون بلفظة فاعل فقط ، ولو شئتُ أن أذكر من ذلك الأمثلة الكثيرة لذكرتها ، فأما فى الإثبات فإنهم قلَّ أن يستعملوها إلا فى الكثرة والتكرير كما ذكره هذا الرجل ، وكان الواجب أن يتَصَفَّح كلامَهم ، ويُفرِّق بَيْنَ استعمالهم لها نَفْياً واستعمالهم لها إثباتا .

— ١١١ —

قال المصنف : وينبغى أن يُعلَمَ أنه إذا وردَتْ لفظةٌ من الألفاظ ، ويجوز حملها على التَّضعيفِ الذى هو طريقُ المبالغة ، وحملها على غيره ، أن يُنظرَ فيها .

---

(١) سطيح كاهن بنى ذئب ، كان يتكهن فى الجاهلية ، وأخبر بمبعثه صلى الله عليه وسلم . ومات بعد مولد النبى . قالوا إنه سمى بذلك لأنه كان إذا غضب قعد منبسطاً فيما زعموا ، وقيل إنه سمى بذلك لأنه لم يكن بين مفاصله قصب تعتمده فكان أبداً منبسطاً منسطحاً على الأرض لا يقدر على قيام ولا قعود . وهو خال عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغسانى ، وابن خالة شق الكاهن (هامش القاموس مادة سطح) .

فإن اقتضى حملها على المبالغة . فهو الوَجْهُ .

وذلك أن قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيمُ إلا فى نقل صيغةٍ إلى صيغةٍ أكثر منها ، كنقل الثلاثى إلى الرباعى .

وإلا فإذا كانت صيغة الرباعى مَثَلاً موضوعةً لمعنى ، فإنه لا يُراد بها ما أريد مِنْ نَقْلِ الثلاثىِّ إلى مثل تلك الصيغة .

ألا ترى أنه إذا قيل فى الثلاثى (قَتَل) ثم نقل إلى الرباعى فقيل (قَتَّلَ) بالتشديد ، فإن الفائدة من هذا النقل هى التكثير ، أى أن القتل وُجدَ منه كثيرا ؟ .

وهذه الصيغة الرباعية بعينها لو وردَتْ من غير نقل لم تكن دالّةً على التكثير ، كقوله تعالى : (وكلَّم الله موسى تكليما) ، إذْ أنه لا ثلاثىَّ لهذه اللفظة[1] .

أقول : إنه لا يصحُّ أن يقال على الإطلاق متى كان لهذه الصيغة وهى فَعَّل بالتشديد ثلاثىٌّ ، فإنها تُعطِى معنى التكثيرِ والقوةِ ، وذلك أنَّا قد وجدناها فى مواضع بخلاف هذه الصفة ، نحو قولك قَلَصَتْ شفته إذا انزوَتْ بالتخفيف ، ومثله قَلَّصَتْ بالتشديد ، ولا فَرْقَ بينهما عند أهل اللغة فى كثرةٍ ولا قلة ، وقد نَصُّوا عليه ، وذكر ذلك صاحب ديوان الأدب فقال : قَصَرَ من الصلاة وقَصَّر منها[2] .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٥٣ — ٢٥٥ ومنه نقلنا النص وصححناه .

(٢) فى أساس البلاغة : قصر من الصلاة قصراً وأقصر وقصر (بتشديد الصاد فى الأخيرة) .

فأما قوله إنَّ فعَّل مشدداً إذا لم يكن له ثلاثى قد نُقِلَ عنه فإنه لايَدُلُّ على الـكثرة فصحيحٌ ، لـكنَّ تمثيله بقولهم رَتَّلَ القراءة غير صحيح ، لأن هذه اللفظة لها فعلٌ ثلاثىٌّ وهو رَتِلَتْ قراءته بالـكسر رَتَلاً أيضا ، ويقال منهما ثَغْرٌ مُرَتَّلٌ ، وكلام مُرَتَّل .

فأما تمثيله بكَلَّم فتمثيلٌ صحيح لانزاعَ فيه .

— ١١٢ —

قال المصنف : وقد ذهب جُمهورُ علماء العربية إلى أن عليما أبلغُ فى معنى العلم من عالم .

قال : ولا أرى ذلك صوابا ، لأنك تجد الحروف فى الموضعين على عِدَّة واحدةٍ لم ينتقل فيها الأدنى عددا إلى الأعلى ، بل الذى يُوجبه القياس يقتضى عكس ما قالوا ، لأن فعيلا فى وزن طريق وكريم وأمثالهما من أمثال الأخلاق والطبائع التى لاتقع إلا قاصرة[1] ، وفاعلها على هذا الوزن هو فعيل[2] لا غير، وليس بناء فاعلٍ كذلك ، لأنه يجىء من المتعدى كضارب ومن اللازم كقائم ، وما يشبه مالا يكونُ إلا للقاصر أضعف مما يكون بناؤه للمتعدى والقاصر معا[3].

---

(١) يريد بالقاصرة اللازمة .

(٢) قال ابن الأثير : عالم اسم فاعل من علم وهو متعد ، وعليم اسم فاعل من علم (بضم اللام) إلا أنه أشبه وزن الفعل القاصر ، نحو شرف فهو شريف وكرم فهو كريم ، فهذا الوزن لا يكون إلا فى الفعل القاصر . فلذا أشبهه (عليم) انحط عن رتبة (عالم) الذى هو متعد .

(٣) المثل السائر ٢/٢٥٦ بتصرف .

أقول إن فعيلا و إن لم يَنُصَّ العرب على أنه للمبالغه فقد نبهوا على ذلك باستعمالهم إياه خبرا عن الجماعة، وإجراء صفتهِ على المذكر والمؤنث ، أما كونه خبراً عن الجماعة فنحو قول جرير :

جَلَوْنَ العيونَ النُّجلَ ثم رَمَيْنَنَــــا

بأَعْيُنِ أَعـــداءٍ وهنَّ صديقُ(١)

ومثله فى الخبر قوله تعالى : (إن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين)(٢) ، ولم يقل قريبة .

وإذا وُصِفَ به المذكر والمؤنث ووقع خبرا عن الجماعة صار كالمصادر الواقعة للأجناسِ المشتركِ فى الوصفِ بها المفردُ والجمعُ والمذكَّرُ والمؤنَّثُ ، نحو قولهم رجل فِطْرٌ وامرأة فِطْرٌ ورجال فِطْرٌ ونساء فِطْرٌ ، ومثل هذا لم يجىء فى وزن فاعل ، وعلة ذلك أن فعيلا أشْبَهَ فعولا ، لأنه صفة مِثْلُهُ وثالثهُ حَرْفُ مدٍّ ، وفعول قد وقع للجمع والمفرد والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ، قال الله تعالى : (فإنهم عَدُولى إلا رَبَّ العالمين)(٣) فعَدُوٌّ فعول ، وقد أَخْبَرَ به عن الجماعة ، أى أنهم لى أعداء .

---

(١) البيت فى الديوان (٣٩٨) :

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا   بأسهم أعداء وهن صديق

من قصيدته فى مدح الحجاج التى مطلعها :

بت أرانى صاحبي تجلدا   وقد علقتنى من هواك علوق

(٢) سورة الأعراف ٥٦ .

(٣) سورة الشعراء ٧٧ .

وقالوا امرأة شَكُورٌ كما قالوا رجل سكورٌ ، وإنما استعملوا فعولاً للمبالغة والكثرة ، لأنه على لفظ فعول الذى يقع مَصْدراً ، نحو الدُّخول وليس بينه وبينه إلا ضَمُّ هذا وفتح هذا .

وقال أبو الفتح رحمه الله سَرَى التذكير من فعُول المصدرىّ إلى فعول الوصفى ، يعنى أنّ المصدرَ للجنس ، والغالبُ على الجنس التذكير ، فلذلك لم يؤنث فعول إذا وقع للمونث بمعنى فاعل ، نحو امرأة صَبورٌ ، وامرأة شكورٌ ، وشذّ قولهم امرأة عَدُوَّةٌ ، حملوه على قولهم امرأة صديقةٌ بالهاء الفارقة فى الواحد بين المذكر والمؤنث .

فأما قوله إن فعيلا يجىء من أفعال الغرائز فذلك لاينافى وُقوعَهُ للمبالغة ، لأن قولنا قَدُمَ فهو قديمٌ فيه مبالغة ، وكذلك عَتُقَ فهو عَتيقٌ بمعنى قَدُم فى الزمان على جهة المبالغة ، وقال سبحانه : (حتى عاد كالعُرجونِ القَدِيم)(١) .

— ١١٣ —

قال المصنف : ومن التطويل الذى لاحاجةَ إليه قولُ المُجَيْر السَّلُولى من شعراء الحماسة :

طلوعُ الثَّنايا بالمطايا وسابقٌ ⠀⠀⠀ إلى غايةٍ مَنْ يَبْتَدِرْها يُقَدَّمِ

قال: فالزيادة قوله بالمطايا ، لأنه أراد ما أراده الحجاج بقوله : (أنا ابْنُ جلاَ

---

(١) سورة يس ٣٩ .

وطلاعُ الثنايا) أى سامى الهمة إلى معالى الأمور ، فالمطايا فضْلة ، لأن معالى الأمور لا يُرْقَى إليها بالمطايا ، وإن أراد به أنه كثير الأسفار فتخصيصه الثنايا بالذكر دُونَ سائر الأرض من المفاوز وغيرها لا فائدةَ فيه .

وعلى كلا الوجهين فذِكْرُ المطايا فَضْلَةٌ لا حاجةَ إليها ، وهو تطويل بارد غَثٌّ(١) .

أقول : إن هذا الكلام مدخولٌ من ثلاثة أوجه : الأول أنه لو أراد ما أراده الحجاج من سُمُوِّ همته إلى معالى الأمور ، وإحاطةِ علمه بالخفايا كما يحيط علْمُ الرَّبيئةِ الذى يطلع الثنايا بأحوال الأرض ومَنْ يصير فيها ، لم يكن قوله بالمطايا زيادة لا معنى تحتها ، لأنه كَنَّى بالمطايا عن مساعيه وآثاره ومَقاماته التى تَقَدَّمَ بها فى معالى الأمور ، واكتسبها ، وسَمَّاها مطايا لأنها هى التى أوصَلَتْهُ إلى المعالى ، كما يصل الإنسان بالمطية إلى مَقْصِدِه .

ولهذه العلة استعاروا هذه اللفظةَ ، فقالوا الليل والنهار مَطِيَّتانِ تُقَرِّبان البعيدَ ، وسَمَّى أبو الطيب نَعْله ناقةً ، فقال :

لا ناقتى تَقْبَلُ الرَّدِيفَ ولا
بالسَّوْط يومَ الرِّهانِ أُجْهِدُها(٢)

---

(١) المثل السائر ٢/٢٧٠ .

(٢) من قصيدته فى مدح محمد بن عبيد الله العلوى التى مطلعها :

أهلا بدار سباك أغيدها ... أبعد ما بان عنك خردها

الديوان ١/١٩٥ .

والبيت فى الفلك الدائر هكذا :

لا ناقتى تقبل الرديف لما ... كانت توصله إلى مقصوده

فمرادُ الشاعر إذن أننى نِلْتُ معالى الأمور بالسَّعْى والآثار والتَّوصُّل ، لا بالميراث ولا الاقتصار على شرف الأنساب .

والوجهُ الثانى لو أراد الإبانةَ عن كثرة الأسفار لـكان لقوله الثنايا مزيةٌ ظاهرةٌ على غيرها من الأرض ، لأن الثنايا والعِقاب والرَّوابى أَشَقُّ الأرض سيرا ، قال الشاعر :

وثَنِيَّةٍ قُذُفٍ يَحارُبها القَطــــــا
وبَضِلُّ فيهـــا حين يَغْدو الأحْقَبُ[1]

وقال :

ومَزْنَأةٍ لانستطاعُ قطعتُهـــا
بِهَيْقٍ كتـــابوتِ النَّصارى شَمَرْوَل[2]

وأشعارهم فى هذا الباب كثيرة جداً .

الوجه الثالث أنه أدَّعى أن لفظة المطايا هى الفضلة الزائدة ، ثم برهن على ذلك بأن قَسَّمَ المعنى إلى قسمين ، ثم بَيَّنَ أن أحد القسمين إن كان هو المراد فالمطايا فَضْلَةٌ زائدة ، وهو المطلوب ، ثم قال وإن كان القسم الثانى هو المراد

---

(١) الأحقب : الحمار الوحشى الذى فى بطنه بياض .
(٢) المزنأة : مكان الصعود فى الجبل ، زنأ فى الجبل أى صعد .
الهيق : ذكر النعام ، شبه به الجمل .
الشمردل : القوى السريع الحسن الخلق الفتى من الإبل وغيرها :
والبيت بالأصل (ومرناة) وقد رجحنا أن يكون تصويبها (ومزنأة) أو (ومنقبة) لأن المنقبة الطريق الظاهر على رءوس الجبال والآكام والربا .

فالثنايا فضلةٌ زائدة ، فإذن استدلاله لا ينتج المطلوب ، لأنه إنما كان ينتج المطلوب لو ثبتت زيادة قوله بالمطايا على كلا القسمين ، فأما إذا كان أحد القسمين لا يقتضى زيادتها ، بل زيادة غيرها ، فقد بَطَلَ قوله ودعواه أن ذكر المطايا فضلةٌ لا حاجة إليها ، على كلا الوجهين .

— ١١٤ —

قال المصنف : فأما بيتُ أبى تمام وهو :

يتجنَّبُ الآثامَ ثم يخافهـا ... فكأنما حسناتهُ آثامُ

فإنه قد جاء فى بعض النُّسخ :

يتجنب الآثامَ خيفةَ غيِّها ... فكأنما حسناته آثام

وليس بشىء ، لأن المعنى لا يصح به ، والوجه الرواية الأولى .

وقد خطر لى فى معناه أنه نظير قوله تعالى : (والذين يُؤْتون ما آتَوْا وقلوبهم وَجِلةٌ) وتقديره أنه يتجنب الآثام ، فيكون قد أتى بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنةَ ، فكأنما حسناته آثام ، وهو على طباق الآية سواء[1] .

أقول : إن هذا التفسير يكاد يكون التفسير ، ولكنه لم يوضحه ، لأنه قال ثم يخاف تلك الحسنة ، ولا ريب أن الحسنة التى صَدَرَتْ منه هى تجنبُ الآثامِ ، وهى طاعةٌ لا يخافها أحد ، فما باله خاف التجنب حتى صار كأنه من الآثام ؟

---

(١) المثل السائر ٢/٢٨٨ .

فقد بان أنه قد أعوزته كلمة لم يذكرها ، وهو أنه لا يخاف تجنب الآثام ، بل يخاف ألا يُقْبَل منه وألا يُثاب عليه ، فيكون خَوْفُهُ من ذلك خَوْفَهُ من الآثام نفسها ، ويكون هذا من باب حَذْفِ المضافِ ، كأنه قال يتجنب الآثامَ ثم يخاف رَدَّها أو يخاف إحباطها ، والضمير يرجع إلى مصدر قوله يَتَجَنَّبُ ، لأن يتجنب قد دَلَّ على التجنب .

فإن قلتَ ضمير المؤنث هاهنا كيف جاء والتجنب مذكر ؟ قلتُ : هو محمولٌ على المعنى ، لأن التجنب كالجفْوة والهِجْرة والمفارقة ، وإعادة الضمير على المعنى في باب التذكير والتأنيث كثيرةٌ مشهورة .

وعلى هذا التحقيق ظهرَتْ مطابقته بالآية على أحَدِ تفسيرَيْها .

فأما قوله إن رواية (خيفة غيها) لا يصح المعنى بها ، فإن بعض المفسرين قال إن هذا البيت محمولٌ على القَلْب ، وتقديره : فكأنما آثامه حسنات ، قال ومعناه كأن آثامه حسنات غيره ، لأنه من الأبرار الأولياء الذين حسناتُ الناس سيئاتٌ بالنسبة إلى عباداتهم ، ومن كلامهم : حسناتُ الأبرارِ سيئات المقرَّبين ، يَعْنُونَ عُلُوَّ طبقةِ المقرَّبين على طبقة الأبرار .

والقلب قد جاء في الكلام كثيرا نحو قولهم : أدخلتُ الخاتَمَ في إصْبَعي ، والتحقيق أدخلتُ إصبعي في الخاتم ، لأن الإصبعَ هي التي أُدْخِلَتْ في الخاتم ، وقولهم كأن الزِّنا فريضة الرَّجم ، وقال الآخر :

— ٢٧٧ —

وبَلَدٍ عامِيَةٍ أعمــــاؤهُ كأنّ لونَ أرضه سماؤهُ[١]

وقد جاء فى التنزيل شىء من ذلك قال : (فإنهم عَدُوٌّ لى)[٢] أى فإنى عَدُوٌّ لهم وعداوته تعالى لهم براءته منهم ولعنته لهم ، وإذا ثبت هذا فالرواية التى أفسدها وزعم أنها لا تصح صحيحةٌ غير منكرة . . .

— ١١٥ —

قال المصنف : فأما بيت أبى نواس ، وهو قوله :

سُنَّةُ العشاقِ واحــــدةٌ فإذا أحْبَبْتَ فاستكِنِ

ومن الناس من يرويه فاستنّ بالنون ، وهذا لا معنى له ، لأنه إذا لم يُبَيِّنْ سُنَّةَ العُشاقِ ماهى ، فبأى شىء يَسْتَنُّ المستَنُّ منها[٣] ؟ .

أقول: إن البيت الذى قبله يُوَضِّحُ سنة العشاق التى أمره أن يَسْتَنَّ بها، ألا ترى أنَّ مَنْ قال لغيره إذا دخلت على الملك فاسْجُدْ ، ثم قال عُقَيْبَ ذلك عادةُ عَبيدِ الملِكِ وخوَلِهِ مشهورةٌ ، فإذا أحببتَ أن تكون منهم فاعمل بها ، فإنه يفهم من هذا الكلام أنه إشارةٌ بالعادة إلى ما قدمه أولاً من السجود للملك .

---

(١) البيت لرؤبة ، والأعماء المجاهل ، وأعماء عامية على المبالغة ، على حد قولهم ليل لائل ، وشغل شاغل . وقال الأزهرى : عامية دارسة وأعماؤه مجاهله (لسان العرب مادة عمى) .

(٢) سورة الشعراء ٧٧ .

(٣) المثل السائر ٢/٢٨٩

— ١١٦ —

قال المصنف : بعد أن ذكر آياتٍ كثيرةً من الكتاب العزيز تتضمن حذف جملٍ مفيدة وغير مفيدة : ومن هذا الباب قوله تعالى : (قال الذى عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيك به قبلَ أن يرتدَّ إليك طرفُكَ ، فلما رآه مُسْتقِرًّا عنده قال هذا مِنْ فَضْلِ ربى ليَبْلُوَنى أأشكرُ أم أكفرُ ؟ ومَنْ شَكَرَ فإنما يشكرُ لنفسه ، ومَنْ كفرَ فإن ربى غنىٌّ كريمٌ . قال نَكِّروا لها عَرْشَهَا) لأن الأمر بتفكيره لا يكون إلا بعد أن جىء به إليه[١] .

أقول : تقديرُ هذا الحذفِ غَيْرُ محتاج إليه فى هذه الآية ، لأنَّا إنْ جعلنا الضمير فى (رآه وفى عنده) راجعاً إلى الذى عنده علم من الكتاب جعلنا الضمير فى (قال نكروا لها) راجعا إلى سليمان ، فيكون تقدير الكلام : فلما رأى الرجلُ الذى عنده علمٌ من الكتاب عَرْشَ بلقيسَ مستقرا عنده ، قال : هذا من فَضْلِ ربِّى إلى آخر الآية ، ثم هذا يَحكِى قَوْلَ سليمانَ (نكِّروا لها عرشها) فلا تحتاج الآية إلى حذف ولا إضْمار .

وإن جعلنا الضمائر كلها راجعة إلى سليمان لم يُحتجْ أيضا إلى الحذف الذى ذكره ، بل يكون قَوْلُهُ نكِّروا لها عرشها إما معطوفا حذف منه حرف العطف ، تقديره وقال نكروا لها عرشها ، كما قال : (لا تتَّخِذُوا بطانةً من دُونكم لا يألونكم خَبَالاً ، وَدُّوا ما عَنِتُّمْ ، قد بَدَتْ البغضاء من أفواهِهم)[٢]

---

(١) المثل السائر ٢/٢٩٣ .

(٢) سورة آل عمران ١١٣ .

أو جوابا ثانيا للمَّا ، أو كلاما مستأنفا ، كأنه فرَغَ من تلك القصة ، ثم شَرعَ في جملة أخرى ، وهى أنه لا حاجة إلى حذف المذكور ، لأنه لما قال فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ، وهذا يغنى عن أن يقدر مرة ثانية (فلما جىء به) لأن معناهما واحد .

— ١١٧ —

قال المصنف : وقد نص أبو الفتح ابن جنّى على أن حذف الفاعل لا يجوز .

قال : وبيت حاتم يشهد بخلاف قوله وهو :

أماوىَّ ما يُغْنِى الثَّراء عن الفتَى إذا حَشْرَجتْ يوما وضاقَ بها الصَّدْرُ

وقال الله تعالى : (حتى توارت بالحجاب) ولم يذكرها[١] .

أقول: إن البصرين كلهم قد منعوا حذف الفاعل لقاعدة مقررة عندهم ، وهى أن الفاعل ينزل منزلة جزء من الكلمة ، لأنهم سكَّنُوا لام الفعل إذا اتَّصلَ به ضمير الفاعِل ، نحو ضربت ، كيلا تتوالَى أربعُ متحركاتٍ لوازم فى كلمةٍ واحدةٍ ، فإن ذلك لا يوجد إلا أن يكون قد حُذِفَ حرفٌ من الكلمة للتخفيف ، نحو عُلَبِط[٢] ، فإسكانهم لام الكلمة تنزيل لضمير المتكلم وهو الفاعل مَنْزِلَةَ حرف من نفس الكلمة ، ولذلك لم يُسَكِّنوا

---

(١) المثل السائر ٢/٢٩٦ ولم يذكر ابن الأثير هذه الآية ، بل ذكر آية أخرى هى : (كلا إذا بلغت التراقى) وقال إن الضمير فى بلغت للنفس ولم يجر لها ذكر .

(٢) العلبط والعلابط بضم عينهما وفتح لامهما وكسر بأيهما الضخم والقطيع من الغنم (القاموس المحيط) .

لام الفعل إذا اتَّصَل به ضمير المفعول كقوله تعالى : (ما وعَدَنا اللهُ ورسولُهُ)(١) لأنه فى نيةَّ الانفصال ، بخلاف قوله : (وإذْ واعَدْنا موسى)(٢) قالوا وكذلك جَعَلُوا النونَ فى يَفْعلانِ وبابِهِ علامةَ الرفع ، فلولا أنَّ الألفَ بمنزلة حرف من نفس الكلمة لما جعلوا الإعراب بعده ، ولأنهم ألحقوا علامةَ التأنيث بالفعل فى قولهم : قامت هند ، والفعل لا يؤنث ، فلو لم يكن الفاعل بمنزلة جزء من الفعل لما جاز إلحاق علامة التأنيث به .

وقد نسبوا إلى (كُنْتُ) فقالوا كُنْتِيٌّ ، قال الشاعر :

فأصبحتُ كنتيًّا وأصبحت عاجناً ... وشرُّ خصال المرء كنتُ وعاجنُ (٣)

فأثبتوا الياء ، ولولا تنزيلها منزلةَ جزء من الكلمة لم يثبتوها فى النسب ، ولهم على هذه القاعدة أدلةٌ كثيرةٌ مذكورةٌ فى مواضعها .

وإذا كان الفاعل بمنزلة جزء من الكلمة لم يَجُزْ حذفه ، كما لا يجوز حذف الدال من زيد ، ولكنه يُضْمَرُ ، فتارةً يَرْجِعُ إلى شىء متقدم فى اللفظ ، كقولنا زيدٌ قام ، وتارةً إلى ما يَدُلُّ عليه لفظ مُصَرَّحٌ به ، وإن لم يكن المضمر راجعا إلى ذلك اللفظ ، كقولهم : من كذب كان شرًّا له .

---

(١) سورة الأحزاب ١٢ (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) .

(٢) سورة البقرة ٥١ .

(٣) الكنتى : الكبير العمر (القاموس مادة كان) .

العاجن : الشيخ الكبير ، يقال فلان عجن وخبز أى شاخ وكبر ، لأنه إذا أراد القيام اعتمد على ظهور أصابع يديه كالعاجن ، وعلى راحتيه كالخابز (أساس البلاغة مادة عجن) .

فاسم كان مضمر دلّ عليه لفظ كَذَبَ ، والمعنى كان الكذب شرًّا له ، قال الله سبحانه : (ثم بَدَاهُم مِنْ بَعْدِ ما رأوا الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ)[١] أى بدالهم بَدَاءٌ ، فأضمر الفاعل لدلالة بدا عليه .

وقد أضمره الشاعر فقال :

لعلك والموعــودُ حَقٌّ لقــــاؤه

بَدَا لك فى تلك القَلُوصِ بَدَاء[٢]

وقد تقدم أن قوة العلم بالفاعل فى بعض المواضع تقوم مقام ذكره أو ذكر ما يدل عليه ، كقوله تعالى : (حتى توارَتْ)[٣] وقول حاتم (إذا حشرجت).

والضابط فى ذلك ألا يزيد ذِكْرُ الفاعل فى قوة العلم به على ما يحصل من قوة العلم وهو غير مذكور كما فى الآية والبيت ، فإنه لو ذكر الشمس والنفس لم تَزِدْ قوةُ العلم على ما نجده الآن ، وإن لم يذكرها ، وهذا هو الفرق بين حذف الفاعل وحذف غيره ، فإن هذا الضابطَ غير معتبر فى شىء من المواضع إلا فى الفاعل إذا لم يذكر .

---

(١) سورة يوسف ٣٥ .

(٢) القلوص : الناقة الفتية أو الباقية على السير . بداء : رأى ناشىء .

(٣) سورة ص ٣٢ (حتى توارت بالحجاب) أى الشمس .

— ١١٨ —

قال المصنف : وقد يحذف الفعل لدلالةِ المفعول عليه ، كقولهم : (أهْلَكَ والليلَ) بنصبهما معاً أى الْحَقْ أهلَك وبادِرِ الليلَ[1] .

أقول : ظاهرُ هذا الكلام أنه انتصب اللفظان بإضمار فعلَين ، وهو خلاف ما تقولُه النُّحاةُ ، لأنهما عندهم منصوبان بفعل واحد ، تقديره بادِرْ أهلك والليلَ ، ومعناه بادرْ أهلك قبل الليل ، وتحقيق ذلك أن معنى المبادرة مسابقتك الشيء إلى الشيء ، كقولك بادرت زيداً للمنزل ، كأنك سابقته إليه ؛ فلما عطف الليل على الأهل وجعلهما مُبادَرَيْن أمره بمبادرتهما قَبْلَ أن يسبقه أحدهما إلى الآخر .

— ١١٩ —

قال المصنف : حَذْفُ الفعل ينقسم إلى قسمين : أحدهما يَظْهَرُ بدلالة المحذوفِ عليه ، كما ذكرناه من قولهم أهلك والليل ، وكقول المتنبي :

وما أَرْضَى لمقلتِه بحُلْمٍ إذا انتبهَتْ توهَّمهُ ابْتشاكا[2]
ولا إلا بأنْ يُصغِي وأَحْكِي فليتك لا يُتَيِّمهُ هَواكا

فقوله ولا إلاَّ بأن تصغى فيه محذوف ، تقديره ولا أرضى إلا بأن تصغى وأحكى .

---

(١) المثل السائر ٢/٢٩٧ .
(٢) الابتشاك : الكذب .

قال : والقسم الثانى لا يظهر فيه الحذف ، لأن هناك منصوبا يدل عليه ، بل بالنظر إلى ملاءمة الكلام ، كقوله تعالى : (وعُرِضُوا على رَبِّك صَفا ، لقد جِئْتُمونا كما خلقناكم) وكقوله : (ويوم يُعْرَضُ الذين كفروا على النار أَذْهَبْتُم طيِّباتِكم فى حياتكم الدنيا) وكقوله : (ووصَّينا الإنسانَ بوالديه حُسْناً ، وإن جاهداك) فتقدير ذلك كله : وقلنا لقد جئتمونا ، وقلنا أذهبتم طيباتكم ، وقلنا وإن جاهداك[1] .

أقول : لا فَرْقَ بَيْنَ هذا القسمِ وبَيْنَ قوله إلا بأن تصغى وأحكى ، لأنه لو أظهر (وقلنا) لكان ما بعده منصوبا لأنه مفعول به ، كما لو أظهر المفعول فقال ولا أرضى شيئاً إلا بأن تصغى ، فالقَوْلُ ينصب ما بعده إذا كان كلا مقولا كما ينصب الفعلُ مفعوله ، وكما أن موضع (لقد جئتمونا) هو المنصوب لالفظه ، ولا فصل بين الموضعين ، فدعواه أن هذه الآيات عُلِم الحذفُ منها بالنظر إلى ملاءمة الكلام لا بأن فى الكلام مفعولا يدل على حذف الفاعل ، وأن قوله (ولا إلاَّ بأن تصغى وأحكى) خلاف ذلك دعوى غير مقبولة .

— ١٢٠ —

لو كنتُ من مازنٍ لم تَسْتَبِحْ إبلى

بنو اللقيطة مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبانا

إذاً لقامَ بنصرى مَعْشَرٌ خشُنٌ عن الحفيظة إن ذو لوثة لانا .

(١) المثل السائر ٢/٣٠٠ .

فجواب الشرط قد استوفاه فى البيت الأول ، فلابد فى البيت الثانى من تقدير لو دفعة ثانية ، أى لو كنت منهم إذن لقام بنصرى معشر خُشُن[١] .

أقول : إن هذه المسألة تنبنى على أن العامل فى البدل هو العامل فى المبدل منه أم لا ، فإن لم يثبت ذلك لم يصح هذا الكلام ، لأنه جاز أن يكون قوله (إذن لقام بنصرى) بدلا من قوله (لم تستبح إبلى) لأنه فى معناه ، والفعل يبدل من الفعل إذا كان فى معناه ، نحو أُدْنُ يا فتى أُحْسِنْ إليك أُعْطِك مالا ، وإذا لم يحتج فى البدل إلى تكرير العامل لم يحتج هنا إلى تكرير لو ، وإن لم تثبت هذه القاعدة فإنّ ما ذكره صحيح لاريب فيه .

— ١٢١ —

قال المصنف فى باب التكرير : التكرير على قسمين تكريرٌ فى اللفظ والمعنى جميعا ، وتكرير فى المعنى فقط دون اللفظ ، فالأول نحو قولك لمن تستدعيه أَسْرِعْ أَسْرِعْ ، ونحو قوله تعالى :(يريد الله أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماته ويَقْطَعَ دابر الكافرين ، ليحُقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطلَ ولو كره المجرمون) ومثل قول أبى الطيب المتنبي :

ولم أر مِثلَ جيرانى ومِثْلى   لمثلى عند مِثلهمُ مقـــام[٢]

أقول التمثيل باللفظة المذكورة وبالآية تمثيلٌ جيدٌ .

وأما التمثيل بالبيت فغير جيد ، لأنه لم يتكرر فيه اللفظ والمعنى حسب

(١) المثل السائر ٢/٣٢١ .
(٢) المثل السائر ٣/٣ .

تكرره فى الآية وفى اللفظة المذكورة ، لأنه لم يَذْكُرْ فى صدر البيت إلا نَفْى رؤيةِ مثلِه ومِثْلِ جيرانه ، ولم يُبَيِّنْ فى ماذا ، ولا هذه المِثْليةُ والمشابهةُ فى أى شىء ، فمن الممكن أنه كان يعنى لم أر مثلى ومثلهم فى حُبٍّ بعضنا لبعض ، أو فى بغض بعضنا لبعض ، أو فى جُودنا أو فى شجاعتنا ، أو فى ديانتنا ، فلما قال فى عجز البيت (لمثلى عند مثلهم مقام) كشف ذلك الإجمال ، وأزال ذلك الإبهام ، وأبان عن أنَّ مرادَهُ لم أر مثلى مُقِيماً بين ظهرانىْ مِثْلِهِمْ ، يعنى أنهم على غاية الإساءةِ لعِشْرتهِ ، وأنه على غاية الصَّبْرِ عليهم ، والاحتمال لهم ، وأن مقامه عظيمٌ لا يصلح أن يكون مِثْلُهُ مقيماً بَيْنَ هؤلاء الرِّعاع .

فالشاعر لم يكرر كما تكررت ألفاظ الآية ، ولا وُجِدَ اللفظُ والمعنى معا مُرَدَّدَيْن مكرَّرين فى هذا البيت ، ولكن أول ألفاظه يُعطى معنًى مجملا ، والثانى يُعطى معنى مفصلا ، وهو شرح ذلك المجْمَلِ ، فلم يكن ذلك تكريرا مشتملا على إعادةِ اللفظِ والمعنى معاً ، فلم يَجُزْ إدخاله فى هذا القسم ، وذكره فى جملة أمثلته .

— ١٢٢ —

قال المصنف : فأما قوله تعالى : (فصيامُ ثلاثةِ أيامٍ فى الحجِّ وسبعةٍ إذا رجعتم ، تلك عَشَرةٌ كاملة) فليس كما يُتَوَهَّمُ من أنه تكرير فقط ، بل المراد به إيجاب صَوْمِ الأيام السَّبعة عند الرجوع فى الطريق على الفَوْرِ لا عند الوصولِ إلى البلد ، كما ذهب إليه بعض الفقهاء ، وقال : لأن الأمر إذا صَدَرَ بلفظ التكرير مجرداً عن قرينةٍ تُخْرِجهُ عن وَصْفه ، ولم يكن مؤقَّتا بوقت معين ،

كان ذلك حثًّا للمأمور على المبادرة على الفور ، كما تقول لصاحبك قمْ قمْ ، فإنما تريد بهذا اللفظ المكرر أن يبادر إلى القيام في الحال الحاضر[1] .

أقول: إن المذهب الذى قد اختاره هو مَذْهبُ مجاهد ، والاحتجاج الذى قد احتجَّ به لنصرته ضعيفٌ ، لأن فحوى كلامه أنه يذهب إلى أن الأمر إذا ورد مجرداً عن التكرير لم يَدلَّ على الفور ، ألا تراه كيف قد قيد كلامه فقال إذا صدر بلفظ التكرير غير مؤقت ، فلو كان مِمَّنْ يذهب إلى أن الأمْرَ يقتضى على الفور مُجَرَّدا لم يَحْتَجْ إلى هذه القيود .

وإذا كان كذلك فأدلة القائلين بأن الأمر لا يقتضى الفور جميعها موجودةٌ فى أن الأمر المكرر قرينةٌ يفهم منها الفورية ، مثل أن يقول له قمْ قمْ قَوْلَ غضبٍ أو إزهاق ، أو يشاهد وجهه أو يسمع كلامه ، فيدرك منها ما يدل على ذلك ، أو يظهر من حركاته وقرائن أحوالِهِ أماراتٌ تقتضى ذلك .

فأما مُجَرَّدُ الأمرِ فقط فلا يدل تكريره على الفورية ، لأن الزمان من ضروريات وقوع الامتثال ، كما أنَّ المكانَ من ضرورياته أيضا ، وكما لا يدل تكرار الأمر على وجوبِ إيقاع المأمور به فى مكان مُعَيَّنٍ ، فكذلك لا يَدُلُّ تكرار على وجوب إيقاعه فى زمانٍ مُعَيَّن .

ولا حِيلةَ فى دفع هذا لمن ذَهَبَ إلى أن الأمر يقتضى الفور سواء كُرِّرَ

(١) المثل السائر ٣/٣٠ .

أو لم يُكَرَّرْ ، فإنه يتكلم على هذا الدليل كلامَ مَنْ أثبت الفوريةَ للأمر ، حيث كان أمراً لا باعتبار التكرير .

ثم يقال له لو سَلَّمنا أن الأمر المكرَّرَ اللفظِ يدلُّ على الفور ، لكن ليس قوله (فصيام ثلاثةِ أيامٍ فى الحج وسبعةٍ إذا رجعتم تلك عشرةٌ كاملةٌ) مثل قول الإنسان لغيره قمْ قمْ ، ولا تكون السبعة والثلاثة والحكم بأنها عشرة كاملة كذلك التكرير اللفظى فى مبادرة الأفهام إلى أن المراد منه تعجيل امتثال المأمور به ، فإنما نظيره أن يقول مَنْ تمتع بالعُمْرة إلى الحج فقد أَوْجَبْتُ عليه صيامَ ثلاثةِ أيامٍ فى الحج وسبعةٍ إذا رجع .

فأما قوله سبحانه (تلك عشرةٌ كاملةٌ) فلا يعطى هذا المعنى ، لأنه ليس إعادة لفظ الأمر كقولك قم قم ، ولا معناه كقولك قم لا تقعد ، وإنما هو نَعْتُ المأمور به فقط .

وقد اختلف الناس فى فائدة هذا النعت ، فقال قوم معناه عشرة كاملة ثواب الهَدْى ، أى إذا وقعت بدلا منه استكملت ثوابه ، وقال قوم غير ذلك ، والمقصود أنه ليس قوله (تلك عشرة كاملة) تكريرَ الأمرِ بلفظه لإفادة الفَوْرِيَّة منه ، إذ ثبت أنه لا يفيد الفورية .

— ١٢٣ —

قال المصنف : فإن قلت بل الغرض بتكرير الأمر أن يتكرَّرَ فى نفس المأمور أنه مرادٌ منه ، وليس الغرضُ الحثَّ على المبادرة إلى امتثال الأمر قلتُ

فى الجواب : المرةُ الواحدةُ كافيةٌ فى تعريف المأمور أنَّ المأمور به مراد منه ، فالزيادة على المرةِ الواحدةِ إن دلَّتْ على مادلت عليه المرةُ الواحدةُ لاغيرُ كان ذلك تطويلاً لافائدةَ فيه ، وهو ينافى إعجاز القرآن وفصاحته ، و إن دلت على أمر زائدٍ فتلك الزيادةُ ليست إلا الحثَّ على المبادرةِ إلى الامتثالِ ، وإلاَّ فليُبَيِّنْ الخصمُ معنى هذه الزيادةِ ، ولا سبيل إلى ذلك[1] .

أقول : إنه قد قال قَبْلَ هذا الموضع بأسطر إن قوله تعالى : (وأَنْ تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) أن هذه الألفاظَ كلَّها بمعنى واحد ، وإنما كرَّرها للزيادة فى تحسين عفو الوالد عن ولده والزوج عن زوجته .

وكذلك قوله تعالى : (إنما أشكو بَثِّى وحُزْنى إلى الله) وزعم أن ذلك من باب البلاغة .

فإذا كان هـذا قَوْلَهُ فما المانع من أن يكون المراد بالمرة الثانية والثالثة فى الأمر زيادة التكرير فى نفس المأمور ، وأن المأمورَ به مرادٌ منه ؟ فإنَّ هذا غرضٌ صحيحٌ ، لأنه لو قال له اعلم أن هذا الشيء مما أريده منك ، وكرَّرَ هذا مرتين أو مرارا لم يكن قبيحاً ، إذا قَصَدَ تأكيد تلك الحال وتقريرها فى نفس المخاطَبِ فلم يَذْهَبْ إلى أن المرةَ الثانيةَ أفادت عَيْنَ ما أفادته المرةُ الأولى من غير زيادة ، بل أفادت زيادةً بَيِّنةً ، وهى قوة اعتقادِ المخاطبِ أنَّ ذلك الشىء المأمورَ به مرادٌ لا محالةَ ، كما أفاد قوله (وأن تَعفُوا وتَصْفَحوا وتَغفِروا)

---

(١) المثل السائر ٣/٣١ .

زيادةَ تحسين العفو كما ذكره ، فقد بطل قوله : فليُبيِّنْ الخصمُ معنى هذه الزيادة ، ولا سبيلَ إلى ذلك ، وقد بيَّنْتُ أن سبيل الخصم إليها أوضح سبيل .

— ١٢٤ —

قال المصنف : وقد قال قومٌ إن الواو هاهنا إنما أكَّدتْ قوله تلك عشرة كاملة ، لئلا يتَوَهَّمَ أنها بمعنى (أو) قال : وهذا باطلٌ ، لأن الواو تجعل بمعنى (أو) مخالفةً لأصلها ، لمرجحٍ يُرَجِّحُ ذلك على كونها عاطفةً الذى هو الأَصْلُ ، ولا مُرَجِّح ها هنا(١) .

أقول : صاحبُ هذا القولِ إنما يقوله بَعْدَ ثبوتِ مقدِّماتٍ ، منها أنه لا بُدَّ فى كلام الله تعالى من فائدة ، ومنها أنه لا فائدةَ إذا جعلناها عاطفةً ، فإذا ثَبتَ ذلك له قال صحَّتْ حينئذٍ ، وجَعَلَها بمعنى أو ، ولا نزاعَ أنه إذا ثبت له ذلك كانت بمعنى أو .

— ١٢٥ —

قال المصنف : وأيضا فإن القرآن منتهى البلاغة والفصاحة ، فهلاَّ قال: (وبدأ بيننا وبينكم العداوة) ، ولم يقل والبغضاء ، وهلاَّ قال إنما (أشكو بَثِّى) ، ولم يَقُلْ وحُزْنى(٢) .

---

(١) المثل السائر ٣/٣٢ .
(٢) لم يعلق ابن أبى الحديد بشىء .

— ١٢٦ —

قال المصنف : وأيضا فإن الصومَ عبادة يجب فيها الاحتياطُ والإتيانُ بها على أكمل صورةٍ ، فكيف يظن أن الواو هاهنا بمعنى (أو)[١] .

أقول : أليس قد وردت الواو بمعنى أو فى قوله تعالى : (مَثْنَى وثُلاثَ ورباع)[٢] وهو فى النكاح ، والخطأ فيه أَصْعَبُ من الخطأ فى هذا الصوم ، فيجوز أن يكون سبحانه قال : (تلك عشرة كاملة) لإزالة توهُّمِ مَنْ يتوهَّمُ أن هذه الواو كتلك الواو .

— ١٢٧ —

قال المصنف · وأيضا فالسبعة ليست مماثلةً للثلاثة حتى تُجْعَلَ مُقابِلَتَها ، لأن معنى الآية إذا كانت الواو فيها بمعنى (أو) : إما أن تصوموا ثلاثة أيام فى الحج أو سبعة إذا رجعتم[٣] .

أقول : ولا إطعامُ المساكينِ يماثِل فى الصورة لكسوتهم ، ولا لِعتْقِ الرقبة ، فكيف قال : (فكفارته إطعامُ عَشَرةِ مساكينَ مِنْ أَوْسَطِ ماتطعمون أهليكم ، أو كُسْوَتُهمْ ، أو تحريرُ رقبة)[٤] فليس من شرط (أو) أن تتوسط بين المتماثلين فى الصورة ، وهذا الكلامُ ناقصٌ جدا .

---

(١) المثل السائر ٣/٣٢ .

(٢) سورة النساء ٣ .

(٣) المثل السائر ٣/٣٢ ومنه صححنا النص .

(٤) سورة المائدة ٨٩ .

— ١٢٨ —

قال المصنف : فأما عطف لفظة على لفظة ومعناهما واحد فكثير ، كقول المَنَخَّل اليَشْكُرِيّ :

الكاعب الحسناء تَرْ فُل في الدِّمَقْسِ وفي الحريرِ

فإن الدمقس هو الحرير ، وكقول آخر من شعراء الحماسة :

إني وإن كان ابن عمي غائبا لمقاذِفٌ من خَلْفِهِ وورائه

فإن الخلف هو الوراء(١) .

أقول : المثال الأول لا بأسَ به ، والثاني غيرُ جيد ، لأن الوراء قد وردت والمراد القدام في قوله تعالى : (وكان وراءهم مَلِكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غَصْباً)(٢) لأنه لو لم يكن قُدَّامَهُمْ ما خافُوا منه ، ولا احتاج إلى خَرْقِ السفينةِ .

وقال لَبيدٌ :

أليس ورائي إن تَرَاخَتْ منيتي
لُزومُ العَصا تُحْنَى عليها الأصابعُ(٣)

ومنه أيضا قوله سبحانه وتعالى : (من ورائه جهنم)(٤) .

---

(١) المثل السائر ٣/ .

(٢) سورة الكهف ٧٩ .

(٣) من قصيدته التي مطلعها :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

[الديوان ٢٣ طبعة فينا بتحقيق ضياء الدين الخالدي المقدسي]

(٤) سورة إبراهيم ١٦ .

وقال آخر :

أترجُو بنومرْوانَ سَمْعِي وطاعتي وقومى تَيْمٌ والفلاةُ ورائيا ؟[١]

— ١٢٩ —

قال المصنف : فأما حَدُّ الكناية فهى ما إذا وَرَدَت تجاذَبها جانباً حقيقةٍ ومَجازٍ ، وجاز حَمْلُها على الجانبين معاً لوَصْفٍ جامعٍ ، كقوله تعالى : (أو لا مَسْتُمُ النساء) فإنه يَصِحُّ المعنى ولا يَخْتَلُّ بالحمل على كل واحد من المعنَيَيْنِ وهما الجماع و إلصاق الجسد بالجسد ، ولذلك ذهب أبو حنيفة والشافعي إلى كل واحد من القولين[٢] .

ولهذا الحد تنفصل الكناية عن التشبيه والاستعارة وسائر المجازات ، لأنه لا يجوز حمل ذلك أجمع إلا على الجهة المجازيَّةِ فقط ، كقولنا زيد أسدٌ ، فإنه لا يجوزُ حملُهُ إلا على المجاز خاصةً ، لأنه يستحيل أن يكونَ زيد سبعا حقيقةً .

قال : والدليل على صحة ما قلناه أن الكناية أنْ تتكلم بشيء وأنت تريد غيره ، فإما أن يكون فى لفظ تجاذبه جانباً حقيقة ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ، أو فى لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة .

ولا يصح أن تكون فى لفظ تجاذبه جانبا حقيقة وحقيقة ، لأن ذلك هو

---

(١) كان بالأصل (وقوم تيم) .

(٢) عبارة ابن الأثير : ولهذا ذهب الشافعى رحمه الله إلى أن اللمس هو مصافحة الجسد الجسد ، فأوجب الوضوء على الرجل إذا لمس المرأة ، وذلك هو الحقيقة فى اللمس . وذهب غيره إلى أن المراد باللمس هو الجماع ، وذلك مجاز فيه ، وهو الكناية .

اللفظ المشترك ، وإذا أُطْلِقَ من غير قرينة تُخَصِّصُه كان مُبْهما غير مفهوم ، وإذا أُضيف إليه القرينة صار مختصا بشيء بعينه ، والكناية أن تتكلم بشيء وتريد غيره ، وذلك مخالفا للفظ المشترك إذا أضيف إليه القرينة ، لأنه يختص بشيء واحد لا يتعداه .

وكذلك لا يصح أن تكون الكناية في لفظ تجاذبه جانبا مجاز ومجاز ؛ لأن المجاز لا بُدَّ له من حقيقة نُقِل عنها ، لأنه فرعٌ عليها .

وذلك اللفظ الدالُّ على المجازين إما أن يكون للحقيقة شركة في الدلالة عليه أولا يكون لها شركة في الدلالة ، فيكون اللفظ الواحد قد دلَّ على ثلاثة أشياء : أحدها الحقيقة ، وهذا مخالف لأصل لوضع ، وإن لم يكن للحقيقة شركة في الدلالة كان ذلك مخالفا للوضع أيضا ، لأن أصل الوضع أن تتكلم بشيء وأنت تريد غيره .

وإذا أُخرجت الحقيقة عن أن يكون لها شركةٌ في الدلالة لم يكن الذى تكلمت به دالاًّ على ما تكلمت به ، وهذا محال .

فتحقق حينئذ أن الكناية أن تتكلم بالحقيقة وأنت تريد المجاز[1] .

أقول: إنا ما عرفنا أن الحدود يُبَرْهَنُ عليها ، ولا هي من باب الدَّعاوَى التى تَحتاج إلى الأدلَّةِ ، لأنَّ مَنْ وَضَعَ لفظَ الكناية لأمر من الأمور لا يحتاجُ إلى دليله ،

---

(١) المثل السائر ٣/٢ ٥ ومنه نقلنا النص .

ثم يقال له : ألم تَعُدَّ فى أمثلةِ الكناية قول النبى للحادِى بالحثِّ : (رفقاً بالقوارير) يعنى النساء ؟ وقول عبد الله بن سَلاَّم لمن رأى عليه ثوبا معصفرا (لو أن ثوبك فى تَنُّور أهلك أو تحت قدورهم لكان خيرا) وقول الشاعر :

إن لم تكن نَصْلاً فغِمْدُ نصالِ[1] .

يعنى امرأة هلكتْ ، فهل هذه المواضعُ مما يتجاذبها الجانبان ، ويجوز حملها على كل واحد منهما ؟ وهل يتوهَّمُ عاقلٌ أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أَنْجشةَ أن يَرْفُق بالزُّجاج ؟ وأن عبد الله بن سلام أمر صاحب الثوب المعَصْفَرِ أن يَحرِقَ ثوبه ؟ والبيت الشعرى أَبْعَدُ ، لأن المرأة إنسانٌ ، والإنسان لا يكون غمدا للسيف ، لأن الحيوان لا يكون جَمادا ، فإن جاز أن تكون هذه المواضع كنايات مع أن الأذهانَ لا تحملها إلا على مَحْمل واحدٍ ، ولا يَسوغُ حملها على غيرها جاز أن يكون قوله تعالى : (وإنْ كان مكرهم لِتزولَ منه الجبالُ)[2] وقول الشاعر : (ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ) كناية ، وإن كان لا يجوز حمله على كلا المحملين ، وإلا فما الفرق ؟

ثم يقال له : أهذا الاستدلال هو استدلالٌ على أن الكناية هى ما جاز حمله على واحدٍ من مَحْمَلَىْ الحقيقة والمجاز ، أم على أن الكناية لابد أن يتجاذبها جانبا حقيقة ومجاز ، مع قطع النظر عن جواز الحمل عليهما وعدم جوازه ؟ فإن أردتَ الأولَ فالاستدلالُ لا يماثل ذلك بحالٍ ، ولا تَعَلُّق له به ، وإن أردتَ

---

(١) راجع التعليق فى ٣/٧٠ .

(٢) سورة إبراهيم ٤٦ .

الثانى فإن أصحاب علم البيان قَبْلَك لم يخالفوك فى ذلك لتُحاجَّهُمْ وتَعيبَ عليهم ، وأنت لمَّا حكيت أقوال أصحاب هذه الصناعة لم تَحْكِ عنهم أنهم لم يشترطوا ذلك فى الكناية ، أعنى أن تكون مترددةً بين مَحْمل حقيقى ومحمل مجازىٍّ ، وإنما حكيت عنهم أنهم لم يشترطوا أن يَجوزَ حملُ الكلامِ على كلاَ المحملين ، فهذا هو الذى حكيت عنهم ، وخالفتهم ، وزعمت أنك استنبطت وتكلفت الدِّلالةَ عليه ، فكيف تتركه جانباً ، وتستدل على ما لا تَعَلُّقَ له به أصلا ؟

ثم يقال له : قد نزلنا على ما تريد ، ونحن نكلمك فيما يتعلق دَليلُك به ، لم قُلْتَ إنه لا بد أن يتردد لفظ الكناية بين محملى حقيقة ومجاز ، ولم يتردد بين مَجازَيْن ؟ والذى تكلمت به على ذلك ليس بشىء ، أما أوَّلاً فإنك أردت أن تقول : إمَّا أن يكونَ اللفظُ الدالُّ على المجازَيْن شركةً فى الدلالة على الحقيقة التى هى أصْلٌ لهما ، فأما قولك هذا فإنه يقتضى أن يكون الإنسانُ متكلما بشىء ، وهو يريدُ تَبْيينَ غيره ، وأصْلُ الوَضْعِ أن يتكلم بشىء وهو يريدُ شيئا غيره ، فيقال لك : أليس معنى قولك الكناية أن تتكلم بشىء وأنت تريدُ غيرَه أن قولك (شيئا) تريد واحدا غيره ؟

كلا ، ليس هذا هو المقصود أن تتكلم بشىء وأنت تريد غيره ، فإن أردت شيئا واحدا فقد أردتَ غيره ، وإن أردتَ شيئين أو ثلاثة أشياء أو ما زاد فقد أردتَ غيره ، لأن كلَّ ذلك غيرُ ما دلَّ عليه ظاهر لفظك ، فليس فى لفظة (غير) ما يقتضى التَّوحيدَ والإفرادَ .

وأما ثالثا فلم لا يجوز ألا يكون اللفظ الدالُّ على المجازين شركةً فى الدلالة على الحقيقة أصلاً ، بل لا يدلُّ إلا على المجازين فقط ؟

فأما قولك إذا خرجَتْ الحقيقةُ من أن يكون لها فى ذلك شركةٌ لم يكن الذى تكلمتَ به دالاًّ على ما تكلمتَ به ، وهو محالٌ ، فيقال لك : لم قلتَ ذلك ؟ ولم لا يجوز أن يكون للحقيقة مجازان قد كَثُرَ استعمالها حتى نُسِيَتْ تلك الحقيقةَ ، فإذا تكلم الإنسانُ بذلك اللفظ كان دالاًّ به على أحَدِ ذَيْنك المجازين ، ولا يكون له تعرضٌ مَّا لتلك الحقيقة ، فلا يكون الذى تكلم به حقيقة ، لأن حقيقة ذلك اللفظ قد صارت مَنْسيَّةً ، فلا يكون عدمُ إرادتها مُوجباً أن يكونَ اللفظُ الذى قد تكلم به المتكلم غير دالٍّ على ما تكلم به ، لأنها قد خرجَتْ بترك الاستعمال عن أن تكونَ هى ما تكلم به المتكلم .

— ١٣٠ —

قال المصنف : فأما حدُّ الألغازِ والأحاجِىِّ فهو معنى يستخرج بالحَزْر والحَدْس لا بدلالة اللفظ عليه حقيقةً ولا مجازا ولا تعريضا ، كقول القائِل فى الضِّرْس :

وصاحبٍ لا أملُّ الدَّهْرَ صُحبتَهُ ‏ ‏ ‏ يَشْقَى لنفْعى ويَسْعَى سَعْى مجتهدِ
ما إن رأيتُ له شخصا فمذْ وقعَتْ ‏ ‏ ‏ عينى عليه افترقنا آخر الأبَدِ[1]

---

(١) رواية المثل السائر (فرقة الأبد) .

قال : فهذا كلامٌ لا يفهم منه أنه الضِّرسُ حقيقةً ولا مجازا ولا من طريق المفهوم ، بل هو شيء يُحدَسُ ويُحزَرُ ، والخواطر تختلف فى الإسراع والإبطاء عند عثورها عليه[1] .

أقول : هذا يلزم عليه أن يكون كلامُ الزِّنجى إذا تعاطى العربىُّ حَزْرَ معناه من باب الأحاجى والألغاز . والصحيح أنْ يقال عِوَضَ هذا : هو كلُّ معنًى يُستخرجُ لا بدلالة اللفظ عليه حقيقةً ولا مجازا ولا تعريضا ، بل بالحَدْسِ مِنْ صفةٍ أو مِنْ صفاتٍ تُنَبِّهُ عليه .

وعلى هذا فالضِّرسُ إنما عُرِفَ من هذا الشعر حَدْساً من مجموعِ هذه الصفات ، وهى كونه صاحبا لا تُمَلُّ صحبته ، وأنه يسعى لينتفع به الإنسان ، وأن الإنسان لا يراه ، فإذا رآه فقد افترقا فِراق الأبد ، ومجموعُ هذه الصفات ليست إلا للضِّرس ، فتَنَبَّهَ الذهنُ من هذه الصفات والخصائص على مُرادِ المُلْغِزِ .

— ١٣١ —

قال المصنف : ومن الحذاقةِ فى هذه الصناعة أن تُجْعَلَ التحميداتُ فى أوائل الكتب السلطانيةِ مناسبةً لمعانى تلك الكتب ، قال : ووجدتُ أبا إسحاق الصَّابى على تَقَدُّمهِ فى فَنِّ الكتابة فى فتح بغداد وهزيمة الأتراك عنها الذى أوله (الحمد لله رب العالمين المَلِكِ الحقِّ) ثم ذكر منه نحو عشرة أسطر سنذكرها فى الجواب عن كلامه ، ثم قال : وهذه التحميدة لا تناسبُ هذا الكتابَ ، ولكنها

(١) المثل السائر ٣/٨٥ .

تَصْلُحُ أنْ تُوضَع فى صدر كتاب مُصَنَّفاتِ أصول الدين كالشامل للجُوَيْنى. أو الاقتصار للغزالى أو ماجرى مجراهما، فأما فى كتاب فتح فلا[1].

أقول : إن أبا إسحاق رحمه الله لم يُخْلِ هذه التحميدة من الإشارة إلى معنى الكتاب الذى هو مَغْزاه ومقصده، وذلك أن هذا الكتاب كتب فى انتصار عَضُدِ الدولة أبى شجاع وعِزِّ الدولة أبى منصور على الأتراك الذين تَرَأَّسَ عليهم سُبُكْتِكِين الحاجبُ الذى كان أمير جيوش معزِّ الدولة أبى الحسين وعز الدولة أبى منصور بعده، وهما سلطانا الحضرة ببغداد، وكان مع هؤلاء الأتراك الطائع لله الخليفة العباسىّ والمطيع لله والفتكين القائد الجليل القدر المشهور بالشجاعة بين الأتراك[2] وبأيديهم بغداد وأعمالها، فإن عَضُدَ الدولة وعز الدولة تضافرا على المسير إلى هؤلاء من فارس والأهواز، وصَدَمَا الأتراك صدمةً عظيمةً فطحنوهم، وانحاز الطائع لله إلى تِكْرِيتَ مُتَحَصِّنًا بالقلعة، وطار الأتراك وهم زيادة على عشرة آلاف فارسٍ إلى الشام ومصر، ودخل عَضُدُ الدولةِ ومعزُّ الدولة إلى مدينة السَّلام، واستقرَّا على سرير المملكة، بعد أن وقَعَ اليأسُ من ذلك.

فقول أبى إسحاق الصَّابى (الأبَدِىّ بلا انتهاء) وقوله (الدائمِ لا إلى أجَلٍ معدود) وقوله (لا تُخْلقه العصورُ، ولا تُغيِّره الدهور) وقوله (لا تُزاحِمُهُ مناكبُ القُرناء، ولا تحاذيه أقدام النظراء) وقوله (الصمد الذى لا كفء له،

---

(١) المثل السائر ٣/١٠٨ .

(٢) ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية ١١/٢٧٧ أن الأتراك التفوا حول أمير يقال له الفتكين .

والفَذّ الذى لاتوأم له) وقوله (الحى الذى لاتخترمه منون ، والقيّوم الذى لا تَشْغله الشئون)وقوله(القدير الذى لاتئودُهُ المعْضِلاتُ ، والخبير الذى لا تُعْيِيه المشكلات) كل ذلك إشارة إلى أن المُلْكَ ليس إلا لله تعالى ، وأن ملك البشر لاحقيقة له، لسرعة زواله وانقضائه ، وأن كل أحد من ملوك الأرض وإن عظم شأنه وقهر الملوكَ سلطانُهُ يزول سريعا ، وينقضى وشيكا ، فهؤلاء الملوك الذين طحنهم الدهر بكلكله فى هذه الواقعة فإن منهم من مات كالمطيع لله ، وسبكتكين وهما خليفةٌ وملكٌ مانا فى الطريق قبل الواقعة ، ومنهم من فَرَّ ولاذ بالمعاقل ، وتَحَصَّنَ خوفا على نفسه كالطائع ، ومنهم من حمله الرعبُ على أن صار رعيةً وسُوقَةً تحت أيدى ملوك أُخَرَ كالفتكين ، فإنه لم يَبِنْ وجهُهُ إلا بِمِصْرَ ، وصار من جملة رعية العزيز نِزار بن مَعَدّ صاحبها ، ومنهم من تَشَرَّدَ فى البلاد ، وفارق الأموال والأولاد ، كالأتراك ، فجميع ماأومأ إليه الصَّابى ملائمٌ للواقعة التى كتب هذا الكتاب فيها ، وغير خارجٍ عن مقصدها ومغزاها .

والعَجَبُ قولُهُ ينبغى أن تكون هذه التحميدهُ فى صدر كتابٍ من أصول الدين كالشامل للجُوَيْنى والاقتصار للغزالى ، وأين الاقتصار من الشامل حتى يَجْمَعَ بينهما فى التمثيل ، والاقتصار مقدمةٌ فى نحو خمسة كراريس ، والشامل كتاب كبير فى أكثر من خمسة مجلدات ؟ .

وهذا مثل أن يقال : هذا ينبغى أن يكون فى كتاب فقهى كالبُغْية لأبى إسحاق الشيرازى أو الحاوِى للماوردى ، ومثل أن يقال : هذا ينبغى أن يكون فى كتاب نحوِيٍّ كاللُّمع لابن جِنِّى أو شرح سيبويه للسِّيرافى ، ومثل أن يقال :

هذا ينبغى أن يكون فى كتاب لغوى كالفصيح لثعلب أو تهذيب اللغة للأزهرى، وكان الواجب حيث ذكر الشامل أن يذكر ما يناسبه كالهداية لابن الباقِلَّانى . وإذْ ذكر الاقتصاز ضم إليه مايجرى مجراه كالإرشاد للجُوينى ، وهذا يدل على أنه قد سمع بهذين الكتابين سَماعا ولم يرهما عِيانًا .

— ١٣٢ —

قال المصنف : فأما المطابقة فهى اصطلاح أهل هذه الصناعةِ على أنها الجمع بين الشيء وضده ، كالليل والنهار ، والسواد والبياض .

قال : ولا أعلم من أيِّ شيء اشْتَقُّوا هذا الاسم ، ولا وجهَ مناسبة بينه وبين مُسَمَّاه ، ولعلهم قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم نعلمها نحن[1] .

أقول : الطَّبَقُ فى اللغة المشقة قال الله سبحانه : (لتركَبُنَّ طبقاً عن طَبَق)[2] أى مشقةً بعد مشقة ، فلما كان الجمع بين الضِّدين على الحقيقة شاقًّا بل متعذِّراً ، ومِنْ عادتهم أن تُعطَى الألفاظُ حكم الحقائق فى نفسها توسُّعاً سَمَّوْا كلَّ كلام جُمع فيه بين الضِّدين مطابقةً .

— ١٣٣ —

قال المصنف : فأما ترتيب التفسير فمثل قوله تعالى : (وجعلنا آية النهار مبصرة) فَقَدَّم الليل ثانيا لمَّا قَدَّمه أولاً[3] ، وقوله تعالى: (فمنهم شقىٌّ وسعيدٌ ،

---

(١) المثل السائر ٣/١٤٣ .
(٢) سورة الانشقاق ١٩ .
(٣) [وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة] سورة الإسراء ١٢ .

فأما الذين شَقُوا ففى النار) ، فابتدأ بتفصيل أحوال الأشقياء ، لأنه ابتدأ بذكرهم أولاً .

قال : ومن ذلك قول أبى تمام :

وكان لهم غيثاً وعِلْماً فمُعْدِمٌ فيسأله أو باحث فيسائله

وقول على بن جَبَلَةَ :

فتًى وقفَ الأيامَ بالسُّخط والرِّضا
على بَذْلِ عُرْفٍ أو على حدِّ مُنْصُلِ (١)

أقول : إنه سها فى إدخال بيت على بن جبلة فى جملة هذه الأمثلة ، لأن الشاعر لما فَسَّرَ قَدَّمَ بَذْلَ العُرفِ وهو المراد بالرّضا وأخَّر حَدَّ المُنْصلِ ، وهو المراد بالسّخط ، وهما فى صدر البيت على خلاف هذا الترتيب ؛ ولكن هذا نظير قوله تعالى : (يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ ، وتَسْوَدُّ وجوه ، فأما الذين اسْوَدَّتْ وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم(٢)) . .

— ١٤٣ —

قال المصنف : وفيما يُؤخذ على الأعشى قوله .

وما مُزْبِدٌ من خليج الفُرا تِ جَوْنٌ غوارُبهُ تَلْتَطِمْ
بأجْوَدَ منه بِماَ عونِهِ إذا ماسماؤهُمُ لم تَغِمْ

---

(١) المثل السائر ٣/١٧٥ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٦ .

قال : فمدح ملكا بالجود بالماعون ، والماعون كل ما يستعار من قدومٍ أو قصعةٍ أو قِدْرٍ وما أشبه ذلك ، ومَدْحُ الملوك بل السوقةِ بذلك قبيح[(١)] .

أقول : إن الماعون هنا هو الصدقة ، ذكر ذلك علماء التفسير ، وأنشدوا بيت الراعى .

قومٌ على الإسلام لما يمنعوا ماعونهم ويضيعوا التهليلا[(٢)]

وقال صاحب ديوان الأدب : الماعون الزكاة ، وقال أبو عبيدة : الماعون المنافع كلها .

---

(٣) المثل السائر ٣/١٧٩ .

(٤) الراعى هو عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل ، سمى راعى الإبل لكثرة وصفه لها . طبقات الشعراء لابن سلام ٢٥٠ ، ٤٣٤ .

والبيت من قصيدته فى مدح عبد الملك بن مروان وشكواه من عمال الصدقات ومن الخوارج ، ومطلعها :

ما بال دفك بالفراش مذيلا أقذى بعينك ام أردت رحيلا ؟

الدف : الجنب . مذيل : قلق غير مستقر .

والقصيدة كلها فى جمهرة أشعار العرب ٣٥٣ وفى خزانة الأدب للبغدادى ٢/٥٠٣ كثير من أبياتها .

وقبل البيت الذى استشهد به ابن أبى الحديد قوله :

أخليفة الرحمن إن عشيرتى أمسى سوامهم عزين فلولا

أى أن فقر عشيرته وسوء حالها تمثل فى أن ماشيتهم صارت عارية من الأحمال والرجال ومتفرقة مبعثرة ، ويصح أن تكون الكلمة (عزين) جمع عزة وهى الفرقة والجماعة .

والبيت فى اللسان مادة هلل وفى تفسير الطبرى وتفسير الزمخشرى فى سورة الماعون هكذا :

قوى على الإسلام لما يمنعوا ماعونهم ويضيعوا التهليلا

وفى اللسان مادة معن وفى خزانة الأدب ٢/٥٠٤ :

قوم على التنزيل لما يمنعوا ماعونهم ويبدلوا التنزيلا

وفى جمهرة أشعار العرب :

قوم على الإسلام لما يتركوا ماعونهم ويضيعوا التهليلا

وأما الماعون فقد ذكر المفسرون واللغويون أن معناه المال أو الزكاة المفروضة أو الطاعة والزكاة أو ما يستعان به ويستعار كالدلو والفأس والقدر ، وذكروا أن المراد بالتهليل التوحيد ورفع الصوت بالشهادتين .

— ١٣٥ —

قال المصنف : وقد وقعت على كلام لأبى إسحاق الصابى فى الفَرْق بين المترسِّلِ والشاعر ، ثم ذكر الفصلَ وهو منثور ، وسيأتى فى حكايةِ اعتراضِه ، وقال فى آخر حكايته : وقد عجبتُ من ذلك الرجل الموصوف بذلاقةِ اللسان وبلاغة البيان ، كيف يصدر عنه مِثْلُ هذا القول الناكب عن الصواب ، الذى هو فى باب ونَصَى[1] النظر فى باب ، اللهم غَفْراً .

قال : أما قوله إن خير المترسِّلِ ما وَضَح معناه ، وأعطاك سَماعُهُ فى أولِ وَهْلةٍ ما تضمنت ألفاظُه ، وأفخر الشعر ما غَمُضَ فلم يعطك غرضَه إلا بعد مماطلة منه ، فإن هذه دعوى لا مُسْتَنَدَ لها ، بل الأحسَنُ فى الأمرين معاً هو الوضوح والبيان ، فإن احتجَّ أبو إسحاق بما قد ذكره فى نُصرةِ ذلك من قوله إن الشعر بُنى على حدود مقرَّرة ، وأوزان مقدرة ، وفُصِّلَتْ أبياته ، فكان كل بيت منها قائما بذاته ، فليس يحتاج إلى غيره إلا ما جاء على وجه التضمين ، وهو عَبثٌ ، فلما كانَ النَّفَسُ لا يمتد فى البيت الواحد بالنثر من مقدار عَروضِهِ وضَرْبه وكلاهما قليل ، احتيج إلى أن يكون الفَضْلُ فى المعنى ، واعْتُمد أن يَلْطُف ويَدِقّ ، والترسل مبنىٌّ على مخالفة هذه الطريقِ إذ كان كلاما واحدا لا يتجزأ ولا يتفَصَّلُ إلا فصولا طوالا ، وهو موضوع وَضْعَ ما يمُرّ على أسماع شىء من خاصَّةٍ ورعيةٍ وذوى أفهام ذكيةٍ ، وأفهام غبيةٍ ، فإذا كان سهلا

---

(١) نصى النظر : لعلها من نصى الرجل الثوب إذا كشفه .

ساغ فيها وقرب ، لجميع ما يُستَحبُّ في الأول يكره في الثاني حتى إن التضمين عيبٌ في الشعر ، وفضيلةٌ في الترسل ، فإن هذا الذي ذكره أبو إسحاق ليس بجواب .

وهَبْ أن الشعر كان كل بيت منه قائما بذاته فلِمَ كان مع ذلك غامضا ؟ وهَبْ أنَّ الكلام المنثور كان واحدا لا يتجزأ فلم كان مع ذلك واضحا ؟ ثم سلمتَ إليه هذا فماذا يقول في الكلام المسجوع الذي كل فِقرةٍ منه بمنزلة بَيْتٍ من الشعر (١) .

أقول : إن من أظرف الأشياء أنك تحكى جواب أبي إسحاق من أوله إلى آخره ، ثم تعيد السؤال الأولَ بعينه الذى قد حكى جوابه ، وذلك أن أبا إسحاق قد سأل نفسه فقال : ولم صار الأحْسَنُ في الشعر الغموضَ وفى الرسائل الوضوحَ ؟ وأجاب عنه بما قد ذكره ، ومن يحكى ذلك الجواب لا يَحْسُنُ له أن يقول فى الاعتراض عليه : وهبْ أن الشعر كان كل بيت قائما بذاته ، فلِم كان مع ذلك غامضاً ؟ وهَبْ أن الكلامَ المنثورَ كان واحدا لا يتجزأ فلم كان مع ذلك واضحا ؟

وذلك أن الجواب قد أتى على الفرق بين الموضعين ، ونحن نعيده فنقول إن البيت الشعرى لما كان محجوراً على الشاعر أن يزيد فيه أو يَنْقُصَ منه أو يُلْحِقَ به بيتا آخر فيحصل أحدهما مرتبطا بصاحبه بخلاف الرسائِل ،

(١) ملخص من المثل السائر ٤/٦ .

فكان المعنى قد يساوى ألفاظ البيت تارةً ، ويزيد عليها تارة ، وينقص عنها أخرى ، فكان الأحسنُ أن يزيد المعنى ، لأن اللفظ الحسن بغير معنى كامرأة ميتة حَسَنةِ الصورة .

وكلما كانت معانى الكلام أكثر ، ومدلولات ألفاظه أتَمَّ كان أحسن ، ولهذا قيل خير الكلام ما قلَّ ودلَّ ، فإذاً كان أصل الحُسْنِ معلولا لأَصْلِ الدلالة .

وحينئذ يتم إشماع الجملة ، لأن المعانى إذا كثرتْ ، وكانت الألفاظ تفى بالتعبير عنها احتيج بالضرورة إلى أن يكون الشعر يتضمن ضروبا من الإشارة وأنواعا من الإيماءات والتنبيهات ، فكان فيه غموضٌ ، كما قال البحترى :

والشِّعْرُ لمحٌ تكفى إشارته وليس بالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ (١)

ولسنا نعنى بالغموض أن يكون كأشكال إقليدس والمجِسْطى والكلام فى الجزء، بَلْ أن يكون بحيث إذا ورد على الأذهانِ بلغَتْ منه معانى غير مُبْتذلةٍ ، وحكما غير مطروقة ، فلا يجوز أن يكونَ الشعر الذى يتضمن الحِكمَ ليس بالأحسن ، فثبت أن الشعر الذى يتضمن الحكم هو أحسن الشعر ، ومعلوم أن

---

(١) يقول قبل هذا البيت :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه

من قصيدته التى ردَّ بها على عبيدِ الله بن عبد الله (ولعله ابن طاهر) التى مطلعها :

لا الدهر مستنفد ولا عجبه تسومنا الخسف كله نوبه
نال الرضا مادح وممتدح فقل لهذا الأمير ما غضبه ؟

الديوان ١/١٣٢ .

أحسنَ الشعر الذى يتضمن الحكم هو المعنوى كشعر أبى تمام ومن أخذ إخذه، فذلك القدر من المعنى هو لذى يَعْنيهِ أبو إسحاق بالغموض لا غير .

فأما قوله: فماذا تقول فى الكلام المسجوع الذى كل فقرة منه بمنزلة بيت من الشعر ؟ فجوابهُ أن السجع ليس شرطا فى المنثور فقد تكونُ الرسائلُ غير مسجوعةٍ ، ولا يمكن أن يكون الشعر إلا وزنا محدودا .

وبعد فالرسائلُ المسجوعة لا يلزم فيها ما ذكرناه فى الشعر ، لأن الفقرة الواحدة قد يطيلها الكاتب ، وقد يُقَصِّرها ، وقد يأتى بفقرتين طويلتين ، ثم يأتى بعدهما باثنتين قصيرتين ، ثم يأتى بعد ذلك بفقرتين إحداهما قصيرةٌ والأخرى طويلة ، فهو يضرب يمينا وشمالا ، ويمد نَفَسَه تارةً ويُقَصره أخرى ، وليس كذلك القصيدة ، فإن صاحبها عند ابتدائها يلتزم عَروضا واحدةً ، ولو زاد فيها حرفا واحدا أو نقصه لكان شعره فاسدا ، فأين أحد النوعين من الآخر ؟

— ١٣٦ —

قال المصنف : قال أبو إسحاق: والفرق بين المترسلين والشعراء أن الشعراء إنما أغراضُهم التى يَرْمون إليها وَصْفُ الديارِ والآثارِ ، والحنينُ إلى الأهواء والأوطان ، والتشبيبُ بالنساء ، والطلبُ والاستدعاء والمدحُ والهجاء ، فأما الكتَّابُ فإنما يترسلون فى سَدادِ ثغرٍ ، أو إصلاحِ فسادٍ ، أو تحريض على جهادٍ ، واحتجاجٍ على فئةٍ ، أو مجادلةٍ لملّةٍ ، أو دعاء لألفةٍ ، أو نهيٍ

عن فرقةٍ ، أو تهنئةٍ بعطية ، أو تعزية . قال : وهذا من أبى إسحاق تحكُّمٌ محض لا يستند إلى شبهة فضلا عن بيِّنةٍ .

وأىُّ فرق بين الشاعر والكاتب فى هذا المقام ؟ وكما يصف الشاعر الآثارَ والديارَ ويحنُّ إلى الأهواء والأوطانِ ، فكذلك يكتب الكاتب فى الاشتياق إلى الأوطان ، ومنازل الإخوان والأحباب ، ولهذا كانت الكتب الإخوانيات بمنزلة الغزل والتشبيب من الشعر ، وكما يكتب الكاتبُ فى إصلاحِ فساد أو سداد ثغرٍ أو دعاء إلى ألفة أو نهيٍ عن فرقة أو تهنئةٍ أو تعزية فكذلك الشاعر . فإن نَدَّتْ عن الصابى قصائد الشعراء فى أمثال هذه المعانى فكيف خَفِيَ عنه قصيدةُ أبى تمام فى استعطاف مالك بن طَوق على قومه التى مطلعها :

حسم الصلح ما اشتهته الأعادى

وقصيدة البحترى التى يذكر فيها غزو البحر ، ومطلعها :

ألم ترَ تغليسَ الربيع المبكِّرِ

والقصائد التى تجرى على هذا المجرى[1] كثيرة .

أقول : السؤال فى هذا المقام قد يقع عن أمرين أحدهما أن يقال ما الفرق بين الشعر والكتابة ؟ والثانى أن يقال لم كانت منزلة الشاعر دون منزلة الكاتب ؟ وأحد هذين السؤالين غير الثانى ، وكلام أبى إسحاق هو فى السؤال الثانى ، لأنه هكذا قال : إنما كانت حقيقة الشاعر دون الكاتب لكذا وكذا ، وهذا جواب صحيح .

---

(١) ملخص من المثل السائر ٤/٧ .

أما أولاً فإنه بنى الشعر على الاجْتداء والطلب حتى إن امرأ القيس وهو الملك ابن الملك اجْتَدَى سَعد بن الضّباب بالشعر ، وقد كان ابن المنصور الخليفة ابن الخلائف يجتدى بالشعر من عبيد الله بن سليمان بن وهب ومن ولده القاسم ابن عبيدالله وزير المعتضد والمكتفى ، فان لم يكن يجتدى مالاً فإنه كان يجتدى جاها .

ولم تبن الكتابة على هذا ، ولا عرفت بهذا .

وأما ثانيا فلأن المراد من الكتابة ومقصدها الذى وُضِعَتْ لأجله ما ذكره أبو إسحاق من سَدادِ الثغور ، وإصلاح الأمورِ ، والدعاء إلى الألفة ، والنهى عن الفرقة ، والاستعداد لحرب ، والإعلام بفتح ، ولم يوضع الشعر لذلك .

ألا ترى أنا ما رأينا ولا سمعنا ملكا كتب إلى ملك آخر فى إصلاح فساد ، أو استمداد على عدو ، أو إعلام بفتح قصيدةً من الشعر ، وإنما كتب الرسائل ؟ .

وأما القصائد التى ذكرها هذا الرجل لأبى تمام وأبى عبادة وأبى الطيب فإنا لم نَنْفِ كون الشعر قد يشتمل على ذلك ، ولكنا قلنا إنه ليس هو الغرضَ الأصلىَّ الذى وُضِعَ الشعر له ولا يكون أصلا فيه بل عارضا وطارئا ، والرسائل بخلاف ذلك ، لأن هذا المعنى هو الغرض الأصلىُّ فيها .

وكذلك نجد هذا الفن فى الديوان الذى حجمُه عشرون كراسا فى قصيدة أو قصيدتين ، ونجده فى الرسائل التى حجمها عشرون كراسا فى خمسة عشر كراسا

ونحن فما غرضنا إلا الفرق بين مَقْصِدَىْ النوعين ، وقد اتضح .

فأما قوله قد يكتب كاتب الإخوانيات ، ويذكر فيها الحنين والشوق ، فهى فى المنثور كالنسيب فى المنظوم ، فيقال له إن القصائد التى وُضِعَتْ للمدح يستحب أن يكون أولها نسيبا وغزلا ، وهكذا وجدنا كتابا فى فتح أو استنجاد أو تعريض أو تخذيل فى صدره رسالة إخوانية تتضمن الحنين والبكاء ، وذكر الآثار والديار ، فيكفى أبا إسحاق فى الفرق بينهما هذا القدر فقط ، فإن ذلك من أدَل الدلائل على أن الشعر فى الأصل موضوع لهذا المعنى ، والاجتداء والطلب ، فلذلك لم يَحتَجْ أحدهما للآخر ، وجعل منه الرسائِل بخلاف ذلك .

— ١٣٧ —

قال المصنف : فهذه الفروقُ كلها ضعيفةٌ ، والذى عندى أن الفرقَ بَيْنَ النوعين من ثلاثة أوجه :

أحدها أن هذا منظومٌ ، وذاك منثور ، والآخر أنَّ من الألفاظ ألفاظا لا يَحْسُنُ استعمالها فى الكتابة ويحسن فى الشعر ، كبعض الألفاظ العربية .

والثالث أن الشاعر إذا أطال فى شرح معان متعددةٍ واحتاج أن يأتى بمائتى بيت أو أكثر فإنه لا يحتذى فى الجميع ، بل فى الأول ، والكاتب لا يأتى من ذلك جميعه[1] .

أقول : قد بينا أن إسحاق الصَّابى لم يتعرضْ لبيان الفَرْقِ بين الكتابة

(١) ملخص من المثل السائر ٤/١٠ .

والشعر من حيث هما كتابةٌ وشعرٌ ، وانما تكلم عن العِلَةِ التى كانت لأجلها مرتبة الكاتب أعلى من مرتبة الشاعر ، فأما الفروقُ بين الكتابة والشعر فهى كثيرة ، وليست مقصورة على هذه الوجوهِ الثلاثة التى ذكرها هذا الرجل .

فإن من جملة الفروق أن للشاعر أن يُطرِى نفسه ويَمدَحها فى شعره ، وليس ذلك للكاتب .

ومنها أن للشاعر أن يبالغَ ويُوغِل حتى يَدْخُلَ فى الإحالة ، وليس ذلك للكاتب .

ومنها أن الشعر يَحْسُنُ فيه الكذبُ ولا يستحسن فى الكتابة .

ومنها أن الشاعر يخاطبُ الملك بالكاف كما يخاطب السوقة ، ويدعوه باسمه ، وينسبه إلى أمه ، وليس ذلك للكاتب .

والفروق بين الشعر والكتابة كثيرة ، وإنما نبهنا على بعضها إبطالا لقوله إن الفروقَ هذه الثلاثةُ فقط .

فهذا ماسَنَح لى بأدنى النظرِ من الاعتراضِ على هـــذا الكتاب ، وقد اعترضتُ على مواضعَ كثيرةٍ منه للقول فيها مجالٌ فلم نذكرها إيثاراً للايجاز ، ومواضعَ يَرْجِعُ كلامُه فيها إلى الجَدلِ ومَحْضِ العِنادِ لا فى المعنى ، فكان الاشتغالُ بها والبحث فيها تضييعاً للوقت من غير فائدة .

ورأيت أن يَتِمَّ الكتابُ هاهنا حامداً الله ، ومُصَلِّيا على خير خَلْقِهِ ﴿ محمد النبى الأمى صلواتُ الله عليه وسلامُهُ ﴾

فهرس الموضوعات

بقية المثل السائر

فهرس الفلك الدائر

« الفهـــارس العـــامة »

« للفلك الدائر على المثل السائر »

فهرس الشعراء

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(غ)

(ف)

فهرس الأعلام

(ث)

(ج)

(ح)

(ش)

(ق)

(ن)

فهرس القبائل والطوائف والأمم

(غ)

(ف)

فهرس الأماكن

فهرس الكتب

(ص)

فهرس القوافى

صدر	عجز	بحر	جزء	صفحة
إذا أنت	القمرِ	طويل	٢	١٠٩
غمام سماح	وترُ	»	»	١١٧ ، ١٣٢
متى لاح	ولا نزرُ	»	»	»
إلامَ	المنابرِ	»	»	١٦٤
وليست	أميرُها	»	»	٢٢٨
على لاحب	جرجرَا	»	»	٢٥٩
أرى أمّ عمرو	أصبرَا	»	»	»
أماوى	الصدرُ	»	»	٢٩٦
أماوى	العذرُ	»	»	»
ويوم	السحرُ	»	٣	١٥
متى لاح	نزرُ	»	»	»
أحن	المآزرِ	»	»	٧٢
لنا هجمة	والخطرُ	»	»	٨٧
وراءك	المخامرِ	»	»	١٠٨
تقول	تسيرُ	»	»	١٢٤
لعمرك	والقطرُ	»	»	١٤٢
وأعور	فبصيرُ	»	»	١٤٦
فلا الجود	مدبرُ	»	»	١٤٧
تربصَ	مستسرِّ	»	»	١٥٢
ألايا اسلمى	القطرُ	»	»	١٧١

صدر	عجز	بحر	جزء	صفحة
فى الخد	محولاَ	كامل	٢	١٠٦
وإذا علاها	الحجل	»	»	١٣٦
كان الشباب	والهزلِ	»	»	»
خلط	بدلالِ	»	»	١٤٣
آلت أمور	وصيالِ	»	»	١٤٤
وكأنما	وأرجلِ	»	»	١٥٠
مجد	راحِلا	»	٣	٢٦٥
لهفى	شمائلا	»	»	٢٦٧
بخمانِ	بأفلاَ	»	»	٢٦٨
واستعار	الأطفال	خفيف	»	١٤٣
أى ربع	الليالى	»	١	٣٥٤
فسد	الهزالِ	»	»	٤٠٥
وإذ اهتزّ	نصلاَ	»	٢	١٣٥
إن يكن صبر	الأجلاّ	»	»	»
ما رأى	إسرالِ	»	»	٣٣٢
يوسطه	الانتظار	»	٣	٢٣٩
وإذا شئت	رئبالِ	»	»	»
وإذا	ريقُ	»	»	٢٥٥
إن يكن	الأجلاّ	»	»	٢٩١
تضيق	الجحفلُ	متقارب	٢	١١
إلاَمَ	للعاقلِ	»	»	١٣٧

(ه)

أنصاف الأبيات

(ء)

(ب)

(ث)

فهرس الأمثال

فهرس الحكم

فهرس الأيام

فهرس الآيات

(ب)

(ح)

(خ)

(ذ)

(ر)

(س)

(ش)

(ق)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون
مالبثوا غير ساعة : جـ١ص٢٤٣،
جـ١ ، ص ٣١٨

ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم
فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم
الأرض بما رحبت : جـ ٢
ص ٢٠٠

ويوم نسيّر الجبال وترى الأرض
بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم
أحدا جـ٢ ص ١٩٠

ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم
يوزعون جـ ١ ص ٨٧

ويوم يعرض الذين كفروا على النار
أذهبتم طيباتكم فى حياتكم
الدنيا جـ ٢ ص ٣٠٠

ويوم ينفخ فى الصور ففزع من
فى السموات ومن فى الأرض
جـ٢ ص ١٩٠

(ى)

ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب
من الرحمن فتكون للشيطان وليا
جـ ١ ص ٣٧٧

يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب
من الرحمن فتكون للشيطان
وليا جـ ٢ ص ٢٦٢

ياأبت إنى قد جاءنى من العلم
مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا
سويا جـ ٢ ص ٢٦٢

ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان
كان للرحمن عصيا جـ ٢ ص ٢٦٢

يأيها الذين آمنوا جـ ٢ ص ٣١٤

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق
تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون
جـ ١ ص ٣٠٤

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا
مع الصادقين جـ ١ ص ٢٨٨

يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة
من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر
الله ذروا البيع جـ ١ ص ٣٠٧

يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم
وأولادكم عدوّا لكم فاحذرهم
وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن
الله غفور رحيم جـ ٣ ص ٢٩

فهرس الأحاديث النبوية

إن الأعمال تعرض على الله يوم الاثنين
ويوم الخميس ، فيغفر لكل امرئ
لا يشرك بالله شيئاً إلا أمراً كانت
بينه وبين أخيه شحناء ج ١ ص

إن الله خلق آدم من قبضة قبضها
من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم
على قدر الأرض ، منهم الأحمر
والأبيض والأسود ، وبين ذلك ،
والحزن والسهل والخبيث والطيب
ج ١ ص ٢٠٦

إن الله لا ينظر يوم القيامة إلى من
جرّ ثوبه خيلاء ج ٢ ص ٢٩٤

« إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى
أن ينكحوا ابنتهم عليا فلا آذن
ثم لا آذن ثم لا آذن إلا أن
أطلق علىّ ابنتى وينكح ابنتهم »
ج ٣ ص ١٠

إن جبريل عليه السلام عرض علىّ
صورتك فى سرقة وقال هذه زوجتك
فى الدنيا والآخرة ، فقلت : إن
يكن ذلك من عند الله يمضه ج ١
ص ٢٠٥

إن سورة الإخلاص تعدل ثلث
القرآن ج ٢ ص ٢٦٨

إن قريشا قد نهكتهم الحرب ، فإن
شاءوا ماددناهم مدة ، ويدعوا
بينى وبين الناس ، فإن أظهر
عليهم وأحبوا أن يدخلوا فيما دخل
فيه الناس ج ٢ ص ٣٤٢

أنا ابن الذبيحين ج ١ ص ٨٠

أنا أفصح من نطق بالضاد ج ٤
ص ٤ ، ٥

أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن
مات وترك مالا فلورثته ومن ترك
دينا أو كلاًّ أو ضياعا فإلىّ
وعلىّ ج ٣ ص ١٢٠

انتقلنا عن الجهاد الأصغر إلى الجهاد
الأكبر ج ١ ص ٩٤

الأنصار كرشى وعيبتى ١٩٤

إنكم تحشرون على أرض بيضاء
كقرصة النقى ج ٢ ص ١٩

إنكم ترون أهل الدرجات العلا
فى الجنة كما ترون الكواكب فى
أفق السماء ج ١ ص ٢٠٩

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(هـ)

هو الوأدة الصغرى ج ٢ ص ١٥١

(و)

والله إنكم لتجبنون وتبخلون وتجهلون وإنكم من ريحان الله ، وإن آخر وطأة وطئها الله بوجّ ج ٣ ص ٧٤ ، ٤

الولد للفراش وللعاهر الحجر ج ١

وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم ج ٢ ص ١١٨

(ى)

يا أباذرّ ، إنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مال يتيم ج ١ ص ٣٢٥

يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ ج ١ ص ٣٦١

« الفهارس العـــامة »

« للفلك الدائر على المثل السائر »

فهرس الأعلام[1]

(١) هذه الفهارس خاصة بالفلك الدائر وحده وهو يبدأ من صفحة ١٣ من القسم الرابع فليلاحظ .

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

فهرس الشعراء

فهرس القوافى وأنصاف الأبيات

(ا)

(ب)

(م)

(ن)

أنصاف الأبيات

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الأمثال

مراجع التحقيق

١ — القرآن الكريم .

٢ — أخبار أبي تمام . الصولى . تحقيق الأساتذة خليل عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٦ — ١٩٣٧

٣ — الأغانى . الأصفهانى . طبعة الساسى وطبعة دار الكتب .

٤ — الأصمعيات . تحقيق الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون . دار المعارف بمصر .

٥ — الأمالى . القالى . طبعة دار الكتب ١٣٤٤ ه .

٦ — أمالى الشريف المرتضى . مطبعة السعادة ١٣٢٥ ه .

٧ — البداية والنهاية . ابن كثير . مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١ — ١٩٣٢

٨ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

٩ — تاريخ بغداد . الخطيب البغدادى . مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩ — ١٩٣١

١٠ — تاريخ الرسل والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية بالقاهرة .

١١ — تأويل مشكل القرآن . ابن قتيبة . تحقيق الأستاذ سيد أحمد صقر .

١٢ — الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور . ابن الأثير . تحقيق الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد . مطبعة المجمع العلمى العراقى .

١٣ — جواهر الألفاظ . قدامة بن جعفر . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٣٢

١٤ — خزانة الأدب . البغدادى . تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد .

١٥ — الخصائص . ابن جنى . مطبعة الهلال بمصر ١٣٣١ ١٩١٣

١٦ — دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجانى . مطبعة المنار بمصر ١٣٢١ هـ .

١٧ — ديوان ابن الرومى : (١) شرح الشيخ محمد شريف سليم . مطبعة الهلال ١٣٣٥ — ١٩٠٧

(٢) طبعة الأستاذ كامل كيلانى والشيخ عبد الرحمن خليفة .

١٨ — ديوان ابن نباتة : نشر الأستاذ محمد القلقيلى .

١٩ — ديوان أبى تمام . (١) بشرح الخطيب التبريزى تحقيق الدكتور محمد عبده عزام مطبعة دار المعارف .

(٢) طبعة صبيح .

(٣) طبعة محمد جمال .

٢٠ — ديوان أبى نواس . (١) تحقيق الأستاذ أحمد الغزالى مطبعة مصر ١٩٥٣

(٢) طبعة المطبعة العمومية بالقاهرة ١٨٩٨

٢١ — ديوان الأخطل . تحقيق الأب أنطون صالحانى .

٢٢ — ديوان الأعشى الكبير . تحقيق محمد حسين . النموذجية بالقاهرة ١٩٥٠

٢٣ — ديوان امرئ القيس . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف .

٢٤ — ديوان أمية بن أبى الصلت . المطبعة الوطنية ببيروت .

٢٥ — ديوان البحترى . مطبعة هندية بمصر ١٣٢٩ — ١٩١١

٢٦ — ديوان جرير . نشر الأستاذ عبد الله الصاوى . مطبعة الصاوى بمصر .

٢٧ — ديوان جميل . تحقيق الأستاذ بطرس البستانى . مكتبة صادر ببيروت .

٢٨ — ديوان حسان بن ثابت . تحقيق الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى . المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٧ — ١٩٢٩

٢٩ — ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت والسكرى والسجستانى . تحقيق الأستاذ نعمان طه .

٣٠ — ديوان الحماسة لأبى تمام : شرح المرزوقى . تحقيق الأستاذين أحمد أمين وعبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م

٣١ — ديوان ذى الرمة . المكتبة الأهلية ١٩٣٤

٣٢ — ديوان سقط الزند . بشرح التنوير . مطبعة مصطفى محمد .

٣٣ — ديوان الشريف الرضى (١) المطبعة الأدبية ببيروت ١٣٠٩ هـ
(٢) مطبعة الحلبي بمصر .

٣٤ — ديوان الصولى

٣٥ — ديوان العباس بن الأحنف . طبعة الجوائب ١٢٩٧ هـ .

٣٦ — ديوان عمر بن أبي ربيعة . تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة بمصر .

٣٧ — ديوان عنترة بن شداد . تحقيق الأستاذين عبد المنعم شلبى وإبراهيم الإبيارى .

٣٨ — ديوان الفرزدق . نشره الأستاذ عبد الله الصاوى . مطبعة الصاوى بمصر .

٣٩ — ديوان القاضى الأرجانى . طبعة بيروت .

٤٠ — ديوان كثير عزة . طبعة الجزائر .

٤١ — ديوان المتنبي . بشرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى . الطبعة الثانية .

٤٢ — ديوان مسلم بن الوليد . تحقيق الدكتور سامى الدهان . دار المعارف بمصر .

٤٣ — ديوان المعانى . أبو هلال العسكرى ، القاهرة حسام الدين القدسى ، ١٣٥٢ هـ .

٤٤ — ديوان مهيار الديلمى . دار الكتب بمصر ١٣٤٩ هـ — ١٩٣٠ م

٤٥ — ديوان النابغة الذبياني (١) طبعة مصر ١٩٠٠ (٢) ضمن مجموعة دواوين طبعة المطبعة الأهلية ببيروت .

٤٦ — رسائل ابن الأثير . تحقيق الأستاذ أنيس المقدسي بيروت ١٩٥٩

٤٧ — زهر الآداب للحصري . تحقيق الأستاذ علي البجاوي . مطبعة الحلبي ١٣٧٢هـ — ١٩٥٣ م

٤٨ — سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي . تحقيق الأستاذ علي فوده . المطبعة الرحمانية ١٣٥٠ — ١٩٣٢

٤٩ — سيرة ابن هشام . تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي .

٥٠ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب . ابن العماد الحنبلي . القدسي ١٣٥٠

٥١ — الشعر والشعراء . ابن قتيبة (١) تحقيق الأستاذ أحمد شاكر . مطبعة الحلبي ١٣٧٠ هـ

(٢) طبعة الحلوجي ١٣٣٢ هـ

٥٢ — صبح الأعشى . القلقشندي . مطبعة دار الكتب بمصر .

٥٣ — صحيح البخاري . مطبعة الحلبي ١٣٧٢هـ — ١٩٥٣م

٥٤ — الصناعتين . أبو هلال العسكري . تحقيق الأستاذين علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

٥٥ — طبقات الشعراء . ابن سلام . تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر . مطبعة دار المعارف بمصر .

٥٦ — طبقات الشعراء . ابن المعتز . تحقيق الأستاذ عبد الستار فراج . دار المعارف .

٥٧ — العقد الفريد . ابن عبد ربه . تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤١ — ١٩٤٩

٥٨ — فوات الوفيات . ابن شاكر . تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة بمصر ١٩٥١

٥٩ — القاموس المحيط . الفيروزابادي . المطبعة الحسينية بمصر ١٣٤٤ هـ .

٦٠ — الكامل في التاريخ . ابن الأثير . إدارة الطباعة المنيرية بمصر ١٣٥٣

٦١ — اللباب في الأساليب . ابن الأثير . القدسي ١٣٥٧ هـ

٦٢ — لزوم مالا يلزم . أبو العلاء المعري ، مطبعة الشرقيين الأدبية بمصر ، ١٩٣٠

٦٣ — لسان العرب . ابن منظور . المطبعة الأميرية ، ١٣٠٠ — ١٣٠٧هـ .

٦٤ — مجمع الأمثال . للميداني . المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣١٠ هـ .

٦٥ — المختار من رسائل أبي إسحاق الصابي . المطبعة العثمانية بلبنان ، ١٨٩٨م .

٦٦ — مروج الذهب . المسعودي . المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ

٦٧ — معاهد التنصيص على شواهد التلخيص . العباسي . تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السعادة بمصر .

٦٨ — معجم الأدباء . ياقوت . طبعة (دار المأمون) بالقاهرة ١٣٥٥ هـ .

٦٩ — معجم البلدان . ياقوت . طبعة القاهرة ١٣٢٣ هـ .

٧٠ — مقامات الحريري . المطبعة الحسينية بمصر ١٣٤٨هـ — ١٩٢٩م

٧١ — الموازنة بين أبي تمام والبحتري . الآمدي . دار المعارف بمصر ١٩٦١

٧٢ — الموشح . المرزباني . السلفية ١٣٤٣هـ

٧٣ — نزهة الألباء في طبقات الأدباء . الأنباري . طبع جمعية إحياء مآثر العرب .

٧٤ — النقائض . رواية أبي عبيدة . ليون ١٩٠٥ م .
٧٥ — النهاية . ابن الأثير . مطبعة الشيخ عثمان عبد الرازق بمصر ، ١٣١١هـ .
٧٦ — الهاشميات . الكميت . مطبعة شركة التمدن ١٣٣٠ هـ .
٧٧ — الوساطة بين المتنبي وخصومه . على بن عبد العزيز الجرجاني . تحقيق الأستاذين محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى .
٧٨ — وفيات الأعيان . ابن خلكان . المطبعة الميمنية بالقاهرة ١٣١٠ هـ .
٨٩ — يتيمة الدهر . الثعالبي . مطبعة الصاوى بالقاهرة ١٩٣٥

مطبعة نهضة مصر

مطبعة نهضة مصر